الرسائل التوحيدية

تأليف
الأستاذ العلامة
السيد محمد حسين الطباطبائي
قدس سره

مؤسسة النعمان
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - الغبيري - ص.ب: ٢٤٩/٢٥

الرسائل التوحيدية

تأليف

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

قدس سره

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net رابط بديل

مؤسسة النبراس
للطباعة والنشر والتوزيع
حسن كحيل براهيم علي
وأولاده

والبكم بعض المنشورات
كما تزودكم بكتب دور النشر الأخرى

١ ـ عيقري من بلادي ـ كامل العبياح الذي المجموع ٧٦
اختاجاوكن نامة إسلامية عربية .....
٢ ـ صلح الحسن ـ الشيخ راضي آل ياسين .....
٣ ـ عمل من الهند إلى الخليج ـ كاظم العزيزي وملحق به
الكتاب الثاني الإمام علي والعلوم الطبيعية
٤ ـ البراهين العلمية في إثبات القدرة الإلهية ـ مائة دليل
وبرهان على وجود الخالق: الشيخ عبد الغفار
٥ ـ مفاتيح الجنان ـ مع الصحيفة السجادية ـ فبر
٦ ـ ضياء العاملين ـ للحجة حرجي (سحاب)
٧ ـ مفاتيح الجنان ـ للقمي، (سحاب) .....
٨ ـ معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين ـ
للحائري، (مجلدين) .....
٩ ـ التعليقات الكاملة والغررة ـ للشيخ محمد حسين الظهراء
وملحق به الكتاب الثاني مع الدكتور أحمد أمين في
حديث المهدي والمهدوية تفتيح محمد أمين زين الدين
١٠ ـ يوم الإسلام ـ تأليف احمد أمين .....
١١ ـ دراسات في عقائد الشيعة الإمامية ـ للسيد محمد علي
الحسيني العاملي ـ يحتاج من كل كتاب
١٢ ـ طب الإمام الرضا (ع) ـ الرسالة الذهبية
١٣ ـ كشكول البحراني ـ (٣ مجلدات) ....
١٤ ـ الفصص العجيبة ـ عبد الحسين وصفيه .....
١٥ ـ الكتاب ـ للشيخ الأنصاري (٣ مجلدات) .....
١٦ ـ مدينة المعاجز ـ معاجز آل البيت للبحراني
(٥ مجلدات) .....
١٧ ـ مصائب المتقين ـ مرتضى العسكري (٣ مجلدات)
١٨ ـ من حياة الإمام الرضا (ع) ـ المعصومة (ع) السيد
عبد العظيم الحسني ـ النهائي تأليف علي العسيلي
١٩ ـ الحجة فما نزل في القائم الحجة ـ للبحراني
٢٠ ـ الصرخ بعد الشهادة ـ للقاضي النوبخي، (مجلدين)
٢١ ـ مصباح الكفعمي ـ بحلة حديدية وحرف واضح
(مجلدين) .....
٢٢ ـ الكتب المدفونة والمقلة المنحوتة ـ دائرة معارف ـ
او فشكول ـ للسيوطي .....
٢٣ ـ الدر النضيد في التختم باليمين ـ للطبرسي ..
٢٤ ـ أخلاق أهل البيت ـ للسيد مهدي المصدر
٢٥ ـ فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى من مهدها إلى
لحدها (مجلدين) أعد الركاني .....
٢٦ ـ مسباحة في الضرب أو مصير الأرواح بعد الموت مع
حضور الإمام علي بلا ألف ولا نقط وقصيدة
الكوثرية وقصيدة محمد بجدوب
٢٧ ـ فرائد الأصول ـ رسائل الشيخ الأنصاري، (مجلدين)
٢٨ ـ نقد الآراء الضلالية وحل مشكلاتها ـ كاشف الغطاء
(مجلدين)
٢٩ ـ مأسيس الشيعة لعلوم الإسلام تأليف امين الله السيد
حسن الصدر .....
٣٠ ـ الرسائل التوحيدية ـ للسيد محمد حسين الطباطبائي
٣١ ـ رواح يغير اعوجاج ـ السيد حسين الشامي .....
٣٢ ـ الإمام الصادق كما عرفه علماء المغرب بحثه إلى العربية
الدكتور عمر الدين آل علي .....
٣٣ ـ الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد ـ السيد محسن
الأمين العاملي .....
٣٤ ـ أسرار الشهادة ـ الدربندي بحلة جديدة وحرف
واضح (مجلدين) .....
٣٥ ـ تفسير فرات الكوفي بحلة حديدة وحرف واضح
(مجلدين) .....
٣٦ ـ مفتاح الجنة ـ في الأدعية والزيارات وتعقيب الصلاة/
حسن الكتبي
٣٧ ـ الخطاب أو المعاف بين القلب والإعجاب محمد أمين
زين الدين
٣٨ ـ فضائل أهل البيت المسمى بـ مبشرات الغرجات/
محمد الصغار .....
٣٩ ـ رحلة الزنجاني للمرحوم الشيخ عبد الكريم الزنجاني
(مجلدين)
٤٠ ـ محشر البحور ـ الدكتور هادي العقيلي .....
٤١ ـ الإمام المهدي (ع) وظهوره، الشيخ الصدري، وأخبار
الملاحم وعلامات الظهور: للشهرودي ..
٤٢ ـ إسلام امرأة ـ سام مرتضى .....
٤٣ ـ التربية بين الإسلام والنظم الوضعية ـ سام مرتضى
٤٤ ـ دروس في المنطق ـ سام مرتضى .
٤٥ ـ الإشارات والتنبيهات ـ لابن علي ابن سينا مع
شرح نصير الدين الطوسي، معنى الاشارات
ملونة دينياً (٤ مجلدات) ....
٤٦ ـ الشعاع في علماء تحديث والطباع.
٤٧ ـ التوبة إلى الله

لبنان بيروت حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الكنار ـ شاهين سنتر
منطقة ٧ شارع ٥٣
تلفون المحل والمسكن: ٠١/٢٧٠٩١٦

الرسائل التوحيدية

رسالة التوحيد — رسالة الاسماء

رسالة الافعال — رسالة الوسائط

رسالة الانسان قبل الدنيا — رسالة الانسان في الدنيا

رسالة الانسان بعد الدنيا

تأليف
الأستاذ العلامة
السيد محمد حسين الطباطبائي
قدس سره

مؤسسة النعمان
للطباعة والنشر والتوزيع
حسن محمد ابراهيم علي
الكتبي
تلفون المحل والمسكن: ٠١/٢٧٠٩١٦

حُقُوق الطَّبع محفُوظة
للناشر
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مؤسسة النعمان
للطباعة والنشر والتوزيع
حسن محمد إبراهيم علي
لبنان - بيروت - تلفون المحل والمسكن: ٠١/٢٧٠٩١٦
العنوان - حارة حريك شارع دكاش بناية الكنار شاهين سنتر
منطقة ٧ شارع ٥٣

هو الله عزّ اسمه

رسالة في التوحيد

وهي الرسالة الأولى من كتاب التوحيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين محمد وآله الطاهرين . إنّ في الوجود موجوداً واحداً واجب الوجود مستجمعاً لجميع صفات الكمال .

أقول : وقد أقام على وجوده وصفاته المليون من المسلمين وغيرهم براهين حجّة تامّة معروفة ونحن نثبت هاهنا مبلغ فهمنا من حقيقة هذا المعنى إلى فصول .

فصل ١

ليتأمل فيما يقوله السوفسطائية من أن العالم موهوم وما يقوله الفيلسوف من ثبوت الحقائق في الخارج ، وهذا المعنى وإن لم يكن له

تفسير وبيان تام غير انا ندري ما نقوله وما يقولون فمرادنا من لفظ الاصيل والواقع وما في الواقع والحقيقة والوجود ومنشأ الآثار هو الذي نثبته في قبالهم .

فصل ٢

فحيث أن الوجود حقيقة أصيلة ولا غير له في الخارج لبطلانه فهو صرف فكل ما فرضناه ثانياً له فهو هو إذ لو كان غيره أو امتاز بغيره كان باطلاً فالثاني ممتنع الفرض فهو واحد بالوحدة الحقة على ما تقدم .

ومن هنا يظهر أنه مشتمل على كل كمال حقيقي في ذاته بنحو العينية .

وحيث أن الوجود بذاته يناقض العدم ويطارده فهو بذاته غير قابل لطروّ العدم وحمله عليه فهو حقيقة واجبة الوجود بذاتها .

فحقيقة الوجود حقيقة واجبة الوجود بالذات ومن جميع الجهات مستجمعة لجميع صفات الكمال منزهة عن جميع صفات النقص والعدميات .

فصل ٣

حيث ان كل مفهوم منعزل بالذات عن المفهوم الآخر بالضرورة فوقوع المفهوم على المصداق لا يختلف عن تحديد ما للمصداق بالضرورة وهذا ضروري للمتأمل وينعكس إلى أن المصداق الغير المحدود في ذاته وقوع المفهوم عليه متأخر عن مرتبة

ذاته نوعاً من التأخر وهو تأخر التعين عن الإطلاق .

ومن المعلوم أيضاً أن مرتبة المحمول متأخر عن مرتبة الموضوع وحيث أن الوجود الواجبي صرف فهو غير محدود فهو أرفع من كل تعين اسمي ووصفي وكل تقييد مفهومي حتى من نفس هذا الحكم فلهذه الحقيقة المقدسة إطلاق بالنسبة إلى كل تعين مفروض حتى بالنسبة إلى نفس هذا الإطلاق فافهم .

فصل ٤

ومعنى ما ذكرناه في الفصول السابقة متكرر في الكتاب والسنة فمنها الآيات الكثيرة الدالة على ان للّه ما في السموات والأرض وللّه ملك السموات والأرض وله ما سكن في الليل والنهار إذ من الواضح ان هذا الملك ليس هو الملك الإعتباري الموهوم المعتبر عند العقلاء لغرض التمدن بل هو نسبة حقيقية والنسب الحقيقية لا تتم إلاّ بقيام المنسوب بالمنسوب إليه وجوداً وذاتاً ولعمري لو لم يكن في كتاب الله إلاّ آيتان وهما قوله عزّ اسمه : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلاّ بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لكان فيهما كفاية ان يفهم الإنسان الحر حقائق هذه المعاني .

فالإنسان إذا انتزع عن زخارف هذه الدنيا وأعرض عن عرض هذه الأدنى ووحّد الهمّ ووجه الوجه نحو الرب الأعلى وأشرف نحو عالم القدس شاهد عياناً أن هذه الأمور التي دارت بين أبناء الدنيا من المطالب والمقاصد والأغراض والآمال والآثار من الملك والأمر والعظم و الرئاسة والتقدم والعزة والنسب والأنساب والأحساب ومقابلاتها وآلاف من أنحائها إنما هي أمور موهومة وملاعب وملاهي

وأمتعة الغرور وكذلك أنواع اللذائذ والنعم والإستفادات التي يتنافس فيها المتنافسون ويعمل لها العاملون ويلتقي دونها المنون إنما هي أوهام سخر الله سبحانه عليها أرباب الحياة ليبلغ الكتاب أجله ولله أمر هو بالغه .

فإذا رأى هذا الإنسان أن الحق عزّ اسمه في كتابه ولسان رسوله وألسنة أوليائه ينسب إلى نفسه أنه رحمن رحيم خالق مالك عزيز حكيم غفور شكور ، وأن له كل اسم أحسن وأنه منزه عن كل قبيح ونقص وهذا الإنسان يعلم أن هذه معان حقيقية ونسب وإضافات ثابتة أيقن بلطف القريحة وسلامة الذوق أن هذه النسب أنحاء قيام ذوات الموجودات بالحق عزّ اسمه وقيامه سبحانه بذاته .

ثم أكد له ذلك شهود الحق سبحانه على كل شيء بحسب خصوص ذاته أوَ لم يكفِ بربّك أنه على كل شيءٍ شهيد .

ثم قرره على ذلك البرهان فإن النسبة الحقيقية الثابتة بحسب ذات الشيء كخلق الحق سبحانه وملكه لذات الشيء يجب أن تتحقق في مقام الذات وحيث انها وجودات رابطة فلا تتحقق إلّا مع طرفيها فالمنسوب إليه متحقق هناك بالضرورة فبالضرورة إحدى الذاتين قائمة بالأخرى وإلّا لزم وحدة الأثنين وهو محال فملك الحق سبحانه للموجودات نحو قيام ذاتها به سبحانه وكذلك سائر النسب والمعاني فافهم .

ومنها الأخبار الكثيرة المستفيضة في انه تعالى واحد لا بالعدد فقد روى الصدوق (رضي الله عنه) في التوحيد والخصال والمعاني مسنداً عن شريح بن هانى قال :

ان أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام)

فقال : يا أمير المؤمنين أتقول أن الله واحد . قال : فحمل الناس عليه ، وقالوا : يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب ؟ فقال أمير المؤمنين : دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي تريده من القوم .

ثم قال (عَلَيْهِ السّلام) : يا أعرابي إن القول في ان الله واحد على أربعة أقسام فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ ووجهان يثبتان فيه .

فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل : واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال : انه ثالث ثلاثة .

وقول القائل : هو واحد من الناس يريد به انّه النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنّه تشبيه وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك .

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل : هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربّنا .

وقول القائل : انه عزّ وجلّ أحدي المعنى يعني به لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّ وجلّ .

وفي التوحيد مسنداً عن هارون بن عبدالملك قال : سئل الصادق (عَلَيْهِ السّلام) عن التوحيد فقال : هو عزّ وجلّ مثبت موجود لا مبطل ولا معدود الخبر .

وفي نهج البلاغة في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) : واحد لا بعدد .

وفي خطبة أخرى له : واحد لا من عدد .

وفي خطبة أخرى له : ومن حدّه فقد عدّه .

وبالجملة الأخبار والخطب مستفيضة في هذا المعنى وهذا

كالصريح في أن وجوده تعالى صرف الحقيقة لا يعزب عنه وجود إذ لو كان مع وجوده وجود بحقيقة معنى الموجود عرض عليهما العد بالضرورة فهذا واحد وذاك ثانٍ فلا وجود مع وجوده سبحانه إلّا قائم الذات بوجوده كما في حديث موسى بن جعفر (عَلَيْهِ السّلام) : كان الله ولا شيء معه وهو الآن كما كان .

وفي التوحيد والمعاني والإحتجاج عن هشام عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال للزنديق حين سأله عن الله ما هو ، قال : هو شيء بخلاف الأشياء ارجع بقوله شيء إلى إثبات معنى وأنه بحقيقة الشيئية غير أنّه لا جسم ولا صورة . الخبر .

ومنها أخبار أخر في التوحيد ففي التوحيد والأمالي وغيرهما مسنداً عن الرضا (عَلَيْهِ السّلام) في خطبته : أحد لا بتأويل عدد ظاهر لا بتأويل المباشرة متجل لا باستهلال رؤية باطن لا بمزايلة الخطبة .

وفي التوحيد مسنداً عن عمار بن عمرو النصيبي قال : سألت جعفر بن محمد عن التوحيد فقال : واحد صمد أزلي صمدي لا ظل له يمسكه وهو يمسك الأشياء بأظلتها ، عارف بالمجهول معروف عند كل جاهل فرداني لا هو في خلقه ولا خلقه فيه .

والأخذ بالأظلة هو تقويم الحق عزّ وجلّ اسمه الأشياء بالماهيات والتعينات وبعبارة أخرى ظهور الحق سبحانه في المظاهر بالتعينات الماهوية وأطلاقه سبحانه في نفسه .

وقد ورد تفسير الظل في بعض أخبار الطينة ففي خبر عبدالله بن محمد الجعفي وعقبة المروي في تفسيري علي بن إبراهيم والعياشي عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) : ثم بعثهم-أي الخلق- في الظلال ، قلت : وأي شيء الظلال ؟ قال : ألم ترَ إلى ظلّك في الشمس شيء

وليس بشيء . الخبر . وهذا هو الماهيات أو الوجودات المستعارة بالعرض .

وفي بعض خطب علي (عَلَيْهِ السّلام) دليله آياته ووجوده اثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تمييزه عن خلقه وحكم التميز بينونة صفة لا بينونة عزلة . الخطبة .

وهذه الكلمة أنفس كلمة وأوجزها في التوحيد ولها كمال الدلالة على ذلك .

وفي نهج البلاغة وفي التوحيد مسنداً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) عن علي (عَلَيْهِ السّلام) في خطبة خطاباً لذعلب : هو في الأشياء كلها غير متمازج بها ولا بائن عنها . الخطبة .

وفي التوحيد مسنداً عن مسلم بن أوس عن علي (عَلَيْهِ السّلام) : بل هو في الأشياء بلا كيفية . الخطبة ، وهذا المعنى وما يقرب منه متواتر في الخطب والأخبار .

ومنها الأخبار النافية للصفات وهي في معنى الفصل الثالث ففي نهج البلاغة في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) : أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخصلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه .

وفي خطبة أخرى له (عَلَيْهِ السّلام) : أول عبادة الله معرفته وأصل معرفته توحيده ونظام توحيده نفي الصفات عنه .

وفي هذا المعنى أخبار أخر أيضاً وهذه الأخبار يفسرها أخبار أخر أن المراد من الصفات المنفية ليست هي الصفات المحدثة بل أصل الوصف المفيد للتحديد والمغاير للذات .

ففي اثبات الوصية للمسعودي عن علي (عَلَيْهِ السّلام) في

خطبة : فسبحانك ملأت كلّ شيء وباينت كلّ شيء فأنت لا يفقدك شيء وأنت الفعال لما تشاء تباركت يا من كل مدرك من خلقه وكل محدود من صنعه . الخطبة .

وخطب علي والرضا (عَلَيْهِما السّلام) وكلمات سائر الأئمة (عَلَيْهِم السّلام) مملوءة من هذا المعنى ومن المعلوم أن نفس الصفة تحديد وتعيين ونفس المفهوم مدرك فافهم .

وفي التوحيد مسنداً عن عبدالأعلى عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) تسمى بأسمائه فهو غير أسمائه والأسماء غيره والموصوف غير الوصف . الحديث .

وقوله الموصوف غير الوصف إشارة إلى أن المراد بالغيرية الغيرية التي يستدعيها مفهوم الوصف المحدّد مصداقاً لا أن الفاظ الأسماء غيره سبحانه وهو ظاهر .

ومن هذا الباب ما ورد في الحديث من أن معنى الله أكبر الله أكبر من أن يوصف رواه الصدوق في المعاني بطريقين .

ومنها ما في الكافي والتوحيد عن إبراهيم بن عمر عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله تبارك وتعالى خلق أسماء بالحروف غير متصوت وباللفظ غير منطق وبالشخص غير مجسّد وبالتشبيه غير موصوف وباللون غير مصبوغ منفي عنه الأقطار مبعد عنه الحدود محجوب عنه حس كل متوهم مستتر غير مستور فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معاً ليس واحد منها قبل الآخر فاظهر منها ثلاثة أشياء لفاقة الخلق إليها وحجب واحداً منها وهو الإسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت فالظاهر هو الله وتبارك وسبحان لكل اسم من هذه أربعة أركان فذلك اثنا عشر ركناً ثم خلق لكل

ركن منها ثلاثين اسماً فعلاً منسوباً اليها فهو الرحمن الرحيم الملك القدوس الخالق البارى المصور الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم العليم الخبير السميع البصير العزيز الجبار المتكبر العليّ العظيم المقتدر القادر السّلام المؤمن المهيمن البارىء المنشىء البديع الرفيع الجليل الكريم الرازق المحيي المميت الباعث الوارث فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتّى تتم ثلاثمائة وستين إسماً فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحجب للاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وهذه الرواية الشريفة في دلالتها على تأخر الأسماء عن مقام إطلاق الذات لا تحتاج إلى تقريب وهي على نفاستها تدل على أصول جمة من علم الأسماء وتنزل الاسم من الاسم وتفرع الخلق عليها :

ومنها ما في الارشاد وغيره عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في كلام له : ان الله أجل من أن يحتجب عن شيء أو يحتجب عنه شيء ، وما عن التوحيد مسنداً عن يعقوب بن جعفر الجعفري عن موسى بن جعفر (عَلَيْهِ السّلام) في كلام له : ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور . الخبر . وقد جمع هذا الخبر بين ظهوره تعالى بالأشياء واستتاره بها بعينها وهو معنى لطيف مرجعه إلى خفائه من شدة ظهوره .

قد ظهر ان التوحيد الاطلاقي أرفع وأجلّ من أن يوصف بوصف وفي الحديث من سأل عن التوحيد فهو جاهل ومن أجابه فهو مشرك .

فصل ٥

وهذا المعنى من التوحيد أعني الإطلاقي مما انفرد بإثباته الملة المقدسة الإسلامية وفاقت به الملك والشرائع السالفة فظاهر ما بلغنا منهم في التوحيد هو مقام الواحدية وانه تعالى الذات الواجبة المستجمعة لصفات الكمال فغاية ما وصل إلينا من معنى التوحيد من الملل السابقين وكلمات الحكماء المتألهين هي ما مرّ في الفصل الثاني والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

تمّ والحمد لله والسلام على محمد وآله

بسمه تعالى

مقالة ملحقة بالرسالة نبيّن فيها ان ما ندب إليه دين الإسلام المقدس آخر دَرجة من التوحيد ونبّين فيها ثمرة ذلك في فصول ثلاثة ليعلم أن التوحيد حيث أن له إضافة إلى ما وحد فيه يختلف باختلاف المضاف إليه والمتصور من ذلك ثلاثة الذات والاسم وهو الذات مأخوذاً بوصف والفعل فالتوحيد أيضاً ثلاث توحيد ذاتي وتوحيد أسمائي وتوحيد أفعالي أي أن كل شيء قائم الذت وقائم الإسم وقائم الفعل به سبحانه .

فصل ١

قد عرفت أن مقتضى البرهان المذكور في الفصل الثالث ارتفاع كل تعين مفهومي وتحديد مصداقي عن الذات وأنحاء كل تميز هناك حتى هذا الحكم بعينه .

ومن هنا يظهر أن استعمال لفظ المقام والمرتبة ونحوهما هناك مجاز من باب ضيق التعبير .

ومن هنا يظهر أن التوحيد الذاتي بمعنى معرفة الذات بما هو ذات مستحيل فإن المعرفة نسبة بين العارف والمعروف وقد عرفت أن النسب ساقطة هناك وكل ما تعلق من المعرفة به فإنما بالإسم دون الذات ولا يحيطون به علماً وإليه يرجع ما ذكروا أن المعرفة على قدر

العارف مثال ذلك الإعتراف من البحر فإن القدح مثلاً لا يريد إلاّ البحر لكن الذي يأخذه على قدر سعته .

ويظهر أيضاً أنه خارج عن حيطة البيان أيضاً .

ومن هنا يتبين أن التوحيد الذاتي آخر درجات التوحيد فإن كمال التوحيد بحسب إطلاق الموحد فيه وإرساله وهو هاهنا كل تعين حقيقي أو إعتباري حتى نفس التوحيد قال سبحانه خطاباً لنبيه : ﴿ وإنّ إلى ربّك المنتهى ﴾ .

فصل ٢

قد عرفت أن مقتضى البرهان المذكور في الفصل الثاني من الرسالة انّ الله عزّ اسمه ذات مستجمع لجميع صفات الكمال منفي عنه جميع صفات النقص وأن جميع صفاته عين ذاته وهذا هو الموروث عن الشرائع السابقة المندوب إليه بدعوة المرسلين والأنبياء الماضين (عَلَيْهِم السّلام) وهو الذي يظهر من تعاليم الحكماء المتألهين من حكماء مصر واليونان والفرس وغيرهم وهو الذي شرحه الأعاظم من فلاسفة الإسلام مثل المعلم الثاني أبي نصر ورئيس العقلاء الشيخ أبي علي وعليه صدر المتألهين في كتبه وأسس أن الوجود حقيقة واحدة مشككة ذات مراتب مختلفة في الشدة والضعف وأن أضعفها الهيولى الأولى وأقواها وأشدها الوجود غير المتناهي قوة وكمالاً وهو المرتبة الواجبية ، وأن جميع المراتب موجودة غير انها بالنسبة إلى المرتبة الواجبية وجودات رابطة غير مستقلة في نفسها لا يحكم عليها وبها مستهلكة تحت لمعان نوره واشراق بهائه .

وقد ظهر مما تقدم إن إثبات أكمل مراتب توحيد الحق سبحانه

هو الذي اختصت به شريعة الإسلام المقدسة وهذا هو المقام المحمدي الذي اختص به محمد والطاهرون من آله صلّى الله عليهم والأولياء من أمته على نحو الوراثة .

فصل ٣

والذي ذكرناه من التوحيد الذاتي هو المشهود بالشهود التام الساذج الموجود فإن الإنسان بحسب أصل فطرته يدرك بذاته وجوده وإن كل تعين فهو عن إطلاق وإرسال إذ شهود المتعين لا يختلف عن شهود المطلق .

ويشاهد أيضاً أن كل تعين في نفسه وغيره فهو قائم الذات بالإطلاق فمطلق التعين قائم الذات بالإطلاق التام .

ويجد أيضاً من نفسه لزوم الخضوع والكدح من تعينه لإطلاقه وحسن الحسن وقبح القبيح وإن التكليف محتاج إلى البيان وهذه المعاني الثلاثة هي التوحيد الذاتي والولاية المطلقة والنبوة العامة وهذه الشريعة الإسلامية هي القائمة على هذه الأمور بتمامها وكمالها قال الله : ﴿ وأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ .

وفي التوحيد مسنداً عن العلاء بن الفضيل عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال : التوحيد .

وفي تفسير علي بن إبراهيم مسنداً عن الرضا عن أبيه عن جدّه محمد بن علي بن الحسين (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ فطرة

الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال : هو لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين إلى هاهنا التوحيد .

وقال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وقال تعالى : ﴿ يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ .

والآثار كثيرة في ان تشريع الشرائع يحوم حول الأمور الثلاثة .

وقد أنتج استعمال الفطرة الساذجة في هذه الشريعة المقدسة في كل من مرتبتي الملكات والإفعال نتيجته عجيبة لم يسبقها إليها شيء من الشرائع السالفة .

أما في مرتبة الملكات فالملكة علم والإنسان الكامل لا يرى إلاّ الحق سبحانه والإنسان المستكمل لا ينبغي أن يتوجه إلى غير الحق سبحانه فلا يبقى موضوع للأخلاق الرذيلة كالعجب والكبر والرياء والسمعة والجبن والبخل وحب الجاه والركون إلى الدنيا وغير ذلك فتقع الأخلاق الفاضلة حينئذ لله ولله فافهم ذلك .

ولعمري كم من الفرق بين أن يزيل الإنسان رذيلة الجبن مثلاً عن نفسه تارة أبن لا يتوجه إلى غير الحق سبحانه فلا شيء حتى يخاف منه وتارة بأن يتكل على الله في دفع المكروه المخوف عنه كما في ظاهر الشرائع .

وتارة بأن يعتقد أن وقوع المكروه المخوف عنه أمر ممكن مساوى الطرفين والخوف والجبن بترجيح جانب الوجود ترجيح بلا مرجح وهو قبيح أو أن الجبن رذيلة عند الناس لا يقع الثناء عليه كما يقوله الحكيم الإخلاقي وعلى ذلك فقس ومع ذلك فقد استعملت

الشريعة المقدسة في تعليمه جميع الوجوه .

وإلى نحو هذا المعنى يشير ما في تفسير القمي في حديث المعراج فقال رسول الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : يا ربّ أعطيت أنبيائك فضائل فاعطني ، فقال الله : وقد أعطيتك فيما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي لا حول ولا قوة إلّا بالله ولا منجى منك إلّا إليك .

وأما في رتبة الأفعال فقد قصرت الإباحة في ضروريات الحياة على ما تقتضيه الفطرة ثم حاصر ذلك بالتوجيه إلى الله عزّ وجلّ في صغير الأفعال وكبيرها ثم طرد استعمال ذلك في جميع جزئيات أطراف الحياة من الأمكنة والأزمنة والصحة والمرض والغنى والفقر والموت والحياة وسائر الحالات وجميع الأفعال فصارت شريعة حافظة للتوحيد على وحدته فهذه الكثرة وحافظة لهذه الكثرة على كثرتها في التوحيد فاغتنم فهذه لعمر الله نعمة لا توزن بالسبع الشداد والأرض ذات المهاد والجبال الأوتاد .

تمّ والحمد لله ليلة الأحد خامس ذي الحجة من سنة ألف وثلثمائة وست وخمسين قمرية هجرية وتمّ الإستنساخ ليلة الإثنين لإثنين وعشرين خلت من شهر محرم الحرام لسنة ١٣٦١

رسالة الأسماء

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في أسماء الله سبحانه وتعالى

وهي الرسالة الثانية
من كتاب التوحيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيّما محمد وآله الطاهرين . قد ذكرنا في رسالة التوحيد أن التوحيد منه ذاتي ومنه اسمي ومنه فعلي .

أما التوحيد الذاتي فقد ذكر هناك انه خارج عن حيطة التوصيف ودائرة البيان .

وأما الأسماء والأفعال فإذ لم نستوفِ البيان فيهما هناك أردنا أن نأتي هاهنا بعض البيان في الإسم ونشرحه بعض الشرح بالجمع بين البرهان العقلي والبيان النقلي بما يلائم ذوق هذه الرسائل .

وأما التفصيل التام لهذه الأبحاث فموكول إلى مطولات كتب القوم رضوان الله عليهم ونعني بها الكتب المعمولة على الجمع بين الذوق والبرهان والتشفيع بين العقل والنقل .

وأما الكتب التي شأنها أن تضع قضايا ساذجة يحكم بها الأفهام العامية وضعاً ثم تدافع بالدفاع الجدلي عنها بالغاً ما بلغ فلا

يهمنا الرجوع إليها ولا الركون إليها ولا لهذه الأبحاث مساس بها ولا لنا شغل بمن هذا طرز بحثه وطور مطالبه والله المعين .

فصل ١

قد عرفت في رسالة التوحيد أن الله سبحانه هو الوجود الصرف الذي له كل كمال وجودي .

فكل ما فرض هناك غيره عاد عينه فله وحدة عينية يستحيل معه فرض ثانٍ له فلا تعدد ولا إختلاف ولا تعين هناك بمعنى المحدودية بحد مفروض لا مصداقاً ولا مفهوماً بل كل ما فرض تعيناً مفهوماً أو مصداقاً كان متأخراً عن هذه المرحلة المفروضة .

ثم انه لإشتماله على حقائق جميع الكمالات الوجودية متصف بجميعها فهو مسمى بها وهي أسماؤه إذ ليس الإسم إلاّ الذات مأخوذاً ببعض أوصافه فهو في نفسه وبذاته سبحانه متصف بها ومسمى بها ومفاهيمها تنتزع عن ذاته بذاته .

وإذا لوحظ معه الوجودات الفائضة منه المترشحة عنه ظهرت بينها وبين أسمائه الذاتية جلت أسماؤه نسب هي كالروابط تربطها بها دون الذات فإنه مبرى عن التعينات والنسب كما عرفت .

وبالجملة فهناك تظهر تعينات وأوصاف أخر وتنتزع مفاهيم أخرى تلحق بالقسم الأول وذلك كالخلق والرزق والرحمة والكرم واللطف والإعادة والبدء والإحياء والإماتة والبعث والحشر والنشر وغير ذلك وهذه هي اسماء الأفعال المتأخرة عن الذات وأسمائها وتنتزع عن مقام الفعل .

بقى هنا شيء وهو أن هذه الأسماء لو انتزعت عن مقام الفعل فإنما انتزعت عنه بما أن بينه وبين الذات نسبة ما ورابطة ما والألم يصدق هذه الأسماء على الذات البتة فيؤول الإتصاف إلى إعتبار الحيثية بمعنى أن الذات بحيث لو فرض خلق مثلاً فهو خالقه ولو فرض رزق فهو رازقه فإذن سبيل الأسماء الفعلية سبيل الأسماء الذاتية في أن الجميع موجودة للذات حقيقة نعم الأسماء الذاتية لا تحتاج في انتزاعنا إيّاها الى أزيد من الذات بذاته والأسماء الفعلية تحتاج في مرحلة الإنتزاع إلى فعل متحقق في الخارج فافهم ذلك .

ثم إنّك تعلم أن الكمالات الوجودية حيث كانت موجودة للذات والنواقص العدمية مرتفعة عنه كانت هناك أوصاف سلبية على سبيل الأوصاف الإيجابية إلّا أنها حيث كانت إعداماً فهي غير متحققة هناك وإنما هي منتزعة من غيره إنتزاعاً ومدلولها سلب السلب ويرجع إلى إثبات الوجود .

وقد تبين من جميع ما مرّ أن أسماءه سبحانه على كثرتها تنقسم أولاً إلى أسماء ذاتية وفعلية ، وثانياً إلى أسماء ثبوتية وسلبية وهكذا إلى أسماء خاصة وعامة .

فصل ٢

والنقل أيضاً يدل على ما مرّ اما ما تدل على الأسماء الذاتية والفعلية والثبوتية والسلبية فغير ضروري الإيراد لبلوغها من الكتاب والسنة في الكثرة فوق حد الإحصاء على أن بعضها سيورد إن شاء الله سبحانه في طي الفصول الآتية .

فصل ٣

قد عرفت في الفصل الأول ذاته المقدسة ذات صرافة وإطلاق مبرّأة من جميع التعينات مفهومية ومصداقية حتى عن نفس الإطلاق وحيث كان هذا بعينه تعيناً ما يمحق عنده التعينات ويطوي بساط جميع الكثرات كان هذا أول الأسماء وأول التعينات وهو المسمى بمقام الأحدية ، ثم يظهر التعينات الإثباتية وأول تلك نفس الإثبات وذلك أنه هو وهو الهوية ، ثم يظهر بقية التعينات : فمن حيث أن هذه الحقيقة التامة حاضرة عند نفسها واجدة لها يظهر تعين العلم وحيث أنها المبدأ التام لكل كمال وجودي يظهر تعين القدرة ويظهر من تآلف القدرة مع العلم تعين الحياة ، ثم تظهر بقية التعينات من تآليف بساطتها .

فقد تبين أن الأسماء بينها ترتب ما يتفرع به بعضها على بعض آخر .

ثم نقول في بيان أسمائه سبحانه قد عرفت أن الوجود هو الحقيقة الخارجية فحسب وغيره كالماهيات أمور منتزعة ذهنية لا خارجية لها إلّا بعرض الوجود وأما مع قطع النظر عنها فهي باطلة الذات هالكة العين وهذه الحقيقة الخارجية حيث أنها تطرد العدم بذاتها يستحيل طريان العدم عليها لامتناع اجتماع النقيضين فإذن هي واجبة الوجود بذاتها .

ومن هنا يظهر أن للوجود الحقيقي وحدة وصرافة لا يمكن معه فرض ثان له وهو أحديته كما مرّ فهو وحده لا شريك له .

ومن هنا يظهر امتناع فرض قوة أو إمكان أو تغير أو تحول هناك إذ هو لصرافته حاوٍ لكل كمال وجودي فرض فهو صريح الفعلية فكما

أنه واجب الوجود بالذات فهو واجب الوجود من جميع الجهات هذا ومن الواجب أن تعلم أن هذا البيان إنما يجري في الوجود الواجبي الصرف المستقل بذاته دون الوجود الإمكاني فإنه لمعلوليته رابط موجود في غيره يستحيل أن يوضع فيحكم عليه بشيء كوجوب الوجود والقيام بنفسه ونحو ذلك .

فما نشاهده من الماهية الموجودة إنما نشاهد الوجود الحقيقي الواجبي بمقدار ما تقوم به هذه الماهية وهو المراد بقولنا وجود الممكن ظهور ما للواجب فيه وأن الممكن مظهر للواجب فهو نور .

ومن هنا يظهر أيضاً أن كل ما فرض ذا ماهية متساوية النسبة إلى الوجود والعدم فهو في تحقق ذاته ووجوده يحتاج إلى الواجب سبحانه وآثاره الذاتية كائنة ما كانت محتاجة إليه سبحانه أيضاً وإن كانت بحيث إذا نظر العقل إليها حكم بإقتضائه إيّاها وهو الوساطة فكما أن الأربعة وهي عدد ما تحتاج في وجودها إليه سبحانه فكذلك كونها زوجاً وضعف الإثنين ومجذوراً له وسائر آثاره محتاجة إليه سبحانه وإن كان كلّها بوساطة الأربعة واقتضائها فذاته سبحانه بذاته هو المبدأ لكل وجود ممكن وهذه هي القدرة الواجبية إذ القدرة بمعنى صحة الفعل والترك أي إمكان الطرفين مستحيلة في حقه سبحانه لكونه واجب الوجود من جميع الجهات فهو سبحانه مبدء بذاته لكل موجود بحسب ما يليق بذات ذلك الموجود فهو مبدء بالفعل لكل موجود بالفعل ومبدء بالفعل لكل موجود بالقوة ولنفس القوة والإمكان فهو المفيض لكل شيء وآثاره بفيوضات الوجود وبركات الظهور والبروز .

ومن هناك يظهر أيضاً أن ذاته موجودة لذاته وحاضرة لها لا

حجاب بينه وبين ذاته وجميع الكمالات الموجودة لذاته فهو في مقام ذاته عالم بذاته وصفاته وبجميع الموجودات المترشحة عن ذاته وهو العلم الذاتي .

وأيضاً كل موجود حاضر بذاته عنده سبحانه كيف وبعرض وجوده سبحانه وجد وبنوره استشرق فهو سبحانه كما يشهدها عزّ ذاته المقدسة بذاته في مرتبة ذاته يشهدها في مرتبة وجوداتها الخارجية ومواطنها الواقعية كلا في ظرفه وموطنه وهو العلم الفعلي ، على أن كل علم متحقق عند الموجودات فهو له أيضاً .

وحيث ثبت له سبحانه العلم والقدرة ثبت له الحياة إذ المحيي هو الدرّاك الفعّال .

وحيث ثبت أن إيجاده للموجودات بنحو الظهور في مواطن ذواتها وظروف هوياتها ثبت أن كل كمال وجمال وحسن فهو له سبحانه ثابتة فيه والحسن والجمال تمامية وجود الشيء وكمالاته وآثاره فهو سبحانه متصف بكل صفة حسن وجمال .

وحيث كان كل منقصة ورذيلة ومحدودية وقبح وسوء منحلاً بالتأمل التام إلى عدم كمال مطلوب ولا سبيل للإعدام إلى ساحته المقدسة كانت النقائص الإمكانية طرا والكدورات الماهوية جميعاً راجعة إلى الماهيات الإمكانية ومن لوازمها وتوابعها فهو سبحانه طاهر من كل دنس قدوس من كل نقص وخبث فهو المستجمع لجميع صفات الجمال والجلال .

ومن هنا يظهر ان الإئتلاف والإجتماع بين صفات الجمال والجلال هو المقتضي لفيضان الوجود على الموجودات ولمعان النور وانبثاثه في هذه الظلمات فلولا صفات الجلال لم يكن وجود ولولا

صفات الجمال لم يكن إبجار فافهم .

ثم أن هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا وإن كثرت مفاهيمها إلاّ أنه ليس لها إلاّ مصداق واحد وهو الذات المقدسة إذ من المستحيل كما عرفت فرض اثنينية ما هناك فكل حيثية في الذات عين الحيثية الأخرى والكل عين الذات فهو تعالى موجود من حيث أنّه عالم وعالم من حيث أنه موجود وقادر بعين حياته وحي بعين قدرته وهكذا وهذا هو واحد به الذات فهو سبحانه واحد كما أنه أحد .

فتبين من جميع ما مرّ أنه سبحانه بأحدية ذاته يمحق ويطمس جميع الكثرات ثم يتنزل إلى مقام الأسماء على وحدتها فينبعث بذلك الكثرات المفهومية دون المصداقية ثم يتنزل إلى مراتب الموجودات الإمكانية بظهورها في مظاهرها وإظهارها لمكامنها فينبعث حينئذ الكثرات المصداقية .

مثل ذلك أنّك إذا رجعت إلى صفاتك وجدت أنك عالم وأنت أنت وقادر وأنت أنت وسميع وبصير وذائق وشام ولامس وأنت أنت فشيء من صفاتك لا يخلو ولا يخرج منك أنت فهذا واحدية صفاتك في ذاتك ثم إذا رجعت إلى نفسك وجدت أنّه ليس هناك إلاّ أنت مع أنك صاحب صفات كثيرة غير أنها قد استهلكت وإنمحت في هذه المرحلة وهذا مقام أحدية ذاتك .

ثم إنك إذا زدت على ذلك وتصورت مرتبة خيالك المنبسط على صور خيالاتك الجزئية ثم جزئيات متخيلاتك ثم تنزلت إلى أفعالك واعتبرت نفسك معها علمت أن الجميع قائمة بك لا تخلو عنك فلو أمعنت وأتقنت في تأملك في هذا المثل صحّ لك تعقل ما تنتجه هذه البراهين التي أسلفناها .

فصل ٤

والنقل مطابق للعقل فيما مرّ من المعاني ولبيان ذلك اجمالاً نضع مباحث .

المبحث الأول

ان الأسماء التي خصّت بالذكر في القرآن المجيد وهي التي في معنى الوصف هي :

ا ـ إله أحد أوّل آخر أعلى أكرم أعلم أرحم الراحمين أحكم الحاكمين أحسن الخالقين أهل التقوى أهل المغفرة .

ب ـ بارىء باطن بديع بر بصير بديع .

ت ـ تواب .

ج ـ جبار جامع .

ح ـ حكيم حليم حي حق حميد حسيب حفيظ حفي .

خ ـ خبير خالق خلاق خير الماكرين خير الرازقين خير الفاصلين خير الحاكمين خير الفاتحين خير الغافرين خير الوارثين خير الراحمين .

ذ ـ ذو العرش ذو الطول ذو إنتقام ذو الفضل العظيم ذو الرحمة ذو القوة ذو الجلال والإكرام .

ر ـ رحمن رحيم رؤوف رب رفيع الدرجات رزاق رقيب .

س ـ سميع سلام سريع الحساب سريع العقاب .

ش ـ شهيد شاكر شكور شديد العقاب شديد المحال .

ص ـ صمد .

ظ ـ ظاهر .

ع ـ عليم عزيز عفو علي عظيم علام الغيوب عالم الغيب والشهادة .

غ ـ غني غفور غالب غافر الذنب غفار .

ف ـ فالق الإصباح فالق الحب والنوى فاطر فتاح .

ق ـ قوي قدوس قيوم قاهر قهار قريب قادر قدير قابل التوب .

ك ـ كريم كبير .

ل ـ لطيف .

م ـ ملك مؤمن مهيمن متكبر مصور مجيد مجيب مبين مولى محيط مقيت متعال محيي متين مقتدر مستعان .

ن ـ نصير نور .

و ـ وهاب واحد ولي واسع وكيل ودود .

هذه هي الأسماء الواردة في الكتاب الإلهي بلسان التوصيف وهي مئة وسبعة عشر إسماً وهنا موارد أخر بلسان قريب من لسانها .

قال تعالى : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا له كاتبون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ونحن الوارثون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا منتقمون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما لهم من دون الله من ولي ولا شفيع ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هو الذي يحيي ويميت ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فلا كاشف له إلّا هو ﴾ .

فربما يستخرج الحافظ والفاعل وفعال ما يريد والقائم بالقسط والكاتب والوارث والمنتقم والشفيع والوالي والمميت وكاشف الضر من هذه الآيات وأما ما ورد بلسان الفعل فكثير .

وأما الأحاديث ففي التوحيد والخصال مسنداً عن سليمان بن مهران عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علي (عَلَيْهِ السّلام) قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إن للّه تسعة وتسعين إسماً مئة إلّا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهي الله الإله الواحد الأحد الصمد الأول الآخر السميع البصير القدير القاهر العلي الأعلى الباقي البديع البارىء الأكرم الظاهر الباطن الحي الحكيم العليم الحليم الحفيظ الحق الحسيب الحميد الحفي الرب الرحمن الرحيم الذارىء الرازق الرقيب الرؤوف الرائي السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر السيد سبوح الشهيد الصادق الصانع الطاهر العدل العفو الغفور الغني الغياث الفاطر الفرد الفتاح الفالق القديم الملك القدوس القوي القريب القيوم القابض الباسط قاضي الحاجات المجيد المولى المنّان المحيط المبين المقيت المصور الكريم الكبير الكافي كاشف الضر الوتر النور الوهاب الناصر الواسع الودود الهادىء الوفي الوكيل الوارث البر الباعث التواب الجليل الجواد الخبير الخالق خير الناصرين الديّان الشكور العظيم اللطيف الشافي الخير .

قال صدوق في الخصال : وقد رويت هذا الخبر من طرق مختلفة وألفاظ مختلفة .

وفي التوحيد مسنداً عن الهروي عن الرضا (عَلَيْهِ السّلام) عن آبائه عن علي (عَلَيْهِ السّلام) قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إن للّه تسعة وتسعين أسماً من دعا الله بها استجاب له

ومن أحصاها دخل الجنة .

وفي التوحيد أيضاً مسنداً عن أبي هريرة أن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قال : إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين إسماً مئة إلّا واحداً انّه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة فبلغنا أن غير واحد من أهل العلم قال أن أولّها يفتتح بلا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلّا الله له الأسماء الحسنى الله الواحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن الخالق البارىء المصور الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرحمن الرحيم اللطيف الخبير السميع البصير العلي العظيم البار المتعالي الجليل الجميل الحي القيوم القادر القاهر الحكيم القريب المجيب الغني الوهاب الودود الشكور الماجد الأحد الولي الرشيد الغفور الكريم الحليم التواب الرب المجيد الحميد الوفي الشهيد المبين البرهان الرؤوف المبدىء المعيد الباعث الوارث القوي الشديد الضار النافع الوافي الحافظ الرافع القابض الباسط المعز المذل الرازق ذو القوة المتين القائم الوكيل العادل الجامع المعطي المجتبى المحيي المميت الكافي الهادي الأبد الصادق النور القديم الحق الفرد الوتر الواسع المحصي المقتدر المقدم المؤخر المنتقم البديع الحديث .

أقول والروايتان المحصيتان لأسمائه تعالى على أنهما اشتملتا على بعض الأسماء الغير الواردة في القرآن مثل السيد والصانع والجميل والقديم وغيرها .

وعلى أنهما أهملتا بعض الأسماء الواردة في القرآن مثل ذي الجلال والإكرام وذو الطول ورفيع بينهما اختلاف في الأسماء المحصاة هذا أوّلاً .

وثانياً لفظ الجلالة أحد الأسماء في الثانية وغيرها في الأولى وهو

فيها تمام المئة .

وثالثاً ظاهر الرواية الثانية إن إحصاء الأسماء خارج عن الرواية ولا يبعد أن يستظهر من الرواية الأولى أيضاً كونها خارجة عن الرواية حيث قال فيها وهي الله الإله . . . الخ وعدّ مئة إسم .

وأمّا قوله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إن للّه تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنة فقد استفاض به الروايات ورواه الخاصة والعامة لكنه في غير مقام الحصر على ما سيظهر ولهذا خصصنا الكلام بما ورد في القرآن الكريم على أن غيرها ينشرح بشرح معانيها وبيان مبانيها .

المبحث الثاني

إن المعاني التي قد استعملت فيها هذه الأسماء الشريفة في القرآن الكريم وبقية الإستعمالات تتبعها لامحالة لاشكّ في أنها تطابق المصاديق التي لها في نفس الأمر ولاشكّ أن للحق سبحانه كمالات وصفات موجودة حقيقية كشف عنها أو عن بعضها بهذه البيانات القرآنية التي تشتمل على هذه الأسماء بطريق الافراد تارة وعن أعيان هذه المعاني بجمل وتركيبات كلامية تارة أخرى كل ذلك في مقام الثناء والحمد وإبداء الكمال فحمل ذلك كلّه على نفي النواقص على أنه يوجب رجوع كل كمال ذاتي إلى عدم وخلو الذات عن كمال موجود مع تراكم البراهين عليه أولاً ، وعلى أنّه مع الغضّ عن الكمال الوجودي لا يوجب كمالاً ومزية كما أن المعدوم المطلق أيضاً كذلك ، ثانياً بعيد عن الإنصاف واعتاف يكذبه الوجدان هذا فالأسماء جلّها تشتمل على معانٍ ثبوتية غير سلبية .

ثم أن هذه المعاني ليست من غير جنس المعاني التي نفهمها ونعقلها كما ذكره بعضهم والتزم أن هذه الأسماء كلها إما مجازات مفردة وأما استعارات تمثيلية بيانية إذ الذي نفهمه من قولنا علم زيد وقولنا علم الله معنى واحد وهو انكشاف ما للمعلوم عند العالم غير أنا نعلم أن علم زيد إنما هو بالصورة الذهنية التي عنده وأن الله سبحانه يستحيل في حقّه ذلك إذ لا ذهن هناك وهذا ليس إلّا خصوصية في المصداق وهي لا توجب تغيراً في ناحية المعنى بالضرورة فإذن المفهوم مفهوم واحد وأما خصوصيات المصاديق فغير دخيلة في المفهوم البتة وهذا هو الحق الذي عليه أهل الحق .

فإذن الميزان الكلي في تفسير أسمائه سبحانه وصفاته تخلية مفاهيمها عن الخصوصيات المصداقية وبعبارة أخرى عن الجهات العدمية والنقص .

وهذا هو الذي يظهر من تفاسير الأئمة (عَلَيْهِم السّلام) في خطبهم وبياناتهم فعن التوحيد ونهج البلاغة في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) : انّ ربّي لطيف اللطافة فلا يوصف باللطف عظيم العظمة لا يوصف بالعظم كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ قبل كل شيء لا يقال شيء قبله وبعد كل شيء لا يقال له بعد شاء الأشياء لا بهمة دراك لا بخديعة هو في الأشياء كلها غير متمازج بها ولا باين عنها ظاهر لا بتأويل المباشرة متجل لا باستهلال رؤية باين لا بمسافة قريب لا بمداناة لطيف لا بتجسم موجود لا بعد عدم فاعل لا باضطرار مقدر لا بحركة مريد لا بهمامة سميع لا بآلة بصير لا بأداة الخطبة وبياناتهم (عَلَيْهِم السّلام) مشحونة بهذا النوع من التفسير وفي كثير من الأخبار النهي عن التعطيل والتشبيه .

المبحث الثالث

قد عرفت أن صفاته سبحانه هو المبحث من كل كمال وجودي بنحو الحقيقة وأما صفات غيره فحيث أن ذاته موجودة بعرض وجوده فكذلك صفاته فكل صفة وجودية حقيقية خالية من النقص فهي له سبحانه بنحو الإنحصار وكل صفة في غيره فهي عرضية .

ويظهر ذلك من معظم موارد هذه الأسماء في القرآن كقوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وهو الرحمن الرحيم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وهو العليم القدير ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات فكل ذلك للحصر دون التأكيد كما يزعمه الزاعمون وقد بلغ الأمر في بعضها إلى التصريح : قال تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أيبتغون عندهم فإن العزة لله جميعاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة للّه جميعاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ إلى غير .

ثم بين سبحانه تبعية هذه الأسماء أعني الكمالات الوجودية الحقيقية في غيره فقال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ الآيات ، وقال تعالى : ﴿ وانّه هو أضحك وأبكى ، وانّه هو أمات وأحيى ، وانّه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وان عليه النشأة

الأخرى وانّه هو أغنى وأقنى ﴾ الآيات ، وقال تعالى : ﴿ وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ الآية .

والدليل على انه يثبت في هذه الآيات حقائق هذه المعاني بالحصر على نفسه وبالتبع إلى غيره أنه تعالى يثبت مع ذلك هذه المعاني لغيره في آيات أخر كقوله : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ ، وقوله : ﴿ واختار موسى ﴾ إلى غير ذلك .

وأصرح من ذلك كلّه ما بينه سبحانه في آيات الحشر إذ قال سبحانه : ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ فبين أن الأسباب متقطعة مزيلة يومئذ ومع تقطع الأسباب وبطلان الروابط لا يبقى موضوع لكمال وجودي مستفاد من غيره كما هو المظنون اليوم فلا يبقى إلّا الله وحده ولا نسبة لأحد إلّا معه وبطلت بقية النسب فابطل حقيقية كمالاتهم وأثبت تبعيتها فقال تعالى : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم للّه الواحد القهار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والأمر يومئذ للّه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً إذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضلّ الله الكافرين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يوم تولّون مدبرين مالكم من الله من عاصم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولهم الحق وضلّ عنهم ما كانوا يشركون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركائكم فزيلنا بينهم وقال شركائهم ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ تبرأنا

إليك ما كانوا إيّانا يعبدون ﴾ الآية .

فكل ذلك بيان لكون كمالات الأسماء فيه سبحانه بالإستقلال وفي غيره بالتبع هذا .

نعم ربما قارن سبحانه بين وصف نفسه ووصف خلقه مما أفاضه عليهم فسبكهما وصفاً واحداً ولا محالة يراد حينئذ من الوصف المعنى الأعم الشامل لما بالإستقلال وما بالتبع وذلك بصيغة التفضيل في أربعة عشر إسماً في القرآن وهي أعلى وأكرم وأعلم وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأحسن الخالقين وخير الماكرين وخير الرازقين وخير الفاصلين وخير الحاكمين وخير الفاتحين وخير الغافرين وخير الوارثين وخير الراحمين .

لكنه سبحانه أثبت بها مزية لنفسه وأفضلية فإنه سبحانه يزيد على خلقه في أن هذه الأوصاف بعد كونها مشتركاً فيها له سبحانه بنحو الإستقلال ولغيره بالتبع فهو سبحانه أحق بالعلو والعلم والكرامة وأشد في رحمته وأصدق في حكمه وأحسن في خلقه وخير مكراً وغير ذلك بخلاف غيره فإن هذه الأوصاف فيهم عارضة متزلزلة البنيان مشوبة بنواقص الإعدام مكدرة بكدورات الإمكان هذا ويمكن أن يستشم هذا المعنى وهو تلميح الاشتراك مما وقع من الأسماء بصيغة المبالغة في عشرة أسماء وهي التواب والجبار والخلاق والرزاق وعلام الغيوب والغفار والقدوس والقيوم والقهار والوهاب وقد يعدّ منها مثل الشكور والغفور والقدير والمتعالي والرحمن وذلك بالإشارة إلى شدة هذه الأوصاف فيه سبحانه وشمولها بكثرة مواردها لجميع الموجودات هذا .

وأما بقية الأسماء وهي ثمان وثمانون إسماً فهي واردة بنحو الإفراد أو الإضافة غير أن ثمانية عشر منها بنحو الإضافة وقريب من

سبعين منها بنحو الإفراد وهناك معانٍ وصفية مبنية بجمل كلامية كقوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، وقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ليس له صاحبة ﴾ الآيات .

المبحث الرابع

وجل هذه الأسماء مشتملة على معان ثبوتية غير أن بينها ترتباً كما مرّ اجماله فهو تعالى من حيث أن ذاته المقدسة غير متألفة من أجزاء عقلية ولا وهمية ولا خارجية فهو بسيط الذات أحد وهذه اللفظة لا يستعمل في الإثبات من غير إضافة إلاّ فيه سبحانه قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ولا يقال : جاءني أحد البته ، ويقال : ما رأيت أحداً فينتفي حينئذ الواحد والإثنان والجماعة ، بخلاف ما رأيت واحداً فإنه لا ينتفي حينئذ إلاّ الواحد دون الإثنين والجماعة فيظهر أن الأحد في اللغة وحدة لا تأبى عن الإجتماع مع الكثرة بخلاف الواحد فهما كالاللا بشرط وبشرط لا فالاحد وحدة صرفة لا يقع في قبالها كثرة لا اثنان ولا جمع فهو بسيط الذات ولذلك لم يصح استعماله في الإثبات إلاّ فيه سبحانه لصرافة وجوده وبساطته وتركب وجود غيره فغيره تعالى إذا أخذ واحداً لم يكن كثرة ذاته منظوراً فيه وإذا أخذ جزء الكثرة امحت وحدته وأما هو تعالى فلا يتصور في ذاته كثرة البته هذا .

ومن هنا يصح استعمال أحد في الإثبات إذا أضيف نحو هو أحد القوم فافهم .

وهو سبحانه من حيث أنه ليس له شريك ولا صاحبة ولا ولد ، ومن حيث أن جميع اسمائه شيء واحد هو الذات وان تعددت مفاهيمها فهو واحد .

ومن حيث ان ذاته ثابتة بذاته وفي ذاته وعلى جميع التقادير حق .

وهو تعالى من حيث حضور ذاته لذاته وانكشافه له وحضور الموجودات عنده عالم وعليم .

والعليم من حيث كونه موجوداً عند جميع جهات ذات المعلوم محيط .

ومن حيث كونه حاضراً هناك شهيد .

وإذا نسبه إلى الغيب علام الغيوب .

وإذا انتسب إلى جميع الغيب والشهادة فهو عالم الغيب والشهادة .

وإذا لوحظ نسبته إلى المبصرات فهو بصير أو إلى المسموعات فهو سميع .

ومن حيث تحفظه على المشهودات حفيظ .

والعليم من حيث احصائه المعلومات حسيب .

ومن حيث تعلقه بالدقائق خبير .

ومن حيث اتقانه معلوماته حكيم .

وهو تعالى من حيث مبدئيته لغيره وهي كون وجود ذاته عين الوجود وصرفه يبتدي منه وينتهي إليه كلما فرض غيره قادر وقدير .

والقادر من حيث أن افاضته الوجود من غير اقتضاء من الغير وايجاب رحمن .

وهو من حيث أنه مفيض لذات الغير الباري .

ومن حيث أنه جامع بإفاضته لخلق ذاته واجزائها خالق .

ومن حيث رحمته الخاصة وهو السعادة رحيم .

والرحيم من حيث أفاضته لكل دقيق لطيف .

ومن حيث أنه رحيم ولطيف رؤوف .

ومن حيث يحب ما تعلق به رحمته ودود .

ومن حيث عدم توقعه في إيصال الرحمة الجزاء كريم .

والكريم من حيث يجازي بالجميل من يثني عليه شاكر وشكور .

ومن حيث لا يجازي من أساء عليه بتعجيل العقوبة حليم .

ومن حيث ستره موانع الإفاضة عفو وغفور كل باعتبار .

ومن حيث قبوله وعدم ردّه من به ذلك وقد آب إليه تواب وقابل التوب .

ومن حيث إجابته لما يسأله الغير مجيب .

والقادر الخالق من حيث أن ما لمقدوره الممكن فله وهو معه محيط والمحيط من حيث قربه قريب .

ومن حيث أنه محيط لا يخلو منه شيء أول يبتدىء منه الشيء وآخر ينتهي إليه الشيء وظاهر يظهر به الشيء وباطن يقوم به الشيء .

والقادر الخالق المحيط من حيث أنه يمحو ما يتصور من المقاومة ويستهلك المحاط المقدور عليه ولا تبطل قدرته فيما تتعلق به ولا تزلزل قدرته واحاطته غالب قاهر قوي متين كل باعتبار .

وما هذا صفته إذا نسب إليه المقدور بحقارته فهو عظيم كبير أو نسب إليه بدناءته فهو علي أعلى متعال .

وإذا توهم من المقدور مقاومة ومنه اعمال مقدرة واحاطة فهو مقتدر .

وإذا زيد على ذلك المجازاة فهو ذو انتقام .

ومن هذا كلّه وصفه فهو مجيد .

وإذا انعكس وصفه الكذائي لذاته فهو متكبر .

وإذا لوحظ القادر الخالق الرحمن من حيث انه يوصل كلا إلى كماله برحمته فهو رب .

والرب من حيث انه يفطر الوجود من العدم فاطر .

ومن حيث أن أمره أعجب الأمور بديع .

ثم فالق الحب والنوى وفالق الإصباح أي الصبح إذا طلع وهو اسم جزئي .

ومن حيث أنه يفيض الأمن عن وحشة ظلمات العدم وكل نقيصة ومحذور مؤمن .

ومن حيث أنه يفيض ما لا يسوء سلام .

ومن حيث أن ما يفيضه عطية من غير غرض فهو وهاب .

ومن حيث أنه يفيض ما يدوم به بقاء الموجودات بعد إحداثها فهو رازق .

ومن حيث أن عطاءه لا يوجب نقصاً فيه فهو واسع .

ومن حيث أنه هو المؤجل لعطياته فهو مقيت .

ومن حيث أن أعظم الثناء عليه هو ما يفيضه من رحمته فهو حميد .

ومن حيث أنه يجبر كل كسير ويتم كل منقصة في خلقه فهو جبار .

ومن حيث أنه يقوّي كل مغلوب فهو نصير .

ومن حيث أنه يلي أمر مخلوقه الذي لا يقدر ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً فهو ولي ومولى ووكيل كل من وجه .

ومن حيث أنه يقبض الحياة فهو محيي .

ومن حيث أنه يفيض الصور فهو مصور .

ومن حيث أن ذلك كلّه منه احسان فهو بر .

ومن حيث أن الرب به يظهر كل ما في الوجود فهو نور ثم هو مبين .

ومن حيث أن له كل شيء وهو يدبره فهو ملك ذو العرش .

ومن حيث أن عنده ما عند كل شيء من غير عكس فهو عزيز .

ومن حيث أنه لا يحتاج إلى شيء ولا إلى ما عند شيء فهو غني .

ومن حيث أن الرب ملك ذو العرش ليس غيره فهو أحكم الحاكين خير الفاصلين والحاكمين والفاتحين .

ومن حيث أن الرب يصمد ويرجع إليه المربوبون في حوائجهم فهو صمد .

والصمد من حيث يطلب منه الراجعون عونه وإعانتهم فهو مستعان .

والرب من حيث يعبد بالتوجه إليه إله .

ثم أن ما مرّ من الأسماء غير ثلاثة منها وهو الواحد الأحد الحق واقعة تحت الإسمين القادر العليم وهما إذا نسبا معاً إلى الغير كانت القيومية فهما تحت الإسم القيوم وهو تعالى بما أنه عليم قدير في ذاته فهو حي : فسيطرة الإسمين الحي القيوم واقعة على جميع الأسماء الثبوتية غير الوحدة قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم ﴾ الآية. فبالتوحيد في الآية يتم شمولها لجميع الأسماء الثبوتية .

وأما السلوب وإنتفاء النواقص والإعدام فيجمعها الإسم القدوس .

ويجمع الكل أعني الأسماء الثبوتية والسلبية والجلال والجمال والذاتية والفعلية جميعاً الإسم ذو الجلال والإكرام ﴿تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام﴾

فهذا نوع تفرع الأسماء بعضها على بعض والترتب والتنزل الذي بينها وربما أمكنك بالتدبر والتأمل أن تجد بينها مناسبات معنوية أخرى غير ما ذكرناه توجب تفرعات أخرى وهاك فيما مرّ شجرة .

وأجمع خبر لجميع معاني المباحث السابقة ما في الكافي مسنداً عن إبراهيم بن عمر عن الصادق (عَلَيْهِ السَّلام) أن الله تبارك وتعالى خلق إسماً بالحروف غير متصوت وباللفظ غير منطق وبالشخص غير مجسد وبالتشبيه غير موصوف وباللون غير مصبوغ منفي عنه الأقطار مبعد عنه الحدود محجوب عنه حس كل متوهم مستتر غير مستور فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معاً ليس واحد منها قبل الآخر فأظهر منها ثلاثة أشياء لفاقة الخلق إليها وحجب واحداً منها وهو الإسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت فالظاهر هو الله وتبارك وسبحان لكل اسم من هذه أربعة أركان فذلك إثنا عشر ركناً ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين إسماً فعلاً منسوباً إليها فهو الرحمن الرحيم الملك القدوس الخالق البارئ المصور الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم العليم الخبير السميع البصير العزيز الجبار المتكبر العلي العظيم المقتدر القادر السلام المؤمن المهيمن البارىء المنشىء البديع الرفيع الجليل الكريم الرازق المحيي المميت الباعث الوارث فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاثمائة وستين إسماً فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحجب للإسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ قل إدعوا الله أو إدعوا الرحمن أيّاً ما

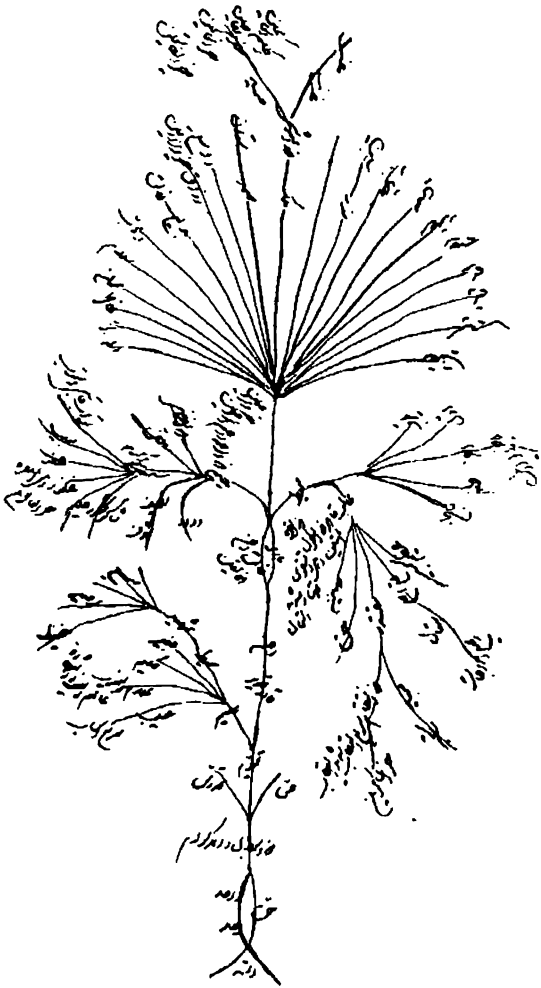

تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ الحديث .

وهو من غرر الأحاديث يشتمل على وجازته .

على كيفية حقيقية الأسماء وقيام حقائق بعضها ببعض بالظهور وبالبطون .

وعلى كيفية تكثّرها وتكثر الأسماء الخاصة بنسب الأسماء العامة .

وعلى كيفية فاقة الخلق إليها وهو إحتياجهم في ذواتهم إليها وقيام وجودهم بها .

وعلى أن هذا الترتب والتنزل أمر حقيقي ليس بالإعتبار اللغوي الأدبي فحسب .

وقوله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إن الله خلق اسماً . . . الخ يريد به التعين والتنزل الأول عن الإطلاق الذاتي الذي ينمحي هناك كل اسم ورسم وعين وأثر وهو المورد الوحيد الذي وجدنا فيه إطلاق لفظ الخلق في مرحلة الأسماء والمراد به ما عرفت ويشهد به أنّه (عَلَيْهِ السّلام) عدّ اسم الخالق في ذيل الحديث من جملة الأسماء الفرعية .

ويظهر منه أن المراد بالإسم الواحد المكنون المخزون هو مقام الأحدية إذ هو المحجوب بهذه الأسماء الثلاثة التي هي الله وتبارك وسبحان وهي الهوية والجمال والجلال إذ الخلق محتاجون في تحقق أعيانهم وصفاتهم وأفعالهم إلى هذه الجهات الثلاث من الهوية وصفات الثبوت وصفات السلب وأما إذا لوحظ الخلق بالنسبة إلى مقام الاحدية ففيه إرتفاع موضوعهم من الأعيان وآثارها كما لا يخفى وقد عبر (عَلَيْهِ السّلام) في مبتدأ كلامه عنه سبحانه بهذه الأسماء الثلاثة أيضاً فقال : « إن الله تبارك وتعالى » ثم فسر (عَلَيْهِ السّلام) قوله تعالى : ﴿ قل إدعوا الله أو إدعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا

فله الأسماء الحسنى ﴾ الآية بما ذكره من إحتجاب الإسم الواحد بالأسماء الثلاثة وتفرغ باقي الأسماء على الثلاثة الحجب وهو ظاهر في أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ راجع إلى هذا الإسم المكنون المخزون أي راجع إليه سبحانه من حيث أنه متعين بهذا التعين الأحدي إذ الدعاء توجه ما وهو لا يكون إلاّ إلى متعين متبين وإذ بيّن سبحانه أن جميع الأسماء الحسنى له وبأي دعى دعى فالدعاء بجميع الأسماء التي لها تعين ما والمدعو هو الذات من حيث تسميته بها أي هذه الأسماء وهي قائمة بالذات والذات لا نسبة له مع شيء إلاّ مع تعين ما وقد فرض جميع التعينات في ناحية الدعاء فلم يبقَ إلاّ تعين هو عين الإطلاق وهو مقام الأحدية اليه ينتهي السائرون بعد طي مراحل الأسماء وعنده تحل الرحال فافهم .

إلى ذلك يشير ما في بعض الأدعية قال (عَلَيْهِ السَّلام) : باسمك المكنون المخزون الحي القيوم . الدعاء .

وأنت بعد التدبر فيما مرّ من الكلام يمكنك أن تستخرج معاني أُخر من هذا الحديث الشريف والله الهادي .

المبحث الخامس

قد عرفت أن ذاته سبحانه هي الهوية الحقيقية العينية التي تقوم وتظهر به كل هوية في الأعيان ، ومن هنا يظهر أن الأسماء الثلاثة التي للخطاب والتكلم والغيبة وهي أنت وإنا وهو ثابتة أسماء له تعالى فإنها أسماء للهوية باعتبار الخطاب والتكلم والخلو عنهما وقد قال سبحانه : ﴿ لا إله إلاّ أنت سبحانك ﴾ وقال تعالى : ﴿ لا إله إلاّ أنا فاعبدوني ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو ﴾ وقال تعالى :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ الآيات .

وأما اسم الإشارة والموصول فقد ورد الإطلاق لكن لم يتعرض أحد بالإسمية فيها قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربّكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلاّ هو ﴾ وقال : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ الآيات .

المبحث السادس

قد شاع في الألسن أن أسماء الله تعالى توقيفية وقد أرسلوه إرسال المسلمات وليس المراد بالإسم هاهنا حقيقته وهو الذات المأخوذ بوصف ما لعدم رجوعه حينئذ إلى معنى محصل بل المراد به الإسم اللفظي وهو اسم الإسم حقيقة وحينئذ فالمراد من التوقيف أما التوقيف على الرخصة الشرعية الكلية أو الشخصية فيمكن توجيه القاعدة بوجهين :

أحدهما أن معاني الألفاظ على المتداول المفهوم عندنا حيث لم تخل عن جهات النقص والإعدام وإن كانت مختلفة من هذه الجهات أيضاً وذلك مثل الإغواء والمكر والحيلة والإضلال ومثل الكبير والجسيم ونحوهما ونحن لا تفي عقولنا بإدراك ما هو اللائق بحضرته المقدسة وتشخيصه وتمييزه عمّا لا يليق احتيج إلى ورود رخصة ما في الإيقاع والإطلاق ولضعف العقول عن الشرح والتفصيل في كل مورد مورد احتيج إلى ورود كل اسم أريد اطلاقه بنحو الإسمية عليه تعالى .

والثاني أن الأمر كذلك ، لكن مجرد ضرب القاعدة بقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في

أسمائه ﴾ الآية يكفي في مقام التعليم وأن نحذر عن إطلاق ما لا يليق بساحته المقدسة بحسب المعاني المفهومة من الألفاظ الدائرة في لغاتنا هذه .

وهذان وجهان مختلفان بحسب النتيجة فعلى الأول لا يجوز إطلاق الإسم ما لم يرد شرعاً وإن علمنا خلوّه عن جهات النقص والإعدام .

وعلى الثاني يجوز ذلك سواء ورد بالخصوص شرعاً أم لا .

والظاهر أن مراد أكثر المتمسكين بهذه القاعدة هو المعنى الأول وهو عليل لقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وغير ذلك من الآيات التي يأبى سياقها عن الحمل على العهد الذهني بل ظاهرها لام الجنس وقد حل بالجمع فتفيد الإستغراق وان كل اسم أحسن فله تعالى وقد مرّ تقريبه في الفصول السابقة مع أن مقتضى الإستدلال لزوم التوقف في كل معنى يطلق بلفظ ما عليه تعالى أعم من أن يكون بنحو الإفراد والتسمية أو بنحو التوصيف أو الحكاية بجملة أو كلام تام كما لا يخفى .

وأما ما ورد من الروايات أن لله سبحانه تسعة وتسعين إسماً كما مرّ نقلها فليس في مقام الحصر من حيث العدد .

ويشهد بذلك أن الأسماء التي درجت فيها وذلك في روايتين منها مختلفة متفاوتة وقد أهمل فيهما شيء كثير من الأسماء الواردة في القرآن كما مرّ .

ويشهد بذلك أيضاً أن الرواية الأخرى وهي رواية الكافي في خلق الأسماء المنقولة سابقاً تثبت من الأسماء الحسنى ثلاثمائة وستين

إسماً بل ظاهر هذه الرواية أن الأسماء الحسنى غير مقصورة على مجرد ما يفيد التسمية من الأسماء كالرحمن الرحيم الملك بل يعم الجمل التي تفيد بمجموع ألفاظها بمعنى لايقاله تعالى فإنها عدّت من الأسماء الحسنى لفظة تبارك وسبحان ولا تأخذه سنة ولا نوم وإذا صحّ عدّ مثل هذه الجمل من الأسماء الحسنى صح في سائر الجمل التي أطلق عليه سبحانه في الروايات والخطب والمواعظ والأدعية وهي على إختلاف مواردها بحيث لا يشك المتتبع فيها أن هذا النحو من الإطلاق والتوصيف غير موقوف على ورود تحديد شرعي شخصي البته وإنما اللازم في مواردها خلوّها عن إثبات النواقص ومنافيات الكمال هذا .

فصل ٥

قد عرفت أن الأسماء هي حقائق الكمالات الوجودية وإنها مترتبة متفرعة نشأ بعضها من بعض وظاهر أن الإسم الذي ينشأ منه آخر فهو أوسع دائرة وأرفع محلاً وأعظم أثراً منه ولا يذهب هذا الترتب والتنزل أخذاً من تحت إلى فوق إلى غير النهاية فما ينتهي إليه جميع الأسماء هو أعظم الأسماء وإليه ينتهي جميع الآثار الوجودية التي لها في دار الوجود .

فصل ٦

وقد تواترت الآثار من الأخبار والأدعية الصحيحة الواردة عنهم (عَلَيْهِم السّلام) في وجود الإسم الأعظم وهي على كثرتها لا تحتاج إلى النقل في هذا المختصر وإنما المهم بيان شيء آخر وهو أنك

إذا تأملت الأخبار والأدعية وما يثبت فيها من الآثار للإسم الأعظم علمت أنه الإسم الذي يترتب عليه كل أثر متصور من الإيجاد والإعدام من الإبداء والإعادة والخلق والرزق والإحياء والإماتة والحشر والنشر والجمع والفرق وبالجملة كل تحويل وتحول جزئي وكلّي ومن الواضح أن هذه التأثيرات غير مترتبة على اسم لفظي وهو صوت مسموع عرضي قائم بمخارج الفم فانٍ بل صادرة من ناحية المعنى وهذا المعنى أيضاً غير مؤثر بما أنه صورة ذهنية خيالية مثلا بالضرورة فإنها مثل اللفظ ، على أنها فانية في المصداق الخارجي ، على أن هذا المؤثر كائناً ما كان فهو مؤثر بوجوده العيني ومن المستحيل دخول مثل هذا الوجود في الذهن فليس الإسم المزبور إلّا اسماً خارجياً حقيقياً وهو الذات مأخوذاً بوصف فهو بعض مراتب الذات المقدسة نعم هو أرفع المراتب وأعلاها وهذا هو المراد من اسم الله الأعظم الواردة في الآثار هذا .

وفي البصائر مسنداً عن عمار الساباطي قال : قلت لأبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : جعلت فداك أحب أن تخبرني باسم الله الأعظم . فقال : إنك لا تقوى على ذلك . قال : فلما ألححت . قال : فكأنك إذا . ثم قام فدخل البيت هنيئة ثم صاح بي أدخل فدخلت فقال لي : ما ذلك ؟ فقلت : أخبرني به جعلت فداك . قال : فوضع يده على الأرض فنظرت إلى البيت يدور بي وأخذني أمر عظيم كدت أهلك ، فضحك (عَلَيْهِ السّلام) . فقلت : جعلت فداك حسبي لا أريد . الرواية .

وروى في البصائر أيضاً شبيه القضية عن عمر بن حنظلة وأبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) .

وروى في البصائر أيضاً مسنداً عن جابر عن أبي جعفر (عَلَيْهِ

السّلام) قال : إن إسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً وإنما عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين وعندنا نحن من الإسم إثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

وفي البصائر أيضاً مسنداً عن البرقي يرفعه إلى أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله جعل اسمه الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً فأعطى آدم منها خمسة وعشرين حرفاً وأعطى منها إبراهيم ثمانية أحرف وأعطى موسى منها أربعة أحرف وأعطى عيسى منها حرفين يحيي بهما الموتى ويبرىء بهما الأكمه والأبرص وأعطى محمداً إثنين وسبعين حرفاً واحتجب حرفاً لئلا يعلم ما في نفسه ويعلم ما في نفس العباد . الخبر .

وأنت بعد معرفتك أن للنفس الإنسانية أن تفنى في مرتبة من مراتب الذات ولا يبقى حينئذ إلاّ تلك المرتبة تعرف معنى هذه الأخبار ولو كان هناك في الحقيقة لفظ كان حاله حال سائر ألفاظ الدعاء بالنسبة إلى الإستجابة .

ومن هنا يظهر أن المراد من الحروف في الرواية ليس هو حروف الهجاء وهو كذلك قطعاً فإن الإحتجاب حينئذ غير معقول .

ويؤيده ما في الخبر أن أحرف الإسم الأعظم متفرقة في القرآن والإمام يؤلفها ويدعو بها الخبر .

وفي العيون وتفسير العياشي : أن بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها . الخبر .

ومن هنا يظهر معنى ما ورد عن أئمة أهل البيت أنهم (عَلَيْهِم

السّلام) الأسماء الحسنى وأنهم اسم الله الأعظم ويظهر ذلك أيضاً من رواية الكافي السابقة .

وإذا تذكرت تلك الرواية وما ورد في روايات الحجب علمت أن محجوبية الإسم الأعظم واستئثاره في علم الغيب إنما هو لكونه مسلوب التعينات فلا تصل إليه الأيدي إلّا بمسألة الفناء والخلق حينئذ والملك يومئذٍ لله ولعل هذا هو المراد باستئثار الحرف الواحد والله العالم .

تم الكلام والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله أجمعين
في العشر الأخير من شهر المحرم
سنة إحدى وستين وثلاثمائة بعد
الألف الهجرية القمرية

رسالة الأفعال

بسم الله الرحمن الرحيم

هوالله

رسالة في أفعال الله سبحانه وتعالى
وهي الرسالة الثالثة من كتاب التوحيد
وهي آخر الرسائل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيّما محمد وآله الطاهرين .

هذه رسالة وضعنا فيها إجمال القول في أفعال الله سبحانه وما يتفرع عليها من القول في القضاء والقدر والبداء والسعادة والشقاوة والجبر والتفويض وسائر ما يشبهها من الهداية والإضلال والمشيئة والإرادة والتمحيص والإستدراج والغضب والأسف ونحوها والله المستعان .

فصل ١

قد برهنّا في رسالة الأسماء الحسنى على أن كل فعل متحقق في

دار الوجود مع إسقاط جهات النقص عنه وتطهيره من أدناس المادة والقوة والإمكان وبالجملة كل جهة عدمية فهو فعله سبحانه بل حيث كان العدم وكل عدمي بما هو عدمي مرفوعاً عن الخارج حقيقة إذ ليس فيه إلاّ الوجود وأطواره ورشحاته فلا فعل في الخارج إلاّ فعله سبحانه وتعالى وهذا أمر يدل عليه البرهان والذوق أيضاً .

فصل ٢

ويدل على ما مرّ النقل أيضاً قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربّكم خالق كل شيء ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ وفي هذا المعنى آيات كثيرة .

وقال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ فأخبر سبحانه بأن كل شيء من خلقه وأنه حسن .

ثم قال تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

وبهذه الآية يتم أن السيئات من حيث أنها سيئات أمور عدمية ، وإنما أخذنا الحيثية لمكان ما قبل الآية وهو قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلّ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ .

وفي الكافي وغيره مستفيضاً عن الرضا (عَلَيْهِ السّلام) قال الله : إبن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبقوتي أديت فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي جعلتك سميعاً بصيراً قوياً ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك

وذلك أنّي أولى بحسناتك منك وأنت أولى من سيئاتك منّي وذلك أنّي لا أسأل عمّا أفعل وهم يُسألون .

وهذا الحديث القدسي من جوامع الكلم يتضمن بيان جميع ما ذكر وبالجملة فالأفعال كلّها من الله كما مرّ ومع الغض عن ذلك النظر فالأفعال كلّها من حيث حسنها له سبحانه .

ثم إن الذي خصّه سبحانه بالذكر في كلامه أو في ألسنة أوليائه بعض هذه الأفعال وهي مع ذلك كثيرة إلاّ أنها بجملتها على قسمين :

أحدهما أفعاله سبحانه في تفاصيل خلقه وقيمومته وهي قيامه بلوازم الخلقة وشؤونها كقوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضيهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فأحيى به الأرض بعد موتها ﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على انحاء الأفعال من القول والكلام والتصوير والتسخير والكتابة والتوصية والإنبات والسوق والسقاية وأمثالها .

وثانيهما أفعاله تعالى في باب السعادة والشقاوة وما يلحق بهما قال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلاّ نمد هؤلاء

وهؤلاء من عطاء ربّك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ الآيات ، وهي تدل على إجمال القول الكلي في إفاضته على كلتا الطائفتين وإمداده لكلا الجانبين .

ثم شرح سبحانه الحال في جانب الشقاء في آيات أخر فقال سبحانه : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم أن كيدي متين ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك زيّنا لكل أمة عملهم ﴾ إلى أن قال : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات التي تنبىء عن أنّه سبحانه يخرجهم من النور ويتركهم في ظلمات موحشة متراكمة ويزين لهم سراب الخبائث والسيئات بصور جميلة حسنة ويجعل الأغلال في أعناقهم والسد من بين أيديهم ومن خلفهم ويعميهم ويصمّهم ويبكمهم ويقلب أفئدتهم وأبصارهم ويجرح قلوبهم ويضيقها فلا تسع الحق

ويلازمهم بقرناء الشياطين ورفقاء الأبالسة ويستدرجهم ويملي لهم ثم يحلهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وأمثال هذه الآيات واردة في جانب السعداء أيضاً .

ومن هذا الباب آيات أخر تدل على لزوم الأمر كقوله تعالى : ﴿ قال الحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ .

ومن هذا الباب ما يدل من الآيات على أن الأمر مقضى والقضاء الحتم مفروغ عنه مكتوب في اللوح المحفوظ وقد جفّ القلم قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإن من قرية إلّا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين ﴾ وقال : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ .

وهذا القسم الثاني من الافعال التي نسبها الحق سبحانه إلى نفسه يوجب بحسب ظاهر الآيات السابقة تأثير ما للحق سبحانه في جميع الأفعال حتى السيئات من حيث هي سيئات وقد عرفت قيام البرهان ونهوض النقل والبيان على خلاف ذلك وهذا هو الموجب

لتكلم القوم في القضاء والقدر والسعادة والشقاوة ونحوها ولاعحالة يتبعها النظر الظاهري من حيث نظام التكليف والجزاء والثواب والعقاب والشكر والعتاب كما ستعرف .

فصل ٣

حيث أن الموجودات بعد الحق سبحانه وأسمائه وصفاته ذو مراتب ثلاث وهي بنحو الكلية على ما يقطع به البرهان المذكور في رسالة الوسائط ثلاثة عوالم عالم العقل المجرد وعالم المثال وعالم المادة وهي مترتبة ترتب العلة والمعلول والكمال والنقص وقد فرغنا عن ذلك هنالك فكل ما يوجد في عالم المادة والجسم فصورته مطابقة لما في عالم المثال من الصور وهي مطابقة لصور عالم العقل المجرد وينتج ذلك أن نظام كل سافل منها مثبت في ما فوقها ثبتاً متقنا لا يتطرق إليه التغير والتبدل إذ ثبوت وجود في عالم سافل يحتاج إلى علة في ما فوقه وهي إذا تحققت لم تتغير إذ الواقع لا يتغير عما هو عليه فما يقبل التغير من حيث هو واقع فليس بواقع فقبول العلة للتغير مع تحقق المعلول ووجوده ووقوعه مستلزم لخلاف الفرض أو الإنقلاب المحال فنظام الوجود في كل عالم موجود مثبت في سابقه وما فوقه بنحو ثابت غير متغير .

ثم أن الحوادث التي في عالم الاجسام حيث أنها إنما يتم وجودها بالمادة فهي كائنة ما كانت محتاجة الوجود إلى استعداد سابق تحمله مادة وتتكثر الإستعدادات والإمكانات بتكثر جهات المستعد له ويتسلسل في ضمن موجودات جسمية سابقة بالزمان كلما بعد حامل الإستعداد عن المستعد له قل تخصصه وتعينه في ضمن المستعد وزاد

إبهامه واشتد إجماله وكثرت نسبته إلى أمور يمكن وجودها فيه وكلّما قرب من المستعد له كثر تخصص المستعد له وتعينه حتى يتم الإستعداد ويتصف بصفة الوجود وحينئذ يتم تعينه وتشخصه وامتنع تبدله لعدم إبهام فيه واستحال تغيره عمّا هو عليه .

مثال ذلك الإنسان مثلاً فإنه قبل تمامية صورته الإنسانية علقة ونطفة مثلاً وقبل ذلك مركب غذائي وقبل ذلك مركب نباتي مثلاً وقبل ذلك مركب عنصري وقبل ذلك عنصراً وعناصر بسيطة وهو حين كونه في مرتبة العنصر يمكن أن يصير واحداً من ألوف من المحتملات حتى يتخصص بألوف من الإستعدادات والفعليات فيصير مركباً عنصرياً مخصوصاً يبطل غيره من الممكنات والمحتملات جميعاً ولا يبقى غير ما هو صار كذلك ويمتنع تغيره عنه إلى غيره إذ المفروض بطلان استعداده ولا يزال كلما قرب من أفق الإنسان بطلت عدة من الإستعدادات وسد طريق جمع من المحتملات حتى يصير إنساناً ويبطل حينئذ جميع ما يمكن أن يكون هو إلاّ الإنسانية وامتنع أن لا يكون إنساناً ويتغير عنها إلى غيرها إذ الغير باطل زائل كل ذلك مما لاشكّ فيه .

وقد تبين أن المانع في مرتبة تمامية الوجود عن التغير كما مرّ إنما هو الوجود التام الذي يترتب به على الشيء آثاره إذ وجود الشيء نفس الشيء ومع فرض نفس الشيء كالإنسان مثلا يمتنع تغيره عن نفسه أي فرض الإنسان ووقوع الإنسان موقعه فافهم ذلك .

واعلم أن هذا غير التغيرات والتبدلات التي في هذا العالم فإن تغير الإنسان مثلاً إلى التراب وغيره ليس تغيراً في وجود الصورة الإنسانية وإنما هو إرتفاع وجود الإنسان عن المادة ونزول صورة

التراب إليها فالتغير إنما هو في المادة الغير التامة إلّا بصورتها وأما وجود الصورة فليس فيه تغير وإنما هو البطلان وفي الحقيقة إنما هو إنتهاء أمد وجود وإبتداء أمد وجود آخر .

وبالجملة فالوجود الخارجي مانع عن طرق التغير والتبدل وهو الذي يلزمه آخر التفاصيل الواقعية للشيء في ذاته وآثاره ونسبة الخارجية مع إرتفاع إبهامه من كل وجه وإذا كان ذلك كذلك وجميع استعدادات الوجودات المادية والحوادث الإمكانية وحوامل تلك الإستعدادات أيضاً موجودة في الخارج فهي أيضاً ممتنعة التغير عما هي عليها فجميع الوجودات التي يتركب منها عالم الأجسام ويستقر عليها نظامه أمور ثابتة بهذا النظر غير قابلة للتغير وإنما تقبل التغير لا في أنفسها بل بقياس بعضها إلى بعض ونسبته فالنطفة من حيث أنها نطفة غير قابلة التغير عما هي عليها ولا استعدادها لأن يكون إنساناً أو جسماً آخر بما هو استعداد موجود قابل للتغير ولا مادتها الحاملة للإستعداد في أنها مادة قابلة للتغير وإنما المادة إذا أضيفت إلى الصور الحاصلة فيها تقبل أن تتحصل باحديها وأقربها مثلاً صورة الإنسان وبالجملة فهذا النظام الجسماني بأجزائه نظام غير قابل للتغير مثل النظام في عالمي المثال والعقل المجرد غير أن في ضمنه نظاماً آخر لقبول التغير غير مؤثر قوته في فعليته .

وحيث ثبت بالبرهان اشتمال عالم المثال لنظام هذا العالم بجميع تفاصيلها واشتمال عالم العقل المجرد لتفاصيل عالم المثال ففيهما من تفاصيل نظام هذا العالم المادي قسم يقبل التغير في مرتبة وقوعه في عالم المادة وقسم لا يقبل التغير بتاتاً وحيث أن عالم المثال شبح ومثال لعالم العقل المجرد كان ثبوت الحكم بقسميه بالحقيقة هناك فافهم واحسن التأمل فيه .

فتبين من جميع ما مرّ أن لوجود الحوادث مرتبتين سابقتين عليها مرتبة لا تقبل التخلف عن الوقوع والتغير عن ذلك وهو الذي نسميه بالقضاء الحتمي ومرتبة تقبل التخلف والتغير كمرتبة مقتضياتها وعللها الناقصة والإستعدادات وهي التي نسميها بالقدر وهو القابل لوقوع المحو والإثبات وهو البداء .

وتبين أيضاً أن هذا التقسيم فيما يقبل التركيب في وجوده وأما ما لا يقبله كالمجردات المحضة فليس فيها إلّا القضاء فحسب .

فصل ٤

ويدل على ما مرّ النقل أيضاً وقد مرّ بعض الآيات في ذلك وفي المحاسن مسنداً عن هشام بن سالم قال : قال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : إن الله إذا أراد شيئاً قدّره فإذا قدّره قضاه فإذا قضاه أمضاه . وفيه مسنداً عن محمد بن اسحاق قال : قال أبو الحسن (عَلَيْهِ السّلام) ليونس مولى علي بن يقطين : يا يونس لا تتكلم بالقدر ، قال : لا أتكلم بالقدر ولكن أقول لا يكون إلّا ما أراد الله وشاء وقضى وقدر . فقال : ليس هكذا أقول ولكن أقول لا يكون إلّا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى ثم قال : أتدري ما المشيئة ؟ فقال : لا . فقال : همّه بالشيء أوَتدري ما أراد ؟ قال : لا ، قال : إتمامه بالمشيئة ، فقال : أوَ تدري ما قدر ؟ قال : لا قال : هو الهندسة بالطول والعرض والبقاء ، ثم قال : إن الله إذا شاء شيئاً أراده وإذا أراد قدره وإذا قدره قضاه وإذا قضاه أمضاه . الخبر . وفي خبر آخر : فذلك الذي لا مردّ له .

وفي التوحيد مسنداً عن زرارة عن عبدالله بن سليمان عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : سمعته يقول : أن القضاء والقدر

خلقان من خلق الله والله يزيد في الخلق ما يشاء .

أقول : وذيل الخبر إشارة إلى البداء وصدره إشارة إلى ما بيّناه من كونهما مرتبتين من الوجود وإن كانا من مراتب العلم من جهة أخرى كما يشير إليه أخبار أخر .

ففي التوحيد عن المفسر بإسناده إلى العسكري (عَلَيْهِ السّلام) فيما يصف به الرب : لا يجور في قضيته الخلق إلى ما علم منقادون وعلى ما سطر في كتابه ماضون لا يعملون خلاف ما علم منهم ولا غيره يريدون . الخبر .

وفي المحاسن مسنداً عن داود بن سليمان الجمال قال : سمعت أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) وذكر عنده القدر وكلام الإستطاعة فقال : هذا كلام خبيث أنا على دين آبائي لا أرجع عنه القدر حلوه ومرّه من الله والخير والشر كلّه من الله .

أقول : والأخبار بهذا اللسان مستفيضة وفي علل الشرائع مسنداً عن عمرو بشر البزاز عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : والله لقد خلق الله آدم للدنيا وأسكنه الجنة ليعصيه فيردّه إلى ما خلقه له .

أقول : والأخبار في هذا المساق أيضاً مستفيضة على تعلق القضاء والقدر بالمعاصي أيضاً وإن لم يتعلقا بهما من حيث أنها كذلك .

وأجمع خبر في ذلك ما استفاض نقله عن علي (عَلَيْهِ السّلام) أنه جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، فقال : بحر عميق فلا تلجه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، قال : طريق مظلم فلا تسلكه ، قال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر : قال : سرّ الله فلا تتكلفه ،

قال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : أما إذا أبيت فإنّي سائلك أخبرني أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله ؟ قال : فقال له الرجل : بل كانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد ، فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : قوموا فسلّموا على أخيكم فقد أسلم وقد كان كافراً . قال : وانطلق غير بعيد ثم انصرف إليه فقال له : يا أمير المؤمنين أبالمشيئة الأولى نقوم ونقعد ونقبض ونبسط ؟ فقال له أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : وإنك لبعد في المشيئة أما إنّي سائلك عن ثلاث لا يجعل الله لك في شيء منها مخرجاً أخبرني أخلق الله العباد كما شاء أو كما شاؤوا ؟ فقال : كما شاء . قال : فخلق الله العباد لما شاء أو لما شاؤوا ؟ فقال : لما شاء . قال : يأتونه يوم القيامة كما شاء أو كما شاؤوا ؟ قال : يأتونه كما شاء . قال : قم فليس إليك من المشيئة شيء .

أقول : استدل صلوات الله عليه بثبوت القدر وهو تأثير الحق سبحانه في تفاصيل الموجودات وصدور أفعالها ومنها الإنسان بالصفات وسبقها على الأفعال فإن سبق الرحمة يقتضي إيجاد مقتضاها وهي تقتضي مرحوماً كما إن سبق صفة المغفرة يقتضي ذنباً يقع عليه المغفرة كما في الخبر : لولا أنّكم تذنبون لذهب بكم وجاء بقوم يذنبون .

وأما ذيل الخبر فيشير إلى مشيئة الحق سبحانه هي الغالبة القاهرة على كل حال وهو (عَلَيْهِ السّلام) وإن لم يصرح إلّا أن فحوى الكلام يدل على أنه يقول فيه على صفات الحق سبحانه المناسبة له كالقدرة والقهر والملك كما يفسره قوله (عَلَيْهِ السّلام) في خبر آخر وقد سئل عن القدر فقال (عَلَيْهِ السّلام) : ما يفتح الله

للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل لها . فقيل يا أمير المؤمنين : إنّما سألناك عن الإستطاعة التي بها نقوم ونقعد ونقبض ونبسط ، فقال : استطاعة تملك مع الله أم دون الله ؟ فسكت القوم ولم يحروا جواباً ، فقال (عَلَيْهِ السّلام) : إن قلتم أنكم تملكونها مع الله قتلتكم وإن قلتم دون الله قتلتكم . فقالوا : كيف نقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : تملكونها بالذي يملكها دونكم فإن أمدّكم بها كان ذلك من عطائه وإن سلبها كان ذلك من بلائه إنما هو المالك لما ملككم والقادر لما عليه أقدركم أما تسمعون ما يقول العباد ويسألونه الحول والقوة حيث يقولون لا حول ولا قوة إلّا بالله . الخبر .

وفي التوحيد مسنداً عن زرارة قال : سمعت أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) يقول : كما إن بادىء النعم من الله وقد نحلكموه كذلك الشر من أنفسكم وإن جرى به قدره .

أقول : وهذا الخبر في معنى سابقه وجملة المعنى أن الإيجاد كالوجود له سبحانه بالإستقلال ولغيره سبحانه بالتبع وبه سبحانه ويدل عليه أيضاً ما في التوحيد مسنداً عن الزهري قال : قال رجل لعلي بن الحسين (عَلَيْهِ السّلام) : جعلني الله فداك أبقدر يصيب الناس ما أصابهم أم بعمل ؟ فقال : إن القدر والعمل بمنزلة الروح والجسد فالروح بغير جسد لا تحس والجسد بغير روح صورة لا حراك بها فإذا اجتمعا قويا وصلحا كذلك العمل والقدر فلو لم يكن القدر واقعاً على العمل لم يعرف الخالق من المخلوق وكان القدر شيئاً لم يحس ولو لم يكن العمل بموافقته من القدر لم يمضي ولم يتم ولكنهما باجتماعهما قويا . الخبر .

وفي الكافي والتوحيد مسنداً عن المعلّى قال : سئل العالم (عَلَيْهِ

السّلام) كيف علم الله ؟ قال : علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى فأمضى ما قضى وقضى ما قدر وقدر ما أراد فبعلمه كانت المشيئة وبمشيئته كانت الإرادة وبإرادته كان التقدير وبتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء فالعلم متقدم المشيئة والمشيئة ثانية والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما أراد التقدير الأشياء فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء فالعلم في المعلوم قبل كونه والمشيئة في المنشأ قبل عينه والإرادة في المراد قبل قيامه والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها أعياناً وقياماً والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الأجسام المدركات بالحواس من ذي لون وريح ووزن وكيل وما دب وما درج من أنس وجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس فلله تبارك وتعالى فيه البداء مما لا عين له فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء والله يفعل ما يشاء وبالعلم علم الأشياء قبل كونها وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها وإنشائها قبل إظهارها وبالإرادة ميز أنفسها في ألوانها وصفاتها وحدودها وبالتقدير قدر أقواتها وعرف أولها واخرها وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلّهم عليها وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها ذلك تقدير العزيز العليم .

أقول : ويستفاد من هذه الرواية جلّ ما بيّناه في الفصل السابق .

وقد تبين به مورد القضاء والقدر كما مرّ وإنّ البداء مورده القدر على أنه المصحح له أيضاً .

وقد روى العياشي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) أنه قال : كان علي بن الحسين (عَلَيْهِ السّلام) يقول : لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون إلى يوم القيامة . فقلت له : أيّة آية ؟ قال : قول

الله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

ومثله في التوحيد عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) والأخبار الواردة في ثبوت البداء فوق حد الإستفاضة تركنا نقلها إيثاراً للإختصار .

وفي المحاسن مسنداً عن حريز أو عبدالله بن مسكان قال : قال أبو جعفر (عَلَيْهِ السّلام):لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلاّ بهذه الخصال السبعة بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل فمن زعم أنه يقدر على نقض واحدة منهن فقد كفر .

أقول : وهي إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن الله ﴾ وقوله : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وأمثال هذه الآيات .

واعلم أن أخبار هذا الباب مثل باب السعادة والشقاوة والجبر والتفويض على ثلاثة أقسام قسم منها متعرض لحقائق الأمور وقسم منها يكتفي ويجري مع الناس بحسب ظاهرها لهم وقسم ينهى عن التعرض لهذه الأبحاث كما مر في الخبر عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) طريق مظلم فلا تسلكه . . . الخ .

وفي تفسير القمّي وفي حديث آخر سئل (يعني الصادق عَلَيْهِ السّلام) : هل بين الجبر والقدر منزلة ؟ قال : نعم . فقيل : ما هو ؟ فقال : سر من أسرار الله . الخبر . ومن المعلوم أن جواباتهم

(عَلَيْهِم السّلام) على قدر أفهام السائلين والسامعين على اختلاف مراتبهم .

فصل ٥

الأنواع التي لها نفوس مجردة تجردها اما في أول وجودها أنواع مادية محضة ثم تتحرك ذواتها بالحركة الجوهرية وتصير مجردة تجرداً خيالياً وتقف هناك أو تتجاوز عنه بالحركة الجوهرية فتصير مجردة تجرداً عقلياً كلياً وذلك في بعض أفراد الإنسان فهذه الأنواع جميعاً جسمانية الحدوث روحانية البقاء فهذه الأنواع ذوات النفوس أنواع متوسطة خلافاً لجميع الفلاسفة المتقدمين من حكماء مصر ويونان وغيرهم وقدماء حكماء الإسلام .

والإنسان من بينها خاصة ويمكن أن يلحقه بعض الحيوان نوع متوسط تحته أنواع كثيرة تتصور بعد تجرده بصورها ويقف دونها أو يتجاوزها إلى صور عقلية ويقف دونها .

وحيث أن العود مثل البدء أو عينه بوجه فالنوعية الأخيرة التي يرتقي إليها ويقف دونها الإنسان هي المرتبة التي منها نزل وإن كان بين المرتبتين أعني البدء والعود فرق وسيجيء الإشارة إليه هذه اصول تفرد بوصفها والبرهنة عليها صدر المتألهين قدّس سره .

وبعد وضعها نقول التجارب التام يفيد أن بين خصوصيات أبنية الأبدان وأمزجتها وبين الأخلاق إرتباطاً تاماً والأخلاق ملكات أي علوم راسخة تتلبس بها النفس بواسطة الأحوال وتكررها حتى ترسخ وتثبت ثبوتاً غير جائز الزوال والتجارب أيضاً حاكم بتأثير التربية وخاصة التربية التعليمية بالتلقين وهذا يفيد أن تأثير أوضاع الأبدان في باب إنتشاء الأخلاق ليس على حد الإيجاب بل بنحو

الاستعداد الشديد غير أن للخلق حدّاً يستحيل معه زواله هذا .

فالنفس أول ما تحدث بحركة البدن الجوهرية حيث يأخذ الخيال في الفعل وهي حينئذ متلونة بلون البدن تلوناً قوياً إلّا أنه غير بالغ بعد مرتبة اللزوم ، ثم تخلى هي وما بين يديها ومن نوع التربية والعلوم والإعتقادات والحوادث المرتبطة بها المتماسة معها فلا تزال تسلك سبيلاً بعد سبيل وتتراكم عليها الأحوال والإعتقادات وينتج بعضها بعضاً حتى ترسخ فيها رسوخاً غير مفارق وهذه صورة نفسانية تفرق بها نفس عن نفس وهو تنوع النفس فإن كانت صورة سعادة فتقع في البرزخ في سبيل السعادة وإن كانت صورة شقاوة ففي سبيل الشقاوة وإن كان تجردها تجرداً برزخياً وقفت دونه وإن تجاوزته تجاوزته هذا .

بقي هنا شيء وهو أن كمال كل معلول وغاية وجوده هو وجود علّته ومن المتسحيل أن يتكامل معلول فيتجاوز كمال علة وجوده والمرتبة التي فيها وجودها ومن المستحيل أن يتكامل معلول ويطوى جميع مراتب كماله الوجودي فلا ينتهي إلى مرتبة علّته أي لا يتصل إلى حد بعده علّته والإلزام خلاف الفرض ومن المستحيل أيضاً أن يلغى غاية علّة من العلل الطولية المجردة من فعلها إذ المفروض أنّها مجردة ثابتة غير متغيرة ومعلولاتها إنما صدرت عنها بهذه الخيثية وهي غير متغيرة ففرض تخلف غاياتها أو غايات معاليلها محال .

ومن هذه المقدمات يستنتج أن الشيء في عوده إنما يستقر في مرتبة تعينت منها ذاته وفوقه علته فكل شيء يعود إلى ما بدأ منه غير أن بين البدء والعود فرقاً من حيث أن العود ينشعب إلى دار سعادة ودار شقاوة والبدء لم ينشعب إليها بل هي دار سعادة فحسب لكن يجب أن يعلم أن السعادة في البدء إنما هي السعادة العامة دون

السعادة الخاصة التي يقابلها الشقاوة فلا منافاة بين سعادة البدء وتعين ذات الشقي منها وعوده إلى تلك المرتبة وهو شقي والبدء والعود مع ذلك واحد فافهم إن كنت من أهله إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم أن النظام العقلي في عالم المجردات والنظام المثالي في عالم المثال واحد وجهي النظام الجسماني في عالم الإجسام نظام ثابت غير متغير فكيف ما كان تعين النوع الجسماني ومنها الإنسان الذي هو جسماني الحدوث من سعادة وشقاوة فكذلك يعود ، هكذا ينبغي أن يفسر السعادة والشقاوة الذاتيّتان دون ما يترائى من ظاهر لفظهما حتى يلزمه بطلان تأثير التربية ولغوية التكاليف واختلال نظام التشريع وبالجملة بطلان المجازاة والثواب والعقاب والله الهادي .

واعلم أن ما ذكرناه في هذا الفصل كلّه مبرهن عليه غير أنّا أشرنا إلى برهان بعض واضربنا عن بعض لطول مقدماتها وترتبها على أخرى من أرادها فليراجع المطولات .

فصل ٦

والنقل أيضاً يدل على ما مرّ فإن الآيات المذكورة في الفصل الثاني وإن دلّت على أنواع مقت الله للإشقياء وإضلالهم عن طريق الهداية والمكر معهم وأقسام التصرف في باطنهم إلّا أنا إذا رجعنا إليها وتأملنا فيها وجدنا أن أفعال الحق وتصرفاته فيهم معلل بالشرور التي في أنفسهم ومترتب على فسوقهم وكفرهم وطغيانهم : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين والله لا يهدي القوم الظالمين وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وقطع نوال الهداية عمّن أعرض عنها وتخليته وضلالته لا ينافي

عموم عدله سبحانه وشمول رحمته فإرسال هذه النقمات وتلبيسهم بأقسام ملابس الشقاء معلل بأنفسهم وأما إبليس وإغوائه للإشقياء فليس ذلك لتسلطه الذاتي عليهم بل لتسليطهم إيّاه على أنفسهم باتباعهم إيّاه لغيهم في ذاتهم قال تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ ولأغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط عليّ مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين ﴾ وقال تعالى أيضاً حكاية عنه (لعنه الله) فيما يخاطبهم به يوم القيامة : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ الآية .

فحمل إبليس أيضاً الذنب عليهم أنفسهم وعلل العذاب بالظلم دون الإتباع واستجابة الدعوة وكل ذلك إحالة إلى الذات وحكى سبحانه الإعتراف بذلك منهم أنفسهم وهم معذبون : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ الآية ، فذات سعيدة وذات شقية وحيث رجع الشقاء الى الذات وهي وإن وقعت أفعالها في خارج عنها وإنفعالاتها عن الخارج عنها لكن من المعلوم إن أفعالها وإنفعالاتها وخاصة ما يرجع إلى باطنها منها لا يخرج عن نفسها ودائرة ذاتها وقد قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيّها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما يمكرون إلّا بأنفسهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما يخدعون إلّا أنفسهم وما يشعرون ﴾ الآية .

وإذا كان كذلك فكلما قصدت فعلاً أو أرادت غاية لم يخرج ذلك عن نفسها وإنما قصدت صورة حسنة أو سيئة من صور نفسها وهذه حقيقة فالغاية كمال للفاعل والفعل من شؤونه وجهاته وأطواره على ما بين في محله وإذا كان كذلك فهذه الصور السيئة التي تكتسبها الذات الشقية تزيد وتنمو وتتراكم عليها حتى تعميها وتصمها وتقلب أفئدتهم وتزين لهم كلّما يصدُّ عن سبيل الله ويجعل الرجس على قلوبهم وتجعلها مأوى للقرين من الشياطين إلى آخر ما أوعدهم الله سبحانه كل ذلك بسير ذواتهم في هذه الظلمات وتلبسها بملابسها قال تعالى : ﴿ وإن للذين كفروا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ الآية ، فهم بشقائهم الذاتي يسلكون سبيل النار ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ الآية ، ولا يزالون يقطعون مرحلة قد هيؤوها بسابق أعمالهم بعد مرحلة حتى يحلّوا دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار .

ويؤيد ما مرّ طوائف من الأخبار منها أخبار السعادة والشقاوة ففي الأمالي مسنداً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : الشقي من شقى في بطن أمّه والسعيد من سعد في بطن أمّه . الخبر . وهو خبر مستفيض رواه جمع بطرق مختلفة من الخاصة والعامة .

وفي قرب الإسناد عن ابن عيسى عن البزنطي عن الرضا (عَلَيْهِ السّلام) في حديث ثم قال : إن النطفة تكون في الرحم ثلاثين يوماً وتكون علقة ثلاثين يوماً وتكون مضغة ثلاثين يوماً وتكون مخلقة وغير مخلقة ثلاثين يوماً وإذا تمت الأربعة أشهر بعث الله تبارك وتعالى إليها ملكين خلاقين يصورانه ويكتبان رزقه وأجله وشقيّاً أو سعيداً . الخبر . وهذا المعنى وارد في روايات أخر أيضاً .

وفي التوحيد والمحاسن مسنداً عن ابن حازم عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله خلق السعادة والشقاوة قبل أن يخلق خلقه فمن علمه الله سعيداً لم يبغضه أبداً وإن عمل شراً أبغض عمله ولم يبغضه وإن علمه شقيّاً لم يحبه أبداً وإن عمل صالحاً أحب عمله وأبغضه لما يصيره إليه فإذا أحب الله شيئاً لم يبغضه أبداً وإذا أبغض شيئاً لم يحبه أبداً . الخبر .

وفي البصائر مسنداً عن محمد بن عبدالله قال : سمعت جعفر بن محمد (عَلَيْهِ السّلام) يقول : خطب رسول الله الناس ثم رفع يده اليمنى قابضاً على كفّه فقال : أتدرون ما في كفّي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : فيها أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة ثم رفع يده اليسرى فقال : أيها الناس أتدرون ما في يدي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة . ثم قال : حكم الله وعدل وحكم الله وعدل فريق في الجنة وفريق في السعير . الخبر . وروى هذا المعنى في المحاسن أيضاً .

ومنها ما يدل على أن العود إلى ما كان منه البدء ففي العلل مسنداً عن أبي اسحاق الليثي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) في حديث طويل ثم قال : أخبرني يا إبراهيم عن الشمس إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو بائن من القرص ؟ قلت : في حال طلوعه بائن . قال : أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود إليه قلت : نعم . قال : كذلك يعود كل شيء إلى سنخه وجوهره وأصله . الخبر .

وهذا المعنى مع التمثيل متكرر في أحاديث الطينة وفيه لطائف من المعاني .

وفي الأمالي وتفسير القمي في حديث قال : خلقهم حين خلقهم مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً وكذلك يعودون يوم القيامة مهتد وضال . إلى أن قال : كما بدأكم تعودون من خلقه الله شقياً يوم خلقه كذلك يعود إليه ومن خلقه سعيداً يوم خلقه كذلك يعود إليه سعيداً قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمّه . الخبر .

أقول : وفي أوله إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ .

ومنها أخبار الطينة وهي أخبار كثيرة جدّاً تدل على اختلاف ما في مضامينها على أن سنخ السعداء والأشقياء وأصلهم الذي خلقوا منه وبدأوا عنه وهو المعبر عنه فيها بالطينة مختلف فطينة السعداء من عالم النور والجنة وعليين والأرض الطيبة والماء العذب الفرات ومآل الجميع واحد كما سنشير إليه إن شاء الله وطينة الأشقياء من عالم الظلمة والنار وسجّين والأرض السبخة الخبيثة والماء الأجاج ومآل الكل واحد وإن جميع ما يستقبلهم من أنواع السعادة والشقاوة والخير والشر من حين أخذوا في السير عن موطنهم الأصلي إلى أن يعودوا إليه ويحلوا محلهم من آثار الطينة التي منها خلقوا ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا الذي تفيده هذه الروايات مستفادة من القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فأخبر سبحانه أنهم كما يعودون فريقين فقد بدؤوا فريقين ثم قال سبحانه : ﴿ كلاّ إن كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدريك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين ﴾ إلى أن قال : ﴿ كلاّ إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدريك ما عليون كتاب مرقوم يشهده

المقربون إن الأبرار لفي نعيم ﴾ إلى آخر الآيات وقد قال تعالى : ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ الآية .

وقد بيّنا في رسالة الوسائط أن كتاب كل موجود إنما هو سلسلة من أمور وجودية هي ذاته وتبعات ذاته وآثاره ولواحقه واذنابه وإنه بنحو الإستنساخ من أصل ثم أصل حتى ينتهي إلى الأصل الواحد وهو أم الكتاب وإذا تأملت في هذه الايات وجدت أن عليين وسجين كتابان كليان فيهما كتاب الأبرار والفجار وإنهما هي الجنة والنار ومنهما طينتا البر والفاجر وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ فأخبر بأن أعمال السعداء يصعد إليه ويرفعه وأعمال الأشقياء تهلك وتبور ثم قال سبحانه : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلّا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلّا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ الآية . فأخبر بأن خلقهم وأطواره ومقاديرها محفوظ عنده مكتوب قبل وجودهم وبرئهم ثم قال سبحانه : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر ﴾ الآية .

فبيّن سبحانه سبب إختلاف مجاري أفعال السعداء والأشقياء فأفعال أحد الفريقين يصعد إليه سبحانه وأفعال الآخر تهلك مع إنهم جميعاً مخلوقون من تراب ثم من نطفة وهم أزواج بأن الإشتراك في بعض الجهات العارضة والفوائد المترتبة لا توجب الإستواء بعدما كانت الذوات مختلفة الأصول فبعضها من البحر العذب وبعضها من البحر المالح ويستشم هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مرج

البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهرا وكان ربّك قديرا ﴾ الآيتان ، وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجلعه في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ الآيتان .

فأخبر سبحانه بأن المشتركات من الأفعال التي توجد في جميع الموارد كما ذكره فيما سبق من الآيات ستميز وتجمع كل إلى ما يشاكله ويلحق بأصله بعدما خلطت ومزجت في هذه الدنيا وقد قال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ .

ثم قال تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوء من الجنة حيث نشاء ﴾ الآية ، وقال سبحانه : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ الآية ، فأخبر بأنه يورثهم أرضاً ومساكن طيبة هي الجنة وقال سبحانه : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ الآيتان .

فأخبر بأن التفاوت العظيم الذي بين ثمرات السعادة والشقاوة في خلال تصريفاتهم إلى الأحياء والمحشر يرجع إلى تفاوت الأراضي التي منها تكونوا وعليها أحيوا وعاشوا وارتزقوا فمن أرض طيبة يطلع منها كل الثمرات بماء رحمته سبحانه ومن أرض خبيثة سبخة لا يخرج

إلاّ نكداً عديم النفع فارجع الأمر إلى الطينة بالآخرة وقد قال سبحانه : ﴿ إنّا خلقناكم من طين لازب ﴾ وقال : ﴿ إنّي خالق بشراً من طين ﴾ وقال سبحانه : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ فتأمل فيما قدمناه وتدبر في جهات الكلام وخصوصيات القول .

واعلم أن كلامه سبحانه واحد وما يبدل القول لديه وهو يقول الحق ويهدي السبيل فعلى هذا الأصل الواحد ندور ونجري والحمد لله .

وفي العلل مسنداً عن أبي بصير قال : دخلت على أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) ومعي رجل من أصحابنا فقلت : جعلت فداك يا بن رسول الله إنّي لأغتم وأحزن من غير أن أعرف لذلك سبباً ، فقال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : إن ذلك الحزن والفرح يصل إليكم منّا لأنّا إذا دخل علينا حزن أو سرور كان ذلك داخلاً عليكم ولإنّا وإيّاكم من نور الله عزّ وجلّ فجعلنا وطينتنا واحدة ولو تركت طينتكم كما أخذت لكنّا وأنتم سواء ولكن مزجت طينتكم بطينة أعدائكم فلولا ذلك ما أذنبتم ذنباً أبداً . قال : قلت جعلت فداك فتعود طينتنا ونورنا كما بدأ ، فقال : إي والله يا عبدالله أخبرني عن هذا الشعاع الزاخر من القرص إذا طلع أهو متصل به أو بائن منه ؟ فقلت : جعلت فداك بل هو بائن منه فقال : أفليس إذا غابت الشمس وسقط القرص عاد إليه فاتصل به كما بدا منه ؟ فقلت : نعم . فقال : كذلك والله شيعتنا من نور الله خلقوا وإليه يعودون والله إنّكم لملحقون بنا يوم القيامة . الخبر .

وفي أمالي الشيخ مسنداً عن يحيى بن عبدالله بن الحسن عن أبيه وعن جعفر بن محمد عن أبيهما عن جدّهما قالا : قال رسول الله

(صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إن في الفردوس لعيناً أحلى من الشهد وألين من الزبد وأبرد من الثلج وأطيب من المسك فيها طينة خلقنا الله عزّ وجلّ منها وخلق منها شيعتنا فمن لم يكن من تلك الطينة فليس منّا ولا من شيعتنا وهي الميثاق الذي أخذ الله عزّ وجلّ عليه ولاية علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السّلام) . قال عبيد : فذكرت لمحمد بن علي بن الحسين بن علي هذا الحديث فقال : صدقك يحيى بن عبدالله هكذا أخبرني أبي عن جدي عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) .

وفي العلل عن زيد الشحام عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله تبارك وتعالى خلقنا من نور مبتدع من نور سنخ ذلك النور في طينة من أعلى عليين وخلق قلوب شيعتنا مما خلق منه أبداننا وخلق أبدانهم من طينة دون ذلك فقلوبهم تهوى إلينا لأنها خلقت مما خلقنا منه ثم قرأ : ﴿ كلاّ إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدريك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ وإن الله تبارك وتعالى خلق قلوب أعدائنا من طينة من سجّين وخلق أبدانهم من دون ذلك وخلق قلوب شيعتهم مما خلق منه أبدانهم فقلوبهم تهوى إليهم ثم قرأ : ﴿ كلاّ إن كتاب الفجار لفي سجّين وما أدريك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

وفي العلل مسنداً عن حبة العرني عن علي (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله عزّ وجلّ خلق آدم (عَلَيْهِ السّلام) من أديم الأرض فمنه السباخ ومنه الملح ومنه الطيب فكذلك في ذريته الصالح والطالح . الخبر .

أقول وهذا المضمون وأمثاله يمكن أن ينزل على الإرتباط الذي بين تركيب الأبدان وأمزجتها وبين الأخلاق والأفعال كما يؤيده ما في النهج من كلامه (عَلَيْهِ السّلام) وقد ذكر عنده إختلاف الناس فقال

(عَلَيْهِ السَّلام) : إنما فرق بينهم مبادىء طينهم وذلك أنهم كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها وحزن تربة وسهلها فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافها يتفاوتون فتام الرداء ناقص العقل وماد القامة قصير الهمة وزاكي العمل قبيح المنظر وقريب القعر بعيد السبر ومعروف الضريبة منكر الجليبة وتائه العقل متفرق اللب وطليق اللسان حديد الجنان . الخطبة .

وفي المحاسن عن علي بن الحكم عن أبان عن زرارة عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السَّلام) في حديث فقال : إن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الخلق قال : كن ماءاً عذباً أخلق منك جنتي وأهل طاعتي ، وقال : كن ماءاً ملحاً أجاجاً أخلق منك ناري وأهل معصيتي ، ثم أمرهما فامتزجا فمن ذلك صار يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر مؤمناً ثم أخذ طين آدم من أديم الأرض فعركه عركاً شديداً فإذا هم كالذر يدبون فقال لأصحاب اليمين : إلى الجنة بسلام ، وقال لأصحاب النار : إلى النار ولا أبالي . الخبر .

فهذه انموذجة من أخبار الطينة وهي تشتمل على خمسة أنواع من البيان حسب ما أوردناه كل واحد من هذه الأصناف مستفيض والكل واحد كما عرفت .

ومنها أخبار الذر والميثاق وهي على كثرتها تبين أن الله سبحانه أخذ الميثاق بعد ما عرضه على السعيد والشقي معاً فأخذ أقرارهم على ربوبيته وحقيقة الحق وبطلان الباطل كما يومي إليه آيات من القرآن قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنّا كنّا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنّا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ الآيات .

بين سبحانه أنّه أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم وأخذ منهم الإقرار على ربوبيته ومن المعلوم أن أباهم آدم غير معفو عن هذا الأمر فهو معهم فهو في الحقيقة إشهاد له ولذريته جميعاً فيكون قوله من بني آدم من ظهورهم المراد به آدم وما يخرج من ظهره وما يخرج من ظهر كل من ذريته الخارجة من ظهره تغليباً ولذلك أطلق فيما يفسره من الأخبار أن الله أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة ونكتة التغليب الإشارة إلى إعتبار وساطة الناس بعضهم في توليد بعض وعدم تأثير هذه الإختلافات في تمام الحجة عليهم وإقرارهم إذ قالوا بلى شهدنا فيكون كالتوطئة لقوله تعالى بعد : ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ الآية . فافهم .

ثم إن هذا الأخذ والإشهاد لو كان موطنه هذه النشأة الدنيوية كان قوله : ﴿ قالوا بلى شهدنا ﴾ حكاية عن لسان الحال ويكون المراد من أخذهم إيجادهم بالتوليد والتناسل وإشهادهم على أنفسهم ألست بربكم إراءتهم أنفسهم بما يشتمل على الايات الأنفسية التي تدل على وجود الحق ووحدانيته فيترتب عليه إعترافهم بلسان الحال بتوحيده سبحانه فيكون جملة المراد أن الله سبحانه خلق بني آدم في هذه الدنيا ونشرهم فيها وأشهدهم على أنفسهم بإراءة آياتها واحتياجاتها إلى رب مدبر فاعترفت بهذه الآيات ودلالتها قلوبهم وقالوا بلسان حالهم بلى شهدنا إلّا أن سياق هذه الآيات يعطي أن هذا الأخذ العمومي والإشهاد إنما كان قطعاً لحجتين يمكن أن يحتجوا بهما يوم القيامة إذ رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وهما إنا كنا عن هذا غافلين أو إنا وإن لم نغفل لكن الذنب إنما هو من آبائنا من قبل ونحن كنا ذريتهم تبعناهم في شركهم أفتهلكنا بفعل فعله هؤلاء المبطلون .

ويؤول المراد إلى أن هذا الأخذ والإشهاد إنما هو ليرتفع الغفلة نفسها أو يبطل أثرها وليبطل أثر التبعية بالولادة وإن لم يغفل التابع ومن الواضح أن الغاية الثانية لا تترتب على هذا الأخذ والإشهاد فارتفاع الغفلة يقطع العذر كائناً ما كان ولا قاطع غيره فإضافة غاية أخرى إلى الأولى كائنة ما كانت توجب رداءة الكلام وسماجته وحاشا كلامه سبحانه . ولو جعل قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا . . ﴾ إلخ غاية لقوله تعالى : ﴿ وأشهدهم ﴾ وقوله : ﴿ أو تقولوا . . ﴾ إلخ غاية لقوله : ﴿ وإذ أخذ . . ﴾ إلخ يصير الكلام أردى وأسمج إذ يصير المعنى إن ربك أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم وكذلك بين الجميع لئلا يقع بعضهم تحت تبعية بعض لعدم إنفصالهم عنهم فيقولوا يوم القيامة أن الفاعلين للشرك إنما هم آباؤنا فلماذا تعذبنا ، هذا إذ لا آباء ولا ذرية بعد فرض عدم الإنفصال .

فهذا الموطن لا يجوز أن يكون هو موطن الحياة الدنيا بل الاية الشريفة : ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا ﴾ الآية تفيد أن هناك كان موطناً لولا تفكيك الذرية من ابائهم لاثرت التبعية المحضة ولم يكن فعل الشرك إلّا فعلاً واحداً صادراً من آبائهم دون الذرية حتى كانت الذرية تقول يوم القيامة إنا كنا متصنين بآبائنا وموجودين بتبعيتهم والشرك كان من فعلهم فبماذا تستوجب عذابنا بعد إذ فصلتنا منهم وميزت وجودنا من وجودهم فأخبر سبحانه أنه فرق بينهم إذ ذاك لتنقطع حجتهم ويكون قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ الآية إحتجاجاً بالغفلة عن الإشهاد الذي في هذا الموطن فلابد حينئذ أن يكون حكمه بحيث لا يقبل التغير أي رجعاً إلى الذات ونحو الوجود حتى تجري على وتيرته وحسب اقتضائه الحياة الدنيوية التي أوجبت شقاوتهم فيها فتكون هذه الغفلة غفلة ذاتية لهم

عن ربوبيته سبحانه وشهادتهم شهادة ذاتية وأبصاراً وجودياً وإشهادهم على أنفسهم إشهاداً وكشفاً ذاتياً عن حقيقة أنفسهم وهي ليست إلّا باطلة الذات في نفسها وقائمة الذات بالحق ولهذا أردف سبحانه قوله : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ بقوله : ﴿ ألست بربكم ﴾ فوضع سبحانه كلمة الرب وهو المالك المدبر ولم يقل : قال ألست بربكم لأن الكلامين أعني قوله : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ وقوله : ﴿ ألست بربكم ﴾ بمعنى واحد بالمعنى الذي ذكر فعاد معنى الآيات والله العالم إلى أن هناك موطناً غير موطن الدنيا فرق فيها بين أشخاص الإنسان وكثرهم بعد جمعهم ووحدتهم وعرفهم وأراهم نفسه بتعريفهم وإراءتهم أنفسهم فشهدوا واعترفوا بربوبيته ولولا ذلك لشملتهم الغفلة في هذه الدنيا ولم يوحّدوه في هذه الدنيا فافهم .

لأن من أسلم ووحد في ذلك الموطن لا سبيل له إلى الشرك ومن أشرك هناك لم يجد بدّاً إلّا أن يشرك في هذه الدنيا كما يشير إليه سبحانه بقوله تعالى[1]: وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الآية ، وما بعد هذه الآيات ﴿ وإذ أخذ ... ﴾ إلخ إلى ستة آيات في سياق ما مرّ من المعنى وسادستها قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ الآية .

---

(١) وذلك انّ هذا التركيب لا يفيد مجرد النفي بل يفيد معنى الإنتظار والترقب في قولنا : نصحت لفلان ينتهي عن الملاهي وما كان ليقبل نصيحتي وقد اعتاد بها فما تمحله صاحب الكشاف من أن المعنى . فما كانوا ليؤمنوا بعد مجيء الرسل بما كذبوا به من قبل على أنّه يوجب تجوزاً اخر في قوله : كذبوا في غير محلّه منه .

وفي آخر الآية عطف إلى أول الآيات وتحديد للغفلة بأنها إنما يكون وتتحقق في تفقهات القلوب ومبصرات العيون ومسموعات الآذان وأما شهادة النفس لنفسها ولربها فلا يحتجب بحجاب .

ثم إن في الآيات ﴿ وإذا أخذ . . ﴾ إلخ إشارة كما علمت إلى أن هذا الموطن وإن أوجب منهم شهادة بالربوبية لكنّه لم يخل مع ذلك عن موحد ومشرك فقد إنشعب عن هناك توحيد وشرك وفي تعبيره عن المشركين بالمبطلين في آخر الآيات إشارة إلى وجه إنشعابهما فالابطال مع شهادة نفوسهم هو الموجب لشركهم مع توحيدهم[1] ولذلك لعله سبحانه عبر عن هذين الأمرين بالطوع والكره في قوله سبحانه : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ثم إستوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضيهن سبع سموات ﴾ الآية .

وهذا الأخذ والإشهاد هو الذي يعبر عنه سبحانه بالميثاق في قوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم

---

(١) ويستفاد هذا من قوله تعالى : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولا ﴾ الآية ، ذكر سبحانه انّ الإنسان حمل أمانة لم تتحملها السموات وغيرها وذلك انّه كان ظلوماً جهولا ، ثم ذكر غاية هذا العرض والحمل بقوله سبحانه : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ الآية ، قسّم تعالى الإنسان في غاية هذا العرض إلى قسمين المنافق والمؤمن إشعاراً بأن لا كافر هناك لعموم الحمل فلا رد وهو الميثاق ، وقوله : ﴿ ويتوب الله . . . ﴾ الخ ، دليل على أن السعادة من الله والتوبة منه ، وقوله : ﴿ وكان الله . . . ﴾ الخ ، في مقام تعليل العرض وإن المقتضى له صفة الغفران والرحمة وإنّما صفة التعذيب والإنتقام ونحوهما فبعرض المغفرة والرحمة الخاصة إذ ظهور النجاة في العالم يستدعي وجود هالكين ومستحقين فيهم النجاة كما لا يخفى وإذا تدبّرت في هذه الآية وجدتها من آيات الشفاعة والله الهادي .

وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ الآية فذيل الآية يفيد ان أخذ الميثاق[1] ليطلب الصدق عن الصادقين فموطنه الدنيا دون الآخرة فموطن الميثاق قبل الدنيا فافهم والآيات التي يستفاد منها هذا المعنى كثيرة وقد فسرتها بذلك روايات مستفيضة كثيرة أو فوق حد الإستفاضة .

وفي تفسير القمّي عن أبيه عن ابن أبي عمر عن عبدالله بن مسكان عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك ﴾ الآية قلت : معاينة كان هذا ؟ قال : نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه ولولا ذلك لم يدرِ أحد من خالقه ورازقه فمنهم من أقرّ بلسانه في الذر ولم يؤمن بقلبه فقال الله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الحديث .

أقول ومضمون هذه الرواية مروية في كتاب المحاسن والعلل والتوحيد وتفسير القمّي وتفسير العياشي وغيرها بطرق وأسانيد كثيرة جدّاً .

وفي العلل مسنداً عن حبيب عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله تعالى أخذ ميثاق العباد وهم أظلة قبل الميعاد فما تعارف من الأرواح إئتلف وما تناكر منها اختلف .

---

(١) ولو كان المراد بهذه الغاية يسأل هو السؤال يوم القيامة لكان المراد بالسؤال المحاسبة والحساب لكن المفهوم من هذا النظم والتركيب هو الطلب دون المحاسبة كما في نظائره ، يقال : سألت الغني عن غناه ، وسألت الجواد عن جوده ، وسألت الفقيه عن فقهه والشاعر عن شعره ، ونظائر ذلك . والمفهوم في كل ذلك هوالطلب دون الحساب ، نعم لو كان النظم مثل قولنا : يسأل الصادقين عن صدقهم فيما صرفوا مثل سألت الغني عن غناه فيما أنفق أفاد معنى الحساب والوجه ان فرض الصدق في المسؤول يجعل السؤال لغواً وركيكاً ويوضح لك ذلك أن ترجع إلى التفاسير وتشاهد تمحلات المفسرين في تفسير هذه الآية منه .

وفي تفسير العياشي مسنداً عن عبدالله الجعفي وفي العلل مسنداً عن عبدالله الجعفي وعقبة جميعاً عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله عزّ وجلّ خلق الخلق فخلق من أحب مما أحب وكان ما أحب أن خلقه من طينة الجنة وخلق من أبغض مما أبغض وكان مما أبغض أن خلقه من طينة النار ثم بعثهم في الظلال . قلت : وأي شيء الظلال ؟ فقال : ألم تر إلى ظلك في الشمس شيء وليس بشيء ثم بعث منهم النبيين فدعوهم إلى الإقرار بالله وهو قوله عزّ وجلّ : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ ثم دعوهم إلى الإقرار بالنبيين فأنكر بعض وأقرّ بعض ثم دعوهم إلى ولايتنا فأقرّ بها والله من أحب وأنكرها من أبغض وهو قوله تعالى : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الخبر .

وهو أيضاً مستفيض المعنى والأصول السابقة تكفي في تفسيره فلا نعيد .

تنبيه

حيث أن بين الحسنات بعضها مع بعض ترتباً وسببية يتفرع بذلك بعضها على بعض وكذلك بين السيئات والنوعان من الأعمال كلاهما ينتهيان إلى الذوات السعيدة والشقية بنفسها تعين هناك طريقان من الإستدلال على الجزاء والثواب والعقاب والطريقان معاً مستعملان في كلامه سبحانه كقوله تعالى : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرّتكم الحيوة الدنيا ﴾ الآية ، كما إن الطريقين بعينهما مستعملان في كلام العقلاء في تعليل الأفعال حسنها وقبيحها .

فصل ٧

قد عرفت أن النظام نظامان نظام ثابت غير متغير الأجزاء ونظام متبدل متغير الأجزاء وإن وجود أحد النظامين لا يبطل وجود الآخر ولا يزاحمه فارتفع توهم أن سبق القضاء والقدر ووجوب تحقق ما كتبه الله في اللوح المحفوظ المصون عن التغير والإمحاء ووجوب إنتهاء كل موجود إلى ما يقتضيه سعادته أو شقاوته الذاتيتان ينافي صحة التكليف وترتب الثواب والعقاب عليه إذ التكليف الحقيقي يحتاج إلى إختيار حقيقي يصح معه الفعل والترك جميعاً ومع وجوب وجود الحوادث التي يبتدىء منه سبحانه وينتهي إلى الفعل ومنها الفعل وهي سلسلة متصلة واحدة مترتبة الأجزاء واجب وجود جميعها لا يبقى للإختيار أثر بصحة ترتب الفعل أو الترك عليه وإمكانهما بالنسبة إلى الفاعل لوجوب وجود أحد الجانبين بالضرورة فلابد من إختيار أحد الأمرين ونفي الآخر .

أحدهما بطلان القدر وهو تأثير سابق للحق في الأفعال وإنما يسبق الفعل منه سبحانه علم غير مؤثر فيها فالأفعال مخلوقة للعباد وإن كانت الأسباب والقوى التي تولدها مخلوقة له سبحانه وهو المصطلح عليه بالتفويض وعليه جماعة المعتزلة .

وثانيهما الإلتزام بالقدر والقول ببطلان تأثير الإختيار ولغوية التكليف الحقيقي ومن لوازمه تصحيح التكليف بما لا يطاق والجبر في الأفعال ونفي الحسن والقبح العقليين ونفي الأغراض والغايات وأمثال ذلك وهذا هو المصطلح عليه بالجبر وعليه المجبّرة هذا وقد عرفت أن لا منافاة بين المرحلتين وإن القدر لا يزاحم الإختيار فلكلّ وعاء .

وهؤلاء لم يستطيعوا أن يجمعوا بين المعارف الإلهية الحقيقية وبين ما تقتضيه الأسباب الطبيعية المادية مع أن مصحح التكليف عند العقلاء من البشر هو وجود الأختيار والقدرة الفاعلية التي لا ريب فيه عندهم للفرق الضروري بين حركة الصحيح وحركة المرتعش وبين سكون الصحيح الأعضاء وسكون الفالج ومع ذلك لاريب عندهم أن جميع الأسباب المتوقفة عليها وجود الفعل إذا تمّت كان الفعل ضروري الوقوع .

وقد تبين فيما مرّ أن النظام نظامان نظام ثابت ذو أجزاء ثابتة لا يتطرق إليها التغير بوجه ما ونظام مادي متقوم بالإمكان والقوة والإستعداد متغير متبدل غير ثابت والإنسان من جملة أجزائه ونسبته إلى أفعاله بصحة الفعل والترك وهو الإختيار يختارها بالحسن والقبح والغايات والأغراض وتحتاج أفعاله في تحققها إلى ذلك وهو ظاهر كما أن المواد باستعدادها يمكن أن تصير إلى هذه الغاية أو إلى تلك الغاية وإنما يتعين فيها وفا إحدى الغايتين بواسطة إكتناف نوع الإستعدادات الملائمة لتلك الغاية وإبطالها استعدادات الغاية الأخرى وربما تم أحد الجانبين فزاحمه جانب اخر بتضاده وأبطله بقوته ولا فرق بين الإنسان وبينها إلّا بالعلم فاختيار الإنسان لأحد الجانبين بعد تمام سائر الأسباب بالعلم وتعين أحد الجانبين فيها بغيره من المقتضيات المعينة والعلم من حيث هو ذو هذا الأثر أحد تلك المقتضيات وأي فرق بين مبدأ الإحراق الذي في النار وبين مبدأ الفعل الذي في الإنسان وهو الإرادة التامة وأي فرق بين الحطب الذي يحرق بعد إشتعاله بالنار مثلاً وبين الإنسان الذي يضحك بالإرادة ومع ذلك لا يبطل نسبة الإنسان إلى الفعل والترك بإمكانهما له وصحتهما وهو الملاك في صحة التكليف وترتب الجزاء بالثواب

والعقاب وهذا في غاية الوضوح ولهذا لم نطيل في هذا الباب أكثر من هذا المقدار .

واعلم أن هناك نظراً آخر يرتفع به موضوع هذه الأبحاث والمشاجرات وهو نظر التوحيد الذي مرّ في هذه الرسائل فالأفعال كلّها له كما أن الأسماء والذوات له سبحانه فلا فعل يملكه فاعل غيره سبحانه حتى يتحقق موضوع لجبر أو تفويض فافهم .

فصل ٨

والنقل أيضاً يدل على ما مرّ فقد روي عنهم (عَلَيْهِم السّلام) : لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين . وهذا اللفظ وارد عنهم على حد الإستفاضة بطرق كثيرة .

وفي التوحيد مسنداً عن يونس عن غير واحد عن أبي جعفر وأبي عبدالله (عَلَيْهِما السّلام) قالا : إن الله عزّ وجلّ أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون . قال : فسئلا (عَلَيْهِما السّلام) : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة ؟ قالا : نعم أوسع مما بين السماء والأرض .

وفي التوحيد مسنداً عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : الله أكرم من أن يكلف الناس مالا يطيقون والله أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد . الخبر ومثله ما ورد عنهم (عَلَيْهِم السّلام) : مساكين القدرية أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه .

وفي الطرائف : إن رجلاً سأل جعفر بن محمد الصادق (عَلَيْهِ السّلام) عن القضاء والقدر ، فقال : ما استطعت أن تلوم العبد

عليه فهو فعل العبد وما لم تستطع أن تلوم العبد عليه فهو من فعل الله يقول الله للعبد لم عصيت لم فسقت لم شربت الخمر لم زنيت فهذا فعل العبد ولا يقول له لم مرضت لم قصرت لم أبيضضت لم اسوددت لأنه من فعل الله تعالى .

وفي الطرائف أيضاً : روي أن الفضل بن سهل سأل الرضا (عَلَيْهِ السّلام) بين يدي المأمون فقال : يا أبا الحسن الخلق مجبورون ؟ فقال : الله أعدل من أي يجبر خلقه ثم يعذبهم . قال : فمطلقون ؟ قال : الله أحكم من أن يهمل عبده ويكله إلى نفسه . الخبر .

والأخبار في هذا الباب متواترة في المعنى وهي على كثرتها ترجع إلى نوع البيانات التي أوردنا هذه الإنموذجات منها وأنت تشاهد منها إنهم (عَلَيْهِم السّلام) أوردوا فيها طريقين من البيان والإستدلال : أحدهما الإستدلال بإقتضاء الأسماء الإلهية وصفاته كالرحمة والعزة والكرامة والعدل والقهر وكذلك بالقضاء والقدر .

وثانيهما الإستدلال بما يقتضيه العقل وسيرة العقلاء من الحسن والقبح وغير ذلك وفي بعض الأخبار سكتوا عن البيان ففي التوحيد مسنداً عن مهزم قال : قال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : إخبرني عمّا اختلف فيه من خلفت من موالينا قال : فقلت : في الجبر والتفويض . قال : فاسألني . قلت : أجبر الله العباد على المعاصي ؟ قال : الله أقهر لهم من ذلك ؟ قال : قلت : ففوض إليهم ؟ قال : الله أقدر عليهم من ذلك . قلت : فأي شيء هذا أصلحك الله ؟ قال : فقلب يده مرتين أو ثلاثاً ثم قال : لو أجبتك فيه لكفرت . الخبر . وذلك منه (عَلَيْهِ السّلام) إرفاقاً بحال الراوي والله المعين .

فصل ٩

وأمّا سائر الأفعال التي نسبها الحق سبحانه إلى نفسه من المشيئة والإرادة والهداية والضلال والتمحيص والإستدراج والغضب والأسف ونحو ذلك فقد إتضح تضاعيف ما مرّ سنخ الكلام فيها وفي تفسيرها فهذه أفعال منتزعة من أنحاء وجودات الموجوات التي هي أفعاله وإفاضاته سبحانه فالموجود الصادر منه سبحانه حيث إنّه غير صادر بالإضطرار والجهل والغفلة تعالى عن ذلك ينتزع منه أن هناك مشيئة وإرادة له سبحانه وهو مشيء وجوده ومراد خلقه .

والأمور التي يتفرع عليها إهتداء جمع إلى صراط السعادة ينتزع منها هدايته سبحانه أو ضلال آخرين عن الصراط ينتزع منها الإضلال لكن بمعنى لا يوجب عليه سبحانه النقص ووجود الأمر بعد الأمر بحيث يلائم اللاحق السابق ويكمل السابق باللاحق ينتزع منه التوفيق أو بخلافه بحيث يعقم اللاحق أثراً يتوقع من السابق ينتزع منه الخذلان وإيجاد الشيء أو إبقائه بحيث يلائم السعادة وينتجها ينتزع منه البركة .

والأمور التي توجب تميز الشقي عن السعيد والخبيث عن الطيب ينتزع منها التمحيص والإمتحان ونحوهما لكن لا بمعنى يوجب عليه سبحانه الجهل بل بمعنى إتمام الحجة وإعلام الحكمة والأمور التي يوجب تشدد شقاوة الشقي وتكاملها من أنحاء النعمة بعد المعصية ينتزع منها الإستدراج والكيد ونحوهما والبلايا التي تستتبعها المعاصي ينتزع منها الغضب والإصرار على الذنب والطغيان ينتزع عن موردها الأسف وفي كل ذلك إنما يعتبر المعنى خالياً عن جهات النقص وقد ذكرنا في رسالة الأسماء الحسنى أن لإفعاله سبحانه

إنسلاكاً ما في سلك صفاته الذاتية بنظر آخر برهاني غير هذا النظر .

فصل ١٠

وأمّا الآيات والأخبار الواردة في هذه المعاني فهي أكثر من أن تحصى .

أما المشيئة فهناك آيات كثيرة في أن مشيئته سبحانه هي الغالبة على مشيئة غيره بل ان مشيئتهم فرع مشيئته :

قال تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله ﴾ وفي التوحيد مسنداً عن أبي سعيد القماط قال : قال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : خلق الله المشيئة قبل الأشياء ثم خلق الأشياء بالمشيئة .

وفيه أيضاً مسنداً عن أبي أذينة عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : خلق الله المشيئة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيئة .

وفيه أيضاً مسنداً عن محمد بن مسلم عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : المشيئة محدثة .

أقول : والروايات في حدوث المشيئة وإنّها من صفات الفعل كثيرة .

وأمّا الإرادة فكثيرة الورود في القرآن وظاهر آياته كونها من صفات الفعل قال : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك ﴾ وقال : ﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً ﴾ الآية وأمثال ذلك من الآيات .

وروى الصدوق في التوحيد والعيون مسنداً عن صفوان قال : قلت لأبي الحسن (عَلَيْهِ السّلام) : أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق . فقال : الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل وأمّا من الله عزّ وجلّ فإرادته احداثه لا غير ، ذلك لأنه لا

يروى ولا يهم ولا يتفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك يقول له كن فكيون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكر ولا كيف كما إنّه بلا كيف . الحديث .

أقول : والأخبار في كون الإرادة من صفات الفعل مستفيضة أو متواترة .

وأما الكلام والكلمة فهي المعنى التام من حيث يدل عليه باللفظ أو غيره من أسباب الإفهام كما عرفت ولذلك ورد في القرآن بوجوه مختلفة ، قال تعالى : ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾ وقال تعالى : ﴿ وتكلّمنا أيديهم وأرجلهم ﴾ الآية وقال : ﴿ وكذلك حقّت كلمة ربّك على الذين كفروا أنّهم أصحاب النار ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وجملة الأمر أن الوجود المفاض من الحق سبحانه حيث ينبىء عن خصوصيات صفات الحق المتوسطة في إفاضته أو عن الغاية التي أرادها الحق سبحانه من إيجاده فهو دال على المقصود وما في الضمير فهو كلمة دالة أو كلام وحديث وقول ونحو ذلك وهو ظاهر فكلمة الله وكلامه هو الفعل والإيجاد لا غير وهو الوجود .

وفي أمالي الشيخ مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) أبي بصير : قال سألت أبا عبدالله جعفر بن محمد (عَلَيْهِ السّلام) لم يزل الله جلّ اسمه عالماً بذاته ولا معلوم ولم يزل قادراً بذاته ولا مقدور . قلت له : جعلت فداك فلم يزل متكلماً ؟ قال : الكلام محدث كان الله وليس يتكلم ثم أحدث الكلام . الحديث وقد روي هذا المعنى في روايات أخر أيضاً .

وبالجملة فالأحاديث على كثرتها مصرّة في كون الإرادة والكلام

من أسماء الأفعال ونفي كونها من أسماء الذات وهذه الأحاديث وإن كانت لا تنفي إمكان تصحيح معنى للإرادة والكلام يوجب رجوعها إلى الصفات الذاتية كما اهتم به صدر المتألهين (قدّس سرّه) وأقام البرهان على أن ما تصوره من معنى حقيقة الإرادة والكلام من صفات الذات .

لكن الإنصاف أن ما أقامه من البرهان في مورد هاتين الصفتين الفعليتين جار في بقية الصفات الفعلية فلا وجه لتخصيص الكلام بالإرادة والكلام بخصوصهما .

وقد مرّ في الفصول السابقة أن الصفات الفعلية يمكن أن تلاحظ بلحاظ يوجب حلولها محل الصفات الذاتية بوجه .

وأما الرضا والغضب ونحو ذلك ففي التوحيد والأمالي مسنداً عن محمد بن عمارة عن أبيه قال : سألت الصادق جعفر بن محمد (عَلَيْهِ السّلام) فقلت له : يا بن رسول الله أخبرني عن الله هل له رضى وسخط ؟ فقال : نعم وليس ذلك على حد ما يوجد في المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه . الخبر ومعناه مروي مستفيضاً .

وأما الهداية والإضلال ففي المحاسن عن عبدالله عن هشام عن سليمان قال : قال لي أبو عبدالله : يا سليمان إن لك قلباً ومسامع وإن الله إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ .

وأمّا الاخلاء والاستدراج ففي الكافي مسنداً عن سماعة قال : سألت : أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : هو

العبد يذنب الذنب فيجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الإستغفار من ذلك الذنب . الخبر وهو مستفيض والأحاديث في صفات الفعل كثيرة جدّاً اقتصرنا على هذا المقدار منها إيثاراً للإختصار وجرياً على نحو الفصول السابقة .

تتمة :

روي في التوحيد والمعاني عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ فلمّا آسفونا انتقمنا منهم ﴾ قال : إن الله عزّ وجلّ لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه ولذلك صاروا كذلك وليس إن ذلك يصل إلى الله عزّ وجلّ كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، وقال أيضاً : من أعان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها ، وقال أيضاً : من يطعِ الرسول فقد أطاع الله ، وقال أيضاً : إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك وهكذا الرضا والغضب وغير هذا من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر .

وهو من جوامع الأخبار يفيد ضابطاً كليّاً في نوع آخر من أفعال الله سبحانه وهو إن كل فعل من كل فاعل إذا لم يلاحظ فاعله لفناء فعله في فعله سبحانه كأفعال الأنبياء والأولياء المخلصين وكذا إذا فنى عن بصر الإنسان فاعل فعل ولم يبق لفعله إلّا الله سبحانه كما في قضية موسى (عَلَيْهِ السّلام) مع شجرة الطور وبالجملة كل فعل لا فاعل له فهو فعل الله سبحانه وهذا هو الذي يستنتج من الأصول

السابقة في أول الرسالة وينحل به كثير من أمهات الإشكالات وفروعها والله الهادي .

تمّ الكلام والحمد لله ربّ العالمين والصلاة على محمد
وآله الطاهرين في العشر الأخير من شهر المحرم
سنة ١٣٦١ هجرية قمرية وتمّت الكتابة
في قرية شاذ آباد من أعمال تبريز

رسالة الوسائط

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الوسائط

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيّما محمد وآله الطاهرين .

هذا ملخّص الكلام في الوسائط الموجودة بين الله سبحانه وبين نشأة الطبيعة التي أوجدها الله سبحانه واحدة بعد واحدة على ما يتحصل بالبرهان ويؤيده الكشف ويفهم من ظواهر التعاليم الدينية من الكتاب والسنة والله المعين .

فصل ١

قد ثبت في رسالة التوحيد إن الموجودات الخارجية الإمكانية جميعاً معاليل ومظاهر للوجود الواجبي الذي هو حقيقة صرفة فهي جميعاً قائمة به فهي موجودة في مرتبة صرافته بنحو أعلى وأشرف من غير شائبة من النقائص والإعدام وإذ كانت الحقيقة صرفة فهذه الوجودات أسماء لها متميزة مفهوماً واحدة مصداقاً وهذه هي الأسماء

والصفات وثبت إن الأسماء والصفات مباد في ثبوت الموجودات على جهاتها المختلفة وحيثياتها المتشتتة .

هذا بالنسبة إلى نسبة الأسماء مع ما دونها وفي مرتبتها أيضاً ترتب ما على نسب المفاهيم إذ من الضروري أن الخلق مثلاً فرع القدرة والقدرة فرع العلم والحياة وهكذا ومن حيث أن الوجود الصرف الغير المحدود من جميع الجهات يرتفع عنه الصفات في حد نفسه وجوداً وعدماً على ما تبين في رسالة التوحيد والإتصاف تعين ما فهذا المعنى أسبق بالنسبة إلى سائر التعينات .

فتحقق به أن أقدم التعينات أعني الأسماء هو التعين بعدم التعين وهو مقام الأحدية باصطلاح العرفاء ويليه بقية التعينات .

وتحقق أيضاً أن لا فرق في ذلك بين الأسماء الذاتية والأسماء الفعلية التي تنتزع عن مقام الفعل وإن كان بين القسمين فرق في أن الإسم الذاتي موجود في مقام الذات قولاً مطلقاً والإسم الفعلي موجود على نحو وجود ما انتزع عنه فليفهم .

ثم نقول إن كل موجود من الجواهر الطبيعية طبيعة ذات أفعال جزئية مستندة إلى صورتها النوعية وإنفعالات جزئية مستندة إلى مادتها على ما برهن عليه في الأمور العامة كالإنسان الفرد الموجود خارجاً مثلاً ذا أفعال إنسانية وإنفعالات مادية بدنية .

فمن الضروري إن الإنسان وهو المطلق لا بقيد الإطلاق موجود في الإنسان الفرد وهو طبيعة إذا لوحظت في نفسها كانت كلية مرسلة تصدق على كل إنسان فرد مفروض نسبتها إلى جميع الأفعال والإنفعالات الإنسانية على السواء .

ومن الضروري أيضاً أن الإنسان ذا الأفعال الإنسانية موجود

في الإنسان الفرد وهي طبيعة إذا لوحظت كذلك لم تعرضها الكلية بل الجزئية لكنها خالية عن المادة وإنفعالاتها غير أن معها الأفعال الموجودة في الإنسان الفرد المادي .

فإذا فرضنا موجوداً جوهرياً مادياً طبيعياً تحقق هناك جهات ثلاث الوجود الجوهري مجرداً عن التقيد بالمادة والأحكام التي عند المادة والوجود الجوهري مجرداً عن المادة دون الأحكام التي عند المادة والوجود الجوهري المادي وهذه الثلاث هي التي تسميها الحكماء بالوجود والوجود المثالي والوجود المادي .

ثم إن من الضروري أن في مرتبة الوجود المثالي من الإنسان مثلاً جواز الإتصاف بالأفعال الصادرة عنه في مرتبة الوجود المادي وإلاّ امتنع الإتصاف بها هناك فلتلك المرتبة نسبة ما مع تلك الأفعال وحيث إن المأخوذ هو الوجود ووجود النسبة والنسبة غير مستقلة بذاتها لا تتحقق إلاّ بتحقق الطرفين فلتلك الأفعال وجود ما في مرتبة الوجود المثالي كالعكس وحيث إن لمرتبة الوجود المثالي تقدمّاً في نفسه على مرتبة الأفعال بالضرورة فبينهما تقدماً وتأخراً بالوجود فبين الوجود المثالي ومرتبة الأفعال ترتباً بحسب المرتبة وعلّية ومعلولية وظاهرية ومظهرية فهما مرتبتان من مراتب ظهور الوجود .

وبمثل البيان يظهر إن مثل هذه النسبة بعينها موجودة بين الوجود المجرد والوجود المثالي .

هذا كلّه في الأمور الموجودة في مرتبة الطبيعة المختصة بكل نوع ومثل الكلام يجري في الأمور الموجودة في أزيد من نوع أو في جميع الأنواع والموجودات الطبيعية فظهر أن فوق مرتبة الطبيعة مرتبتين آخريين مرتبة التجرد ومرتبة المثال .

فظهر من جميع ما مرّ إن في الوجود أربعة عوالم كلية مترتبة بحسب قوة الوجود كل على طبق الآخر :

الأول عالم الأسماء والصفات ويسمى عالم اللاهوت .

الثاني عالم التجرد التام ويسمى عالم العقل والروح والجبروت .

الثالث عالم المثال ويسمى بعالم الخيال والمثل والمعلقة والبرزخ والملكوت .

الرابع عالم الطبيعة ويسمى بعالم الناسوت وغير ذلك هذا وقد أقيم في العلم الإلهي براهين كثيرة على ما مرّ عموماً وخصوصاً وفيما أقمناه من البرهان كفاية للمتأمل إن شاء الله .

فصل ٢

أما ما سمعت من كون الأسماء الأهية وسائط في تنزل الوجود فمن الثابت في الكتاب والسنة فإنّك إذا تأملت وتدبرت الكتاب الإلهي وجدت إن الله سبحانه في آيات التوحيد يعلل أسمائه الخاصة بأسمائه العامة كما في سورة الرعد والحديد والحشر وغيرها وآية السخرة ﴿ إنّ ربكم الله ﴾ ، وآية الكرسي ، وأيات في القرآن كثيرة ووجدت أنّه سبحانه عند بيان الخلق والقيمومة وسائر أنحاء الإفاضة جميعاً وكذا في مرحلة العود كالموت والبرزخ والحشر وغير ذلك يعلل ذلك كلّه بأسماء مناسبة في المفهوم ولعلك تظفر بذلك في أزيد من خمسمائة آية حتى إن ذلك موجود في مرحلة الإعتبار كالتكليف .

وإذا تأملت في روابط الأسماء وما دونها اهتديت بخصوصيات الأسماء على كثير من شؤون التنزلات وكذا العكس فتظفر بعلوم لا

تقدر قدرها إن كنت ممن أتاك الله كفلين من رحمته وجعل لك نوراً تمشي به .

وهذا أعني علم الأسماء من مختصات هذا الكتاب الألهي ولم نظفر فيما ينقل إلينا من الكتب السماوية على شيء من ذلك .

وكذلك السنة فإن الأدعية المأثورة عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) وأهل بيته (عَلَيْهِم السّلام) على كثرتها مملوّة بالأسماء والصفات وقليل من الأدعية المفصلة لا يوجد فيه « اللّهم إنّي أسألك باسمك الذي فعلت به كذا وأسألك بمجدك الذي فعلت به كذا وبنور وجهك الذي أضاء له كلّ شيء وبأسمائك التي ملأت أركان كلّ شيء » وأمثال ذلك .

وكذلك الأسئلة بالأسماء المناسبة كالرازق في طلب الرزق والغفور في طلب المغفرة ونحو ذلك .

بل هذا المعنى كالمفطور للإنسان فلست ترى إنساناً يسأل الشفاء فيدعو فيقول : يا مميت يا منتقم أشفِ هذا المريض ، بل إنّما يقول : يا رحمن يا رحيم يا رؤوف يا شافي يا معافي ، وما يناسب ذلك وإذا تتبعت مواردها متأملاً وجدت إن هذا المعنى على بهائه وسنائه من ضروريات هذا الدين المقدس غير إن الإشتغال عما يعني بما لا يعنى ربما صرف الناس عن التحقق به والغور في مزاياه .

ومن جوامع الأخبار في ذلك ما في الكافي والتوحيد مسنداً عن إبراهيم بن عمر عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف غير متصوت وباللفظ غير منطق وبالشخص غير مجسد وبالتشبيه غير موصوف وباللون غير مصبوغ منفي عنه الأقطار مبعد عنه الحدود محجوب عنه حسّ كل متوهم

مستتر غير مستور فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معاً ليس منها واحد قبل الآخر فأظهر منها ثلاثة أشياء لفاقة الخلق إليها وحجب واحداً منها وهو الإسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت فالظاهر هو الله وتبارك وسبحان وسخر لكل اسم من هذه أربعة أركان فذلك اثنا عشر ركنا ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسماً فعلاً منسوباً إليها فهو الرحمن الرحيم الملك القدوس الخالق البارىء المصور الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم العليم الخبير السميع البصير العزيز الجبار المتكبر العلي العظيم المقتدر القادر السلام المؤمن المهيمن الباري المنشىء البديع الرفيع الجليل الكريم الرازق المحيي المميت الباعث الوارث فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاثمائة وستين إسماً فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحجب للإسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ قل ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وهذا الخبر الشريف صريح في أن المراد بالإسم المخلوق غير اللفظ وأنّه مجرد لا جسماني ولا مثالي .

ويظهر منه أن المراد بالإسم الواحد المخزون هو مقام الأحدية إذ هو المحجوب بهذه الأسماء الثلاثة التي هي الله وتبارك وسبحان وهي الهوية والجمال والجلال إذ الخلق محتاجون في تحقق أعيانهم ولوازمها إلى هذه الجهات الثلاث من الهوية وصفات الثبوت وصفات السلب وأما إذا لوحظ الخلق بالنسبة إلى مقام الأحدية ففيه ارتفاع موضوعهم كما لا يخفى .

ثم انظر إلى قوله (عَلَيْهِ السّلام) : ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسماً فعلاً منسوباً إليها أي إلى الأسماء حيث ذكر إن الخلق للّه

وللفعل نسبة إليها وهذه هي الوساطة والظهور .

وقال في آخر الخبر : « فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة » وهذا هو الترتب والوساطة بين الأسماء أنفسها .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : فاظهر منها ثلاثة أشياء لفاقة الخلق إليها إشارة إلى وساطة الأسماء بالنسبة إلى ما دونها .

ومن ذلك ما في التوحيد مسنداً عن عبدالملك بن عنترة الشيباني قال : جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر فقال : بحر عميق فلا تلجه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، فقال : طريق مظلم فلا تسلكه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر . قال : سرّ الله فلا تتكلفه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، فقال : فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : أما إذا أبيت فإنّي سائلك ، أخبرني أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله ؟ قال : فقال له الرجل : بل كانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد . فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : قوموا فسلّموا على أخيكم فقد أسلم وقد كان كافراً . قال : وانطلق الرجل غير بعيد ثم انصرف إليه فقال له : يا أمير المؤمنين أبالمشيئة الأولى نقوم ونقعد ونقبض ونبسط ؟ فقال له أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : وإنك لبعد في المشيئة ، أما إنّي سائلك عن ثلاث لا يجعل الله لك في شيء منها مخرجاً أخبرني أخلق الله العباد كما شاء أو كما شاؤوا ؟ فقال : كما شاء ، قال : فخلق الله العباد لما شاء أو لما شاؤوا ؟ فقال : لما شاء . قال : يأتونه يوم القيامة كما شاء أو كما شاؤوا ؟ قال : يأتونه كما شاء ، قال : قم فليس إليك من المشية شيء . الخبر .

فقد أثبت صلوات الله عليه القدر وهو تأثير ما للحق سبحانه في نظام الموجودات بسبق الرحمة على الأعمال أي تقدم الصفة على النظام فلخصوصيات الصفات اقتضاءات في خصوصيات النظام ولولا ذلك لكانت الصفات متأخرة عن الموجودات وباقتضائها فيكون الموجود الخارجي سابقاً على الصفة الإلهية .

ثم أكد (عَلَيْهِ السّلام) هذا المعنى وشيّده في آخر الخبر بأن المشيئة الالهية غالبة على كل حال وغايته حاصلة على أي تقدير وإن الإرادة لا تتخلف عن المراد والمغيا واقع على طبق الغاية لا محالة .

وهذا أعني عدم التخلف إنّما هو في الروابط العامة الإلهية وأما الخاصة كالرحمة الخاصة والرزق الخاص ونحو ذلك فربما تتخلف إذا نسبت إلى كل الموجودات فافهم .

وإلى هذا يمكن أن يشير ما في علل الشرائع مسنداً عن جميل عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن قول الله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ قال : خلقهم للعبادة ، قلت : خاصة أم عامة ؟ قال : لا بل عامة . الخبر .

واعلم ان اخر الخبر الشريف من شواهد ما مرّ في آخر الفصل السابق أن صفات الفعل متقدمة على الموجودات لها وجود ما في مرتبة الأسماء الذاتية وإلاّ لم يكن الإتصاف بالحقيقة على ما لا يخفى .

هذا إجمال ما يدل على وساطة الأسماء والصفات بينه تعالى وبين الموجودات والأخبار فيه كثيرة .

وأما ما يدل على وجود العالمين المتوسطين أعني عالم التجرد التام وعالم المثال فأشياء كثيرة من الكتاب والسنة غير أن مورد كثير منها العود أعني أخبار البرزخ وما بعده وهي من شواهد ما قصدنا اثباته باعتبار تطابق المبدأ والمعاد .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم ﴾ الآية تدل بعمومها على أن لجميع موجودات عالمنا هذا وجودات مخزونة عنده تعالى ذات سعة غير محدودة ولا مقدرة إذ ظاهرها أن التقدير إنما يحدث مع التنزيل وليس التنزيل بالتجافي وتخلية المحل بالنزول لقوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ الآية وهذه الآية إذا ضمت إلى قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلّا وجهه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام ﴾ . الآيات أفادت إن ما عند الله وجه له سبحانه ثم قوله تعالى : ﴿ وكلّ شيء عنده بمقدار ﴾ الآية تفيد أن لله سبحانه في كل شيء وجهاً .

وبعبارة أخرى إن في كلّ شيء وجهاً إلهياً ووجهاً كونياً خلقياً وهذا الوجه حيث أنه بمقدار فهو محدود مثالي وقد أفاد قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا ﴾ الاية وجهاً آخر غير محدود ولا مقدر .

فتبين إن لعالمنا هذا وجهاً إلهياً مقداراً باقياً قبله وهو عالم المثال ووجهاً إليهاً مجرداً عن المقادير باقياً وهو عالم العقل والتجرد .

وإن العوالم الثلاث متطابقة غير متفاوتة إلّا بالشرف والخسة قال تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ . الآية .

وتبين أيضاً أن الخلقة بنحو التنزل من غير تجاف ويؤيد هذه المعاني آيات كثيرة في القرآن الكريم .

ومما يدل على ذلك جملة أخبار الطينة وأخبار السعادة والشقاوة وأخبار الذر والميثاق وأخبار جنة ادم (عَلَيْهِ السّلام) .

ففي البحار نقلاً عن كتاب تأويل الآيات الطاهرة مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) قال : قال أمير المؤمنين

(عَلَيْهِ السّلام) : إن الله تبارك وتعالى أحد واحد تفرد في وحدانيته ثم تكلم بكلمة فصارت نوراً ثم خلق من ذلك النور محمداً وخلقني وذريتي ثم تكلم بكلمة فصارت روحاً فأسكنه الله في ذلك النور وأسكنه في أبداننا فنحن روح الله وكلمته وبنا احتجب عن خلقه فما زلنا في ظلة خضراء حيث لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا عين تطرف نعبده ونقدّسه ونمجّده ونسبّحه قبل أن يخلق الخلق الخبر .

وهذا المعنى وهو سبق خلقهم (عَلَيْهِم السّلام) على كل خلق سابق ولاحق مستفيض أو متواتر في الأخبار ولا يتم معناها إلاّ مع التجرد التام ويؤيدها ويؤكدها أخبار أُخر في الطينة وخلق الأرواح قبل الأجساد .

ومنها ما في العلل وتفسير العياشي مسنداً عن عبدالله الجعفي وعقبة جميعاً عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله عزّ وجلّ خلق الخلق فخلق من أحب مما أحب وكان ما أحب أن خلقه من طينة الجنة وخلق من أبغض مما أبغض وكان مما أبغض أن خلقه من طينة النار ثم بعثهم في الظلال ، قلت : وأي شيء الظلال ؟ فقال : ألم ترَ إلى ظلك في الشمس شيء وليس شيء ثم بعث منهم النبيين فدعوهم إلى الإقرار بالله وهو قوله عزّ وجلّ : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ ثم دعوهم إلى الإقرار بالنبيين فأنكر بعض وأقرّ بعض ثم دعوهم إلى ولايتنا فأقر بها والله من أحب وأنكرها من أبغض وهو قوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الحديث .

وما في تفسير القمّي مسنداً عن ابن مسكان عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى ﴾

قلت : معاينة كان هذا ؟ قال : نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه ولولا ذلك لم يدرِ أحد من خالقه ورازقه فمنهم من أقرّ بلسانه ولم يؤمن بقلبه فقال الله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ .

ونحوه في تفسير العياشي عن زرارة قال : سألت أبا جعفر (عَلَيْهِ السّلام) عن قول الله : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم . . . إلى أنفسهم ﴾ ؟ قال : أخرج الله من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم نفسه وأراهم نفسه ولولا ذلك ما عرف أحد ربّه وهو قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ الحديث .

وهذا المعنى مروي في المحاسن وكتب الصدوق وغيرها ومن الضروري بعد تسلم الأخبار أن هذا الموقف لم يكن في نشأة العلم الربوبي بل بعد ثبوت الخلق وأنه كان قبل نشأة الطبيعة إذ نشأة كل واحد منّا الطبيعية مشاهدة بالعيان معلومة وقد صرح عزّ وجلّ في الآية بأن هذا البعث والأخذ متعلق بظهور بني آدم لا آدم فقط ويشهد لذلك تفسيره (عَلَيْهِ السّلام) الظلال بما عرفت مع إثباته المعاينة ومن المعلوم أن المعاينة لا تحقق إلّا مع الإنقطاع عمّا سواه وهذا في غير نشأة الطبيعة لبني آدم .

وكذا استشهاده (عَلَيْهِ السّلام) في خبر زرارة بقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات ﴾ الآية المشعر برؤيتهم ملكوت السموات والأرض وكذا تفسير آية : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ الآية في رواية ابن مسكان هذا وأنت ترى أنّه أثبت في الروايات في هذا الموقف إقرار وإنكار وخير ما وشرّ ما وعالم التجرد التام والنور البحت لا شرّ فيه في جانب النزول البتة فهذا الموقف بعد عالم التجرد وقد

ثبت أنّه قبل نشأة الطبيعة فتعين أنّه عالم المثال فليتأمل .

ومنها ما في تفسير القمّي في جنّة آدم أنّها كانت من جنان الدنيا التي تنتقل إليها أرواح المؤمنين بعد موتهم. الخبر. وما في أخبار أُخر من تفسير الشجرة المنهي عنها آدم وأنّها كانت شجرة الولاية وغير ذلك .

فصل ٣

هو كالخاتمة لما مرّ قد ثبت في الكتاب والسنة قبل نشأة الإنسان والطبيعة أمور أُخر وهي الحجابات والقلم واللوح والعرش والكرسي والسموات السبع والملائكة والشياطين والمطلوب بعد ما مرّ الكشف عن معانيها بحسب تفسير بعضها لبعض فنقول :

أما الكلام في الحجب والسرادقات فاعلم أن الأخبار تكاثرت فيها وفي القرآن الكريم أيضاً شيء كثير يستفاد منه ذلك ، قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴾ الآية يفيد أن الموجودات معلومة عنده غير غائبة عنه سبحانه فلا حجاب يحجب الحق عن معلوماته فالخلق غير محتجب عنه سبحانه بشيء وأما حجابه تعالى أي احتجابه عن خلقه فقد قال تعالى : ﴿ فلا تغرّنكم الحيوة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور ﴾ وحياة كل أحد في الدنيا وجوده الدنيوي بلواحقها وغرورها بجعلها الإنسان مشغولاً بنفسها وقد قال تعالى : ﴿ وما هذه الحيوة الدنيا إلّا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور ﴾ الآيات ، واللعب هو الإشتغال بفعل لغاية خيالية لا حقيقية له في الخارج ، واللهو ما يصرف عن غيره ويشغل اللاهي بنفسه ، فدل على أن الحياة الدنيوية وهو الوجود الدنيوي إنما

هو خيال يصرف الإنسان عن غيره وهو الحقيقة التي هي الحياة الأخروية وقد بين ذلك وأشير إليه في آيات كثيرة :

قال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفيه حسابه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدّاً من خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ الآية .

وأكثر المؤمنين وإن كانوا يشاركون كون هؤلاء في المحجوبية عنه تعالى إلّا أنّه تعالى وعدهم وعداً حسناً بكشف الحجاب بالستر على ذنوبهم فقال تعالى : ﴿ إنّما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشّره بمغفرة وأجر كريم إنا نحن نحيى الموتى ﴾ الآية.

فهذا هو الحجاب عن الله سبحانه وهو نفس وجود الإنسان وقد عمم حكم هذا الحجاب بالنسبة إلى سائر الأشياء في قوله سبحانه : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم للّه الواحد القهار ﴾ الآية فصدر الآية وإن كان في الناس حيث حكم بالبروز في هذا اليوم لله وهم بارزون دائماً وليس ذلك إلّا بظهور الأمر لهم بارتفاع الوسائط بعد خفائه قبل هذا اليوم كما حكى سبحانه ذلك عنهم بقوله : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربّهم ربّنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ الآية إلّا أن ذيل الآية لمن الملك تعميم لجميع الخلق كقوله تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ وقوله : ﴿ ولله ما في السموات والأرض ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير

بجناحيه إلّا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ الآية .

وبالجملة فحكم الحشر جار على جميع الموجودات وعنده ارتفاع الحجاب وانتباه الجميع عن نومة الغفلة باثبات الملك لله وحده وقال تعالى : ﴿ أولم يكف بربك أنّه على كلّ شيء شهيد ألّا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكل شيء محيط ﴾ الآية ، فأثبت الحجاب مع الحكم بعدمه فقد تبين من جميع ذلك أن نفس وجود الخلق حجاب لهم عن الحق سبحانه فلا حجاب بينه وبينهم إلّا أنفسهم وهذا هو المتحصل عن الأخبار .

ففي الإرشاد والأحتجاج عن الشعبي عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في كلام له : أن الله أجلّ من أن يحجب بينه وبين خلقه ، الخطبة . وهذا يدل على أنّه سبحانه مشهود لكل موجود كما في قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفِ بربك أنّه على كلّ شيء شهيد ﴾ الآية .

وكما عن كتاب إثبات الوصية للمسعودي عن علي (عَلَيْهِ السّلام) في خطبة له : فسبحانك ملأت كل شيء وباينت كل شيء فأنت لا يفقدك شيء . الخطبة .

وكما في التوحيد مسنداً عن حماد بن عمرو النصيبي قال : سألت جعفر بن محمد (عَلَيْهِ السّلام) عن التوحيد فقال : واحد صمد أزلي صمدي لا ظلّ له يمسكه وهو يمسك الأشياء بأظلتها عارف بالمجهول معروف عند كل جاهل . الحديث .

ويظهر من هنا أن هذا الشهود يجامع الجهل أيضاً كمن يرى ولا يعرف .

ويدل عليه أيضاً ما في العلل مسنداً عن أبي حمزة الثمالي قال : قلت لعلي بن الحسين (عَلَيْهِ السّلام) لأي علّة حجب الله عزّ وجلّ

الخلق عن نفسه قال : لأن الله عزّ وجلّ بناهم بنية على الجهل . الحديث .

وهذا يدل زيادة على ما مرّ على أن هذا الجهل ذاتي أي ان العلم ليس إلّا له وبه سبحانه فافهم كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء ﴾ .

وقريب مما مرّ الأخبار المستفيضة كما في التوحيد مسنداً عن يعقوب بن جعفر الجعفري عن موسى بن جعفر (عَلَيْهِ السّلام) ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور لا إله إلّا هو الكبير المتعال الحديث ومثله عن النبي وعلي والرضا (عَلَيْهِم السّلام) .

ومن هنا يتبين أن الحاجب هو ذوات الأشياء بوجوداتها المستعارة وأن الذوات حاجبة غير حاجبة أي أن الشهود إنما يتحقق بالغفلة عن الذات .

ويظهر أيضاً إن كل حاجب للشيء عن الحق سبحانه فهو غير خارج عنه بل داخل في ذاته أي من مراتب وجوده .

وهذا هو الذي يدل عليه الخبر المشهور المروي عن طرق العامة إن لله تعالى سبعين ألف حجاب من نور أو ظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما دونه أو ما انتهى إليه بصره الحديث . إذ الإحتراق والإحراق هاهنا ليس من جنس إحراق النار واحتراق الحطب بتبديل الحطب بجنس النار والترميد وإنما هو إفناء الذات من حيث المشاهدة كما في خطبة الأشباح لعليّ (عَلَيْهِ السّلام) بعد بيان تسبيح الملائكة قال (عَلَيْهِ السّلام) : ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تروع الأبصار عن بلوغها فتقف خاسئة على حدودها . الخطبة .

وحيث أن هذا الإحتراق متعلق بذات الشيء فباحتراق مرتبة من مراتب الذات تفنى الذات ويبقى وجه ربّك ذي الجلال والإكرام .

وفي خبر المعراج المروي في الكافي وتفسير العياشي فيما سأله النبيّ ليلة المعراج جبرائيل عن البحار التي شاهدها فوق السماء السابعة فقال يعني جبرئيل : هي سرادقات الحجب التي احتجب الله تبارك وتعالى بها ولولا تلك الحجب لهتك نور العرش كلّ شيء . الخبر .

ويظهر من هنا من حيث نسبة الهتك إلى الأشياء وهو إنما يتحقق بالحجاب مثل قوله ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه أن ذات كل شيء من جملة الحجب .

ويظهر أيضاً أن بعض الموجودات ربما يحتجب عن بعض كالعرش بالبحار ويشهد له أيضاً ما في خطبته (عَلَيْهِ السّلام) لذعلب : حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه . الخطبة كما لا يخفى .

يظهر من خبر حدوث الأسماء المنقول سابقاً أن الإحتجاب موجود في مرحلة الأسماء والصفات أيضاً وأن بعض الأسماء يحتجب ببعض .

وفي التوحيد مسنداً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نورالحجاب ونور الحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر . الحديث . وفي هذه الرواية إشارة ما إلى التنزلّات أيضاً .

فظهر من جميع ما مرّ أن ذات كل شيء حجاب بالنسبة إلى

نفسه وكذا الموجودات بعضها بالنسبة إلى بعض إذا كان من مراتب الذات داخلة في الذات فكل مرتبة من الوجود أعني ظهوره حجاب بالنسبة إلى ما دونها وكذا نفس المرتبة بالنسبة إلى نفسها فالحجابات هي التعينات الوجودية فيتعدد الحجابات في كل شيء بعدد المراتب التي يتقدم بها ذاته هذا .

واعلم أن الأخبار مختلفة إختلافاً فاحشاً في تعداد الحجب وهذا هو الذي منعنا عن إيرادها واستقصاء ذكرهافي هذه الرسالة وان احتمل حملها على اختلاف اعتباراتها كما هو كثير في موارد الروايات ظاهر للمتتبع .

وأمّا الكلام في العرش فاعلم أن ثبوت العرش من ضروريات دين الإسلام وقد تكرر ذكره في القرآن المجيد وتواترت الأخبار من طرق العامة والخاصة فيه .

أقول إذا رجعنا إلى ما عند العقلاء وجدنا أن عرش الملك معتبر عندهم لمعنى ما وهو أن الملك عندهم حيث انه إنسان بيده أزمة مملكته المدنية وقد اعتبروا في لوازم الحياة حال صاحبها والملك لإختصاصه بحفظ الأزمة اعتبر لوازم حياة مختصة به ومنها مجلسه فاختص به العرش وهو مستقره ومحل صدور أحكامه وقضائه وهذا هو حقيقة العرش والكرسي أعمّ منه يوجد لغير الملك كما يوجد له إلاّ أنّه مع ذلك مجلس فيه اختصاص ما .

ومن هنا تعرف أن مفهوم هذا اللفظ يعطى انّه موجود نسبته إلى الموجودات مطلقاً أو عالم الأجسام فقط نسبة عرش الملك إلى المدنية ونسبته إلى الحق سبحانه نسبة عرش الملك إلى الملك فهو مرتبة من الوجود هي مجلى جميع صفات الحق سبحانه مما للموجودات إليه حاجة كمستقر الملك وهي محل صدور تفاصيل أحكام الموجودات

فهو ظاهر الوجود المنبسط الشامل للمجرد والمثالي والمادي .

وإلى هذا المعنى وهو محلية صدور الأحكام يشير قوله تعالى : ﴿ إنّ ربّكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيّام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ الآية .

والآيات في نسق هاتين الآيتين كثيرة واردف الأستواء على العرش بالتدبير[1] ونفي الولي والشفيع غيره تعالى وهو كالتفسير له فالعرش يرتبط به نظام الوجود بما أنّه نظام بين الموجودات .

ويدل على إرتباط ذوات الموجودات أيضاً به وسبعة على هذا النظام قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ . الآية .

وفي حديث القمي وكان عرشه الماء على الهواء والهواء لا يحد ولم يكن يومئذ خلق غيرهما والماء عذب فرات الحديث .

ثم من المعلوم أن الحاجة إلى العرش في أمرين : أحدهما صدور الأحكام وهو الذي يشتمل عليه الآيات السالفة .

والثاني العلم بما يصدر منها ويشتمل عليه آيات أخرى قال تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ الآية .

---

(١) التدبير هو الإتيان بالأمر وهو الأمر وبالشيء عقيب الشيء فتدبير الأمر منه سبحانه هو تفصيل أمره وإيجاده منه .

وحيث أن هذا النظام نازل من هناك ومعلوم حاضر هناك فهو هناك ثابت باقٍ ووجه إلهي كما مرّ سالفاً فهناك وجوه جميع الموجودات ووجوداتها الشريفة تفصيلا كما في قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه ﴾ الاية وحينئذ يعود إليه معنى قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ الآية بوجه ويتحد بوجه مع الكتاب المبين وسيجيء كلام فيه .

وإلى تتميم هذه المعاني يشير قوله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ الآية .[1]

ويشير إلى ما مرّ ما في رواية حنان بن سدير من تفسير العرش العظيم بالملك العظيم .

وفي التوحيد أيضاً مسنداً عن سلمان الفارسي (رضي الله عنه) فيما أجاب به علي (عَلَيْهِ السّلام) الجاثليق فقال علي (عَلَيْهِ السّلام) : إن الملائكة تحمل العرش وليس العرش كما تظن كهيئة السرير ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر وربّك مالكه لا أنه عليه ككون الشيء على الشيء . الخبر .

وحيث أنه شامل للموجودات ففيه تفاصيل وجوداتها وإليه يشير ما في كتاب روضة الواعظين عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال في العرش تمثال ما خلق الله في البر والبحر قال : وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ

---

(١) فإنّ كلّ تفصيل لا يتم إلاّ بإجمال سابق عليه فالحملة هم حفظة الإجمال ومن حول العرش وعلى أرجاء السماء ملائكة يحفظون تفاصيل الأمر منه .

بقدر معلوم ﴾ وما ورد في تفسير دعاء يا من أظهر الجميل وستر القبيح . الدعاء .

وحيث أنّه منبسط على المجرد والمادي فهو مجرد ففيه فعليات جميع الموجودات السافلة حاضرة عند الحق سبحانه وللحق سبحانه بتمام وجوداتها فهو من مراتب العلم فهو العلم الفعلي بالوجودات الذي يحصل فيه الموجودات .

ومن هنا كان معظم الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت (عَلَيْهِم السّلام) يفسر العرش بالعلم ففي الكافي مسنداً عن البرقي رفعه قال : سأل الجاثليق فقال أخبرني عن الله عزّ وجلّ يحمل العرش أو العرش يحمله ؟ فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : الله عزّ وجلّ حامل العرش والسموات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنّه كان حليماً غفورا ﴾ . قال : فاخبرني عن قوله : ﴿ ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ فكيف ذاك وقلت أنه يحمل العرش والسموات والأرض ؟ فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : إن العرش خلقه الله تبارك وتعالى من أنوار أربعة نور أحمر منه أحمرت الحمرة ونور أخضر منه اخضرت الخضرة ونور أصفر منه اصفرت الصفرة ونور أبيض منه أبيض البياض وهو العلم الذي حمّله الله الحملة وذلك نور من نور عظمته فبعظمته ونوره ابصر قلوب المؤمنين وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون وبعظمته ونوره ابتغى من في السموات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المتشتتة فكل شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكل شيء محمول والله تبارك وتعالى

الممسك لهما أن تزولا والمحيط بهما من شيء وهو حياة كلّ شيء ونور كلّ شيء سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً . قال له : فاخبرني عن الله عزّ وجلّ أين هو ؟ فقال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : و هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا ﴾ فالكرسي محيط بالسموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السر وأخفى وذلك قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ فالذين يحملون العرش هم العلماء الذي حمّلهم الله علمه وليس يخرج من هذه الأربعة شيء خلق الله في ملكوته وهو الملكوت الذي أراه الله أصفيائه وأراه خليله فقال : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حييت قلوبهم وبنوره اهتدوا إلى معرفته . الخبر وهو من غرر الأخبار .

وقد فسر (عَلَيْهِ السّلام) الحمل في الرواية وهو قيام ذوات الوجودات بالله سبحانه بقوله (عَلَيْهِ السّلام) : لا يستطيع . . . الخ ، ومنه يظهر كيفية حمل الحملة العرش وهو قيامه بالحملة بتحميله سبحانه إيّاه لهم .

وقد اعتبر في الرواية العرش والكرسي واحداً باعتبار كونهما من العلم ولذا ورد حديث الحملة الأربع في كل منهما ففي الخصال عن الصفار قال : قال الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : إن حملة العرش أحدهم على صورة ابن أدم يسترزق الله لولد آدم والثاني على صورة الديك يسترزق الله للطير والثالث على صورة الأسد يسترزق الله للسباع والرابع على صورة الثور يسترزق الله للبهائم ونكس الثور

رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية . الخبر .

والروايات في هذا المعنى مستفيضة وفي بعضها النسر مكان الديك ولعل هذا المعنى من جهة اختلاف المشاهدة كما هو معلوم عند أصحاب المشاهدة ويشهد له قوله : ونكس الثور . . . الخ ، فافهم .

وقد ورد مثله في الكرسي أيضاً ففي تفسير العياشي عن الأصبغ قال : سئل أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) عن قول الله : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ فقال : إن السماء والأرض وما فيهما من خلق مخلوق في جوف الكرسي وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله . الحديث .

ويظهر من هذه الأخبار أعني أخبار الحمل إن في ذلك المقام تفصيلا ما أي انفصالا للنوع عن النوع حيث يثبت إنساناً وديكا وثورا وأسداً .

والنظر الصحيح فيها يعطى أن الكرسي مقام تفرق الأنواع وتفصيلها من الوجود المنبسط وأن الحملة الأربع له وللعرش باعتباره وأما العرش بالمعنى الذي استفدناه فهو مقام الكون الذي يجتمع فيه التفاصيل ويظهر روابطها ولذا ورد أن الكرسي ظاهر العلم والعرش باطنه وفي التوحيد مسنداً عن حنان بن سدير قال : سألت أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) عن العرش والكرسي فقال : إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وصنع في القرآن صنعة على حدة فقوله ربّ العرش العظيم يقول ربّ الملك العظيم وقوله الرحمن على العرش استوى يقول على الملك احتوى وهذا علم الكيفوفية في الأشياء ثم العرش في الوصل متفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر

أبواب الغيوب وهما جميعاً غيبان وهما في الغيب مقرونان لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع ومنها الأشياء كلّها والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشيئة وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبدا فهما في العلم بابان مقرونان لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي وعلمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال رب العرش العظيم أي صفته أعظم من صفة الكرسي وهما في ذلك مقرونان ، قلت : جعلت فداك فلم صار في الفضل جار الكرسي ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : إنّه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء وانيتها وحد رتقها وفتقها فهذان جارن أحدهما حمل صاحبه في الصرف وبمثل صرف العلماء وليستدلوا على صدق دعواهما لأنه يختص برحمته من يشاء وهو القوي العزيز . الخبر .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « وفيه الظاهر » أي في الكرسي ووجهه ظاهر مما قدمنا .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « أحدهما حمل صاحبه » يمكن إرجاع الضمير إلى كل منهما بوجه فإن الظاهر يحمل الباطن بوجه كالعكس لكن لا يوجد في الروايات شيء يوجد فيه حمل العرش للكرسي وقد يوجد العكس .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « وبمثل صرف العلماء » ظاهره البناء للمجهول وإن كان البناء للمعلوم أيضاً صحيحاً والتصريف بالأمثال إنما هو ستراً للأسرار الأهية .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « وليستدلوا على صدق دعواهما » الظاهر إن الضمير للعرش والكرسي وذلك إن في التمثيل إعطاء

الدليل فافهم . وما عدّه (عَلَيْهِ السّلام) من أقسام العلوم فيها قابل الإستفادة من الآيات التي ورد فيها ذكرهما .

وإلى ما مرّ يشير قول علي (عَلَيْهِ السّلام) على ما في الأحتجاج في جواب من سأله عن بعد ما بين الأرض والعرش فقال (عَلَيْهِ السّلام) : قول العبد مخلصاً لا إله إلاّ الله .

وفي الفقيه والعلل والمجالس للصدوق روى عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) أنّه سئل لم سمي الكعبة كعبة ؟ قال : لأنها مربعة فقيل له : ولم صارت مربعة ؟ قال : لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع ، فقيل له : ولم صار البيت المعمور مربعاً ؟ قال : لأنّه بحذاء العرش وهو مربع ؟ فقيل له : ولم صار العرش مربعاً ؟ قال : لأن الكلمات التي بنى عليها الإسلام أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر . الحديث .

وهذه الكلمات الأربعة كما ترى أولها يتضمن مرحلة التنزيه والثانية مرحلة التشبيه والثالثة مرحلة التوحيد والرابعة التوحيد الأعظم وقد ورد عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) ان معنى الله أكبر الله أكبر من أن يوصف .

وفي العلل عن علل ابن سنان عن الرضا (عَلَيْهِ السّلام) : علة الطواف بالبيت ان الله تبارك وتعالى قال للملائكة : ﴿ إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فردوا على الله تبارك وتعالى هذا الجواب فعلموا أنهم اذنبوا فندموا فلاذوا بالعرش واستغفروا فاحب الله عزّ وجلّ أن يتعبد بمثل ذلك العباد فوضع في السماء الرابعة بيتاً بحذاء العرش يسمّى الضراح ثم وضع في السماء الدنيا بيتاً يسمى البيت المعمور بحذاء

الضراح ثم وضع البيت بحذاء البيت المعمور ثم أمر آدم فطاف به فجرى ذلك في ولده إلى يوم القيامة . الخبر .

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ومنها يظهر أن نسبة العرش إلى عالمه نسبة الكعبة إلى عالمنا الدنيا وقد مرّ في الكلام على الحجب رواية أن الشمس جزء من سبعين جزئاً من نور الكرسي ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش . الخبر .

ومنه يظهر أن نسبة العرش إلى حومته كنسبة الشمس إلى عالمنا الدنيا حيث أن لها تدبير أجسام ما في حومتها ونظامها بما دبرها العليم الخبير .

فقد تبين من جميع ما مرّ أن العرش هو باطن عالم التجرد وهو عالم العقول الطولية من الوجود المنبسط والكرسي هو ظاهره وهو عالم العقول العرضية وما دونه .

تتمة

وأنت بعد الإحاطة بما مرّ تعرف معنى ما ورد في المقام من متفرقات الأخبار ففي التفسير .

وفي حديث آخر حملة العرش ثمانية أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين فأمّا الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأمّا الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسين (عَلَيْهِم السّلام) .

وفي روضة الواعظين روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه (عَلَيْهِ السّلام) إلى أن قال : وإن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع مسير ألف عام والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من

خلق الله والأشياء كلّها في العرش كحلقة في فلاة . أقول : وهذه المعاني مروية بطرق كثيرة أخرى .

وورد أن آية الكرسي وآخر البقرة وسورة محمد من كنوز العرش .

وورد أن صاد نهر يخرج من ساق العرش .

وورد أن العرش سقف الجنة .

وورد أن العرش يرتج عند بكاء اليتيم .

وورد أن الأفق المبين قاع بين يدي العرش فيه أنهار تطرد فيه من القدحان عدد النجوم .

وورد أن روح بعض الأئمة على العرش ينظر إلى زواره .

وورد أن قلب المؤمن عرش الرحمن .

وورد في الحديث القدسي ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن إلى غير ذلك من متفرقات الروايات .

واعلم أن ما يعتقده الناس من كون العرش جسماً أعظم ما يكون كهيئة السرير فوق الأفلاك أو أنه الفلك التاسع المحدد للجهات تطبيقاً بهيئة بطليموس فلم نجد له شاهداً يركن إليه من الروايات بل بعض الروايات في مقام تكذيبه كما مرّ فيما مر .

وأما الكلام في القلم واللوح فهما أيضاً من ضروريات الإسلام تكرر ذكرهما في القرآن وتواترت بهما أخبار العامة والخاصة . قال سبحانه : ﴿ وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما من دابة في

الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ الآيات .

مزج سبحانه بين علمه وبين الكتاب فأفاد إن علمه عين الكتاب الذي هو مبين وقال تعالى : ﴿ وكلّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين ﴾ الآية . وسياق الآيات يعطي أن هذا العلم علم بالجزئيات وأشخاصها فلو كان كتابة هذا الكتاب بالتخطيط والتسطير نظير الكتب التي بيننا لم يحتوِ إلاّ على المفاهيم التي هي كليات دون الجزئيات إذ المفهوم ولو تعين بأي تعين فرض يقبل الأنطباق على أمور كثيرة متماثلة ويشير إليه قوله سبحانه : ﴿ ألم ترَ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ الآية ، فوصفه بأنّه حفيظ وأنه عنده وقد أخبر سبحانه بأن ما عنده باقٍ لا ينفد فهذا الكتاب شامل لجميع جزئيات الموجودات وكلياتها بوجود باق محفوظ لا يتبدل ولا يتغير كما قال سبحانه : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

ثم أنه سبحانه أثبت في هذه الآيات كتاباً واحداً سمّاه في موضع بالكتاب المبين وفي آخر بأم الكتاب وفي آخر بالكتاب الحفيظ والكتاب المكنون والكتاب المسطور واللوح المحفوظ ثم قال تعالى : ﴿ كلاّ إن كتاب الأبرار لفي عليّين وما أدريك ما عليّون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ كلاّ إن كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدريك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين ﴾ الآيات ، فأثبت سبحانه كتاباً للسعادة وكتاباً آخر للشقاوة ثم قال تعالى : يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ كل أمة

تدعى إلى كتابها ﴾ الآية ، فأثبت لكل أمة كتاباً على حدة ثم قال تعالى : ﴿ وكلّ انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتاباً يلقيه منشورا ﴾ الآية ، فأثبت لكل إنسان كتاباً على حدة ثم قال سبحانه : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمى ﴾ وقال تعالى : ﴿ لكلّ أجل كتاب ﴾ الآية ، فأثبت لكل موجود من الموجودات كتاباً واحداً بشخصه ثم قال سبحانه : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ الآية ، فأثبت ان أعمالهم بنحو الإستنساخ من أم الكتاب وأن سائر الكتب فروع مأخوذة منه وهذا هو تنزل الموجودات من مرحلة الغيب إلى حيز الشهادة فهذا حديث الكتب والألواح .

ثم أن الله سبحانه أفاد بذلك لنا أن بينه سبحانه وبين الوجودات أمراً سبيله سبيل الكتاب يكتبه الملك منّا ليكون مأخذ الصدور أحكام مملكته وبرنامجاً لتفصيل أجراءاته في مقام العمل فهناك ما يجري مجرى المداد والقلم والكتاب ولم يرد في القرآن ذكر من المداد والقلم غير قوله تعالى : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ على ما يفسره بعض الروايات وقوله تعالى : ﴿ الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ الآية .

ولعل ذلك لشدة طريقية المداد والقلم في المطالب كما هو المعمول أيضاً فإن الذكر إنّما يقع على الكتاب دون القلم والمداد وأما ذكر الكتاب فكثير كما لا يخفى وهو موجود واحد منبع لفيضان الفيوضات فهو ملك بلا شك وكيف لا وهو مصدر الفيوضات ومنشأ الخيرات والبركات والإدراكات فهو دراك فعال فهو حي فهو ملك إذ هو الموجود الحي العالم الفعال الذي يتوسط بين الحق والخلق وإن كان كل ماله فلمبدعه تعالى .

أقول والأخبار أيضاً تبين هذا البيان وتفسرها على هذه الإعتبارات .

وقد ظهر من رواية حنان السابقة أن هذه أمثال ضربت للناس وما يعقلها إلاّ العالمون والإشارة إلى هذا المعنى كثيرة في الكتاب والسنة .

وفي الإحتجاج عن هشام بن الحكم أنّ الزنديق سأل أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) فقال : أوليس توزن الأعمال ؟ قال : لا إن الأعمال ليست بأجسام وإنّما هي صفة ما عملوا وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها وان الله لا يخفى عليه شيء . قال : فما معنى الميزان ؟ قال : العدل . الحديث .

وهذه الرواية تعطي ميزاناً كليّاً وإن ما ورد عنهم في أمثال ذلك بأنّه لإتمام الحجة جواب مطابق لظواهر المعارف وأمّا ممثلات هذه الأمثال فلها معان تحت هذه المعاني غير أن السنخية اللازمة بين المثل والممثل لابد من وجودها وعلى أي حال فإذا رجعنا إلى ما عندنا من الأمور وجدنا أن المداد والقلم واللوح معتبرة عندنا لحفظ الإشارة إلى الأعيان الخارجية في النفس .

وبعبارة مجازية مراتب الوجود عند الناس ثلاث : الوجود الخارجي ، والوجود الذهني ، والوجود الكتبي ، وكل من هذه الثلاث يحكي عمّا قبله والحوادث المكتوبة موجودة في مقام الإجمال في القلم وفي مقام التفصيل في اللوح وبنظر أدق من ذلك الإجمال والتفصيل كلاهما في المداد والقلم حافظ لإجماله مفيض لتفصيله هذا فإذا ثبت في الوجود مداد وقلم ولوح مسطور فيه نظام الوجود كان القلم مرتبة من مراتب الوجود موجوداً فيها الموجودات بنحو الإجمال

والبساطة مفيضاً للتفصيل وكان اللوح مرتبة أخرى موجوداً فيها تفاصيل الموجودات وكان المداد مرتبة ثابتاً فيها الإجمال والتفصيل معاً وهو الوجود المنبسط على ما دون الأسماء .

وهذه المراتب حيث انها مجردة الوجود أزيد من نوع واحد فيها فمعها الحياة والعلم على ما تقرر في محله فإذا لوحظت المراتب كانت متحدة اتحاداً ما بالعرش وإذا لوحظت الحدود والماهيات كانت أملاكاً ثلاثة .

وإلى المعنى الأول يشير ما في تفسير القمّي في قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ قال (عَلَيْهِ السّلام) : اللوح المحفوظ له طرفان طرف على العرش وطرف على جبهة إسرافيل . الخبر وما سيأتي في رواية الأقصر .

ويدل على المعنى الثاني ما في تفسير القمّي مسنداً عن هشام عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة .

أقول وهذا المعنى مروي بطرق العامة أيضاً وفي معاني الأخبار مسنداً عن إبراهيم الكرخي قال : سألت جعفر بن محمد عن اللوح والقلم فقال : هما ملكان .

وفيه أيضاً مسنداً عن سفيان عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) عن ن ، فقال : هو نهر في الجنة قال الله عزّ وجلّ : اجمد فجمد فصار مداداً ، ثم قال عزّ وجلّ للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور . قال سفيان : فقلت له : يابن رسول الله بيّن لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلّمني مما علمك الله ، فقال : يا بن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما

أجبتك فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك واللوح يؤدي إلى إسرافيل وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل وميكائيل يؤدي إلى جبرئيل وجبرئيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل . قال : ثم قال لي قم يا سفيان فلا آمن عليك .

وفي تفسير القمّي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عبدالرحيم الأقصر عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن ن والقلم قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد ثم قال : لنهر في الجنة كن مداداً فجمد النهر وكان أشد بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد ثم قال : للقلم اكتب قال يا ربّ ما أكتب قال اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رقّ أشد بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ولا ينطق أبداً فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلّها أوَلستم عرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه انسخ ذلك الكتاب أوَليس إنّما ينسخ من كتاب آخر من الأصل وهو قوله إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون . الحديث .

أقول وروى هذا المعنى في تفسير العياشي والعلل ومعاني الأخبار قوله : « خلق القلم من شجرة في الجنة » يستدعي سبق الجنة على خلق القلم وقد مرّت الرواية أن القلم أول مخلوق ولا منافاة بناءاً على ما يعرفه أهله أن من مراتب الجنة ما لا يطلق عليه لفظ الخلق وقريب منه قوله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر . ما ما ورد إن طينتهم مأخوذة من الجنة والناس في غفلة عن هذا المعنى[1] .

---

(١) وإن كانت الطينة أدنى مرتبتها من النور منه .

ومقتضى الرواية ان المداد أما مع القلم وأما قبله ولم نجد رواية تدل على أن أول ما خلق الله المداد غير ما في الخصال عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) قال : إنّ لرسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) عشر أسماء خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن فأما التي في القرآن محمد وأحمد وعبدالله ويس و ن الحديث ز مع ما في الخبر المشهور أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر هذا .

ويمكن بيان وجه لفظي له وهو أن المعتبر في الوساطة عند الناس القلم واللوح فأما المداد فهو فإن فيها منقول عنه غير منظور إليه استقلالاً وقد مرّ هذا الوجه فافهم .

وقوله : « في رقّ أشدّ بياضاً من الثلج » تعبير عن اللوح والرق الجلد وقد مرّ تعبير آخر عنه في رواية سفيان بأنه لوح من نور وله تعبير آخر في حديث القمّي في نزول اسرافيل على رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) قال جبرئيل إن هذا اسرافيل وهو حاجب الربّ وأقرب خلق الله منه واللوح بين عينيه من ياقوته حمراء الحديث .

وقد اختلف التعبير عن القلم أيضاً تارة بأنه من شجرة الخلد في الجنة وتارة بأنه قلم من نور وعن المداد تارة بأنّه نهر في الجنة أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد وتارة بأنه مداد من نور وعن الجميع بأن المداد واللوح والقلم أملاك ثلاثة ولعمري هذا الإختلاف في التعبير وأمثاله من أوضح الدليل على أنّها أمثال مضروبة بحسب اختلاف الجهات أو الأفهام فهب أن هذه صنائع لفظية وتشبيهات شعرية ارتكبها أئمة الإسلام لتزيين اللفظ بتسمية أشياء باللوح والقلم والمداد والكتاب والميزان وأمثال ذلك فما معنى تذييله بأنه كان أشد بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد ونحو ذلك فهل هذا إلاّ أنّها

أمثال مضروبة وأستار دونها أسرار والله الهادي .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « ثم طواه فجعله في ركن » إشارة إلى اتحاده بالعرش كما مرّ في حديث القمّي .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « ثم ختم على فم القلم » إشارة إلى حتمية القضاء المكتوب فيه كما في التوحيد وتفسير القمّي عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) قال : سبق العلم وجف القلم ومضى القضاء وتمّ القدر بتحقيق الكتاب وتصديق الرسل وبالسعادة من الله لمن آمن واتقى وبالشقاء لمن كذب وكفر ز الحديث ولا منافاة بين كون هذا النظام في مرتبة من مراتب وجوده محتوماً غير قابل للتغير وفي مرتبة آخر قابلاً له فإن الإجمال وقبول التغير من لوازم مرتبة القوة والإمكان من الإستعدادات المتفرقة وأمّا المراتب العليا فمقدسة عن شوب القوة والإمكان وإلى الله الرجعى .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) « أوَلستم عرباً » إشارة إلى تنزل وجود الأعمال من مراتب الغيب إلى مراتب الشهادة فإن الظاهر من الأخبار أن أعمال بني آدم الواقعة تنسخ أولاً عن اللوح المحفوظ فيجيء به الملكان إلى هذا العالم ثم يصعدان به إلى اللوح فيقابل به .

ففي كتاب سعد السعود في رواية أنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساءاً ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من الوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً ومساءاً بديوان العبد قابله إسرافيل بالنسخ التي انتسخ لهما حتى يظهر أنّه كان كما نسخ منه . الخبر .

وفي الوسائط من الملائكة الكتاب بين إسرافيل والملكين أخبار أُخر منها ما في كتاب محاسبة النفس لإبن طاووس مسنداً عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في حديث البيت المعمور فيه كتّاب أهل

الجنة عن يمين الباب يكتبون أعمال أهل الجنة وكتّاب أهل النار عن يسار الباب يكتبون أعمال أهل النار بأقلام سود . الخبر .

وفي المحاسن والعلل مسنداً عن حبيب السجستاني قال : قال أبو جعفر (عَلَيْهِ السّلام) : « إنّما سمّيت سدرة المنتهى لأن أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحفظة إلى محل السدرة ، قال : والحفظة الكرام البررة دون السدرة يكتبون ما يرفعه إليهم الملائكة من أعمال العباد في الأرض فينتهي بها إلى محل السدرة » الخبر .

وفي تفسير القمّي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) قال : السجّين الأرض السابعة وعلّيون السماء السابعة . الخبر .

أقول : وهذه الأخبار بظاهرها مختصة بكتّاب أعمال بني آدم ويدل على الأعم من ذلك ما في تفسير القمّي مسنداً عن حماد عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) أنّه سأل الملائكة أكثر أم بنو آدم ؟ فقال (عَلَيْهِ السّلام) : والذي نفسي بيده لملائكة الله في السموات أكثر من عدد التراب في الأرض وما في السماء موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبحه ويقدسه ولا في الأرض شجر ولا مدر إلّا وفيها ملك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها والله أعلم بها . الخبر .

أقول والإحاطة بما قدمنا من الأصول يغني عن الإطالة في بيانها على أن البناء على إيثار الاختصار .

ثم اعلم أن الأخبار تكاثرت في ثبوت المحو والإثبات في الحوادث الخارجية وهو البداء وقد نطق به القرآن قال تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ الآية ، وهذا يوجب ثبوت ألواح وكتب أخرى بعد اللوح المحفوظ يتطرق إليها التغير وحيث أن الوجود لا ينقلب عمّا هو عليه بالضرورة فالمكتوب في هذه

الألواح من الحوادث وجوداتها الناقصة التي في ضمن مقتضياتها فيوجب ذلك إجمالاً واحتمالاً لا يتعين وجوداتها التامة فيها وهذا الإجمال غير الإجمال الذي سبق في المداد والقلم فإنّه فيهما بمعنى بساطة الوجود وشدّة صرافتها بخلاف ما هاهنا فإنّه بواسطة شوب المادة والإستعداد بوجه ومنه يعلم أن هذه الألواح مادية طبيعية وأمّا المثالية والمجردة منها فينبغي أن يتصور على ما صورناه في رسالة أفعال الله . هذا :

ومثل هذا المحو والإثبات ثابت في كتب الأعمال بالكتاب والسنة كمحو السيئة وإثبات الحسنة وحبط الأعمال بواسطة بعض الذنوب والخطايا والمغفرة والشفاعة والله أعلم .

وأمّا الكلام في السموات والأرض فالكتاب والسنة مملوّان من ذكرهما أقول والمحصل من ذلك أن في الوجود سبع سموات ، وأن السماء الدنيا هي التي فيها هذه النجوم والكواكب المحسوسة وهي تسبح فيها والمجرة شرجها كأنّها عروة كيس تجمع رأسها ، وأن هذا الجو مكفوف مجتمع ، وأن في الوجود سبع أرضين مخصوصة في الكتاب العزيز بالذكر في قوله تعالى : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أحدها أرضنا ونحن من الأرض وهي في الجو وهي مدحية مبسوطة ليست بالموجودة دفعة ولها حركة ما ، وأن في الوجود عوالم كثيرة لا تحصى قد انقرض منها عدد كثير وعدد كثير منها باقٍ بعد .

هذا هو الذي يتحصل من الكتاب والسنة للذهن الخالي الغير المتقلد بالتقليد قال الله تعالى : ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ .

وفي كتاب الإحتجاج وغيره عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلام)

وقد سئل عن المجرة ، قال : شرج السماء . الخبر .

وفي النهج قال (عَلَيْهِ السّلام) : اللهم ربّ السقف المرفوع والجو المكفوف الذي جعلته مفيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر ومختلفاً للنجوم السيارة . وقال تعالى : ﴿ الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾ وقال تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحيها ﴾ وقال تعالى : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ وقال تعالى : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ إلى أن قال : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلّا الرحمن ﴾ الآية .

وقد نطقت الأخبار أن لله عوالم كثيرة فيها خلائق كثيرون مكلفون وأن الله خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنتم في آخرهم وغير ذلك مما يخرجنا استقصاءها إلى الإطناب .

أقول : وأما أن غير السماء الدنيا والأرض من بقية السموات والأرضين ما هي في حقيقتها فلا يظهر تمام الظهور .

والذي ينبغي أن يقال هو أنه تواترت النصوص كتاباً وسنة أن هذه السموات السبع مملوءة من الملائكة وأن منهم سدنة لأبوابها ومنهم حفظة لها ومنهم ملائكة متعبدة متنسكة راكعة أو ساجدة أو قائمة أو والهة ومنهم سيارة تنزل بالأمر الإلهي أو تعرج بالأخبار والكتب أو تصعد بالألواح والأعمال سماءاً سماءاً إلى ما فوق السماء السابعة وهناك سدرة المنتهى تنتهي إليها أعمال بني آدم وعندها جنّة المأوى وبحار الأنوار والحجب وأن من الملائكة من رأسه تحت العرش ورجلاه في

تخوم الأرض السابعة وأن من أرواح الأنبياء والأولياء من هو ساكن في السماء إلى غير ذلك .

وإذ سيجيء أن هذه كلّها موجودات غير مادية بل هي بين أجسام لطيفة مفارقة للمادة مثالية أو جواهر مجردة تجرداً تاماً فحينئذ حقيقة الأمر على أحد وجهين :

أمّا أن يكون تمكنهم في هذه الأماكن كتمكن نار البرزخ في البرهوت وجنة البرزخ في وادي السلام وبين قبر النبي ومنبره ومثل كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران وهو وجود أمر في باطن أمر .

وأما أن تكون هذه السموات أموراً برزخية كما يظهر من أخبار أُخر .

لكن ظاهر الأخبار أن في عالمنا المادي أرضون وسموات مادية وعلى كلا التقديرين يثبت سماء وأرض من غير مادة .

ومما هو ظاهر الدلالة على ذلك ما في كتاب الغارات بإسناده عن ابن نباتة قال : سئل أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) كم ما بين السماء والأرض ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : مد البصر ودعوة المظلوم . الخبر .

وروي مثله بسند آخر وفي آخره : لا نقول غير ذلك .

والجمع بين الحكمين مع كون أحدهما حكم المادي والآخر حكم غير المادي من جهة اتحادهما في الحقيقة وكون النسبة بينهما نسبة الظاهر والباطن وهذا كثير في الأخبار الحاكية عن شؤون السماء وغيرها كالجنة والنار وقال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وما في علل الشرائع في حديث عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) فهكذا الإنسان خلق من شان الدنيا وشان الآخرة فإذا جمع

الله بينهما صارت حياته في الأرض لأنه نزل من شان السماء إلى الدنيا فإذا فرّق الله بينهما صارت تلك الفرقة الموت تردّ شان الأخرى إلى السماء فالحياة في الأرض والموت في السماء وذلك أنّه يفرق بين الأرواح والجسد فردّت الروح والنور إلى القدس الاولى وترك الجسد لأنّه من شأن الدنيا . الحديث .

فيظهر مما مرّ أنّه كما أن في عالمنا المادي أرضاً وسماءاً كذلك فوق هذا العالم سماء وهي التي تعرج إليها الأرواح الطيبة السعيدة وتتنعم فيها وهي جنة البرزخ وأرض وهي التي تهبط إليها الأرواح الخبيثة الشقية وتتعذب فيها وهي نار البرزخ والأرواح في هاتين حتى تفنى بفناء المثال وتقوم الناس لربّ العالمين . هذا :

ومن هنا أنّك إذا راجعت الأخبار التي فيها أن الملائكة بعد قبض أرواح السعداء يعرجون بها إلى السماء إلى الله سبحانه ثم يؤمر بها إلى الجنة لا يوجد فيها ما يحكى عن أنها يهبط بها إلى الأرض ثم تدخل الجنة مع أن جنة البرزخ بمقتضى الأخبار في الأرض وفي القبر .

ويشهد لما مرّ أيضاً ما في البصائر مسنداً عن جابر عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ قال : فكنت مطرقاً إلى الأرض فرفع يده إلى فوق ثم قال لي : إرفع رأسك فرفعت رأسي فنظرت إلى السقف قد انفجر حتى خلص بصري إلى نور ساطع حار بصري دونه قال : ثم قال لي : رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض هكذا . الخبر .

وما عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والروح إلى السماء الدنيا فيكتبون ما يكون من قضاء

الله في تلك السنة . الحديث . مع ما ورد أن الروح بعد ما نزل إلى الأرض مسدداً لرسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِه) لم يعرج بعد وهو مع أهل البيت يسددهم . الخبر .

ويظهر منها أن إحاطة السماء الأولى بالأرض من قبيل إحاطة الباطن بالظاهر لا كما يقولون من إحاطة الفلك .

وأما الكلام في الملائكة فوجودهم من ضروريات الإسلام ويمكن أن يقال أن الأمر كذلك في الجملة في سائر الملل وقد استفاضت الأخبار بأنهم أكثر خلق الله أصنافاً وأفراداً واستقصاء أصنافهم تفصيلاً خارج عن العهدة لكن يجمعهم أقسام ثلاث :

القسم الأول الملائكة المهيمون وهم الواهون في عظمة الله سبحانه لا يشعرون بشيء ولا بأنفسهم .

ففي البصائر عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم ثم قال (عَلَيْهِ السّلام) : أن موسى لما سأل ربّه ما سأل أمر واحداً من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكّا . الحديث .

وأنت بعد التدبر في قوله : ﴿ فلمّا تجلّى ربّه للجبل ﴾ الآية والروايات التي في موردها تقضي بأن هذه الملائكة فانون في الله سبحانه لا يشعرون بغيره وليس لهم إلاّ الله سبحانه .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : « جعلهم الله خلف العرش » يومي إليه فإن العرش هو عالم التدبير والقضاء والقدر إليه ينتهي التفاصيل والأحكام فلا أثر خلفه من ذلك البتة .

وفي الخبر أيضاً أن العالين قوم من الملائكة لا يتلفتون إلى غير

الله ولم يؤمروا بالسجود لآدم ولم يشعروا أن الله خلق العالم ولا آدم .

القسم الثاني الملائكة المتعبدون المتنسكون ففي النهج في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) : ثم فتق ما بين السموات العلى فملأهن أطواراً من ملائكته منهم سجود لا يركعون وركوع لا ينتصبون وصافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان . الخطبة وهذا المعنى مروي مستفيضاً .

القسم الثالث الملائكة العمالة الموكلون بالعالم من حملة العرش والكرسي والموكلين بالسموات والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والجو والسحاب والأمطار والرعد والبرق والصواعق والشهب والرياح والأرض والعناصر والبحار والجبال والأودية والنبات والحيوان والإنسان والأعمال والأزمان والأمكنة والحياة والرزق والموت والبرزخ والحشر والجنة والنار وغير ذلك حتى يظهر من بعض الأخبار عموم وساطتها لجميع جزئيات جهات العالم من الذوات والأعيان وآثارها وقد تقدم بعضها في الكلام على اللوح والقلم .

وهذا القسم بنفسه طبقات مختلفة من آمر ومأمور ورئيس ومرؤوس في كل عمل موكل به ومنهم جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل .

واعلم أن أصناف الملائكة كلّهم معصومون بنص القرآن وتواتر الأخبار غير ما في بعض أخبار قصة هاروت وماروت وقد ردّه أخبار أُخر وما في خبر واحد عامّي من قصة دردائيل وفي آخر من قصة فطرس وهي على أنّها آحاد مجملة .

والغرض في المقام بيان أن هذه الأصناف موجودات مفارقة

للمادة بين مثالي ومجرد تام والبرهان المذكور في أول الرسالة يثبت هاهنا أن لكل من موجودات عالمنا المادي مرتبة من المثال ومرتبة من العقل هما في طوله وهو المطلوب وفي الآيات والأخبار شواهد على ذلك .

منها قوله تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ﴾ .

ومن المعلوم أن هذا القلب ليس المراد به اللحم الصنوبري المعلق عن يسار المعدة بل هو الذي يفهم ويعقل وهو النفس فنزوله على القلب لا يستقيم إلّا مع كون وجود النازل مجرداً في الجملة كوجود المعنى .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا إنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ الآية ومثلها آيات أُخر إذ ظاهرها أن إنزال الملك بلباسه الملكي ووجوده الملكوتي ملازم لقضاء الأمر وعدم الأنظار ودخول الناس في نشأة ما بعد الموت حتى يتسانخوا ويتجانسوا مع الملائكة وتلك نشأة مفارقة للمادة فوجود الملائكة منها فهي مفارقة .

ومنها ما ورد في الأرواح ففي البصائر مسنداً عن الحلبي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي ﴾ قال : إن الله تبارك وتعالى أحد صمد والصمد الذي ليس له جوف وإنّما الروح خلق من خلقه له بصر وقوة وتأييد يجلعه الله في قلوب الرسل والمؤمنين .

وفيه مسنداً عن الحسن بن إبراهيم عن الصادق (عَلَيْهِ

السّلام) قال : سألته عن علم العالم ، فقال : إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح روح البدن وروح القدس وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان وفي المؤمنين أربعة أرواح إنما فقدوا روح القدس،روح البدن وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان وفي الكفار ثلاثة أرواح روح البدن وروح القوة وروح الشهوة . ثم قال : وروح الإيمان يلازم الجسد ما لم يعمل بكبيرة فإذا عمل بكبيرة فارقه الروح وروح القدس من سكن فيه فإنه لا يعمل بكبيرة أبداً .

وفي الكافي مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن للقلب أذنين فإذا همّ العبد بذنب قال له روح الإيمان لا تفعل وقال له الشيطان إفعل وإذا كان على بطنها نزع منه روح الإيمان . الحديث . يشير (عَلَيْهِ السّلام) إلى الزنا .

وفي الكافي مسنداً عن حمّاد عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : ما من قلب إلّا وله إذنان على احديهما ملك مرشد وعلى الأخرى شيطان مفتن هذا يأمره وهذا يزجره الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد ﴾ الحديث .

قوله (عَلَيْهِ السّلام) : « وذلك قول الله عزّ وجلّ » يظهر منه أن مراده تعالى من قعودهما عن اليمين والشمال قعودهما عن يمين القلب وشماله أي النفس وسعادته وشقاوته وكونه ذا اذنين باعتبار سمعه وطاعته لأمر الخير وآمر الشر .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) في خبر أبي بصير : « نزع منه » ونظير هذه العبارة في إنتزاع روح الإيمان وارد في الأخبار كثيراً يلوح منه أن لها اتحاداً ما بالنفس فهي مقومات لجهات النفس .

ويظهر من ضم الخبرين الأخيرين أن روح الإيمان مع ملك ويدل عليه ما في الكافي وتفسير العياشي عن الصادق (عَلَيْهِ السَّلام) : ما من مؤمن إلّا ولقلبه اذنان في جوفه اذن ينفث فيها الوسواس الخناس واذن ينفث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله تعالى : ﴿ وأيّدهم بروح منه ﴾ الخبر .

وكذا ما في الأخبار الكثيرة أن روح القدس ملك وربما أيّد المؤمن .

وبالجملة فمن المعلوم أن ليس في قلوبنا حين الهم بالحسنة أو السيئة إلّا خطرات تخطر وهي كلام نفسي لنا وهي بعينها كلام ملك أو شيطان والكلام واحد بعينه فمتكلمه واحد بعينه فلو كان الملك الذي يكلمنا أمراً مادياً لكان اللازم اتحاد الإثنين وهو محال فليس إلّا أنه موجود مثالي ولا يلزم من ذلك الإتحاد المستحيل لكون أحدهما في طول الآخر فافهم وهذا الوجه ناهض في مثالية الشيطان المفتن أيضاً .

ومنها ما ورد مستفيضاً في أخبار البرزخ من وجود ملائكة موكلة بروح الإنسان بعد موته في البرزخ كمنكر ونكير ومبشر وبشير وملائكة جنته وناره والصاعدين بروحه وحيث أن البرزخ مثال فهي مثالية .

ومنها الأخبار الواردة في غريب خلقهم وعجيب شأنهم ففي نهج البلاغة في خطبة له (عَلَيْهِ السَّلام) في الملائكة : ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم . الخطبة .

وفي تفسيرالقمّي مسنداً عن جابر عن أبي جعفر (عَلَيْهِ

السّلام) قال : كان بينا رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) جالساً وعنده جبرئيل إذ حانت من جبرئيل قبل السماء فانتقع لونه حتى صار كأنّه كركم ثم لاذ برسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) فنظر رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) إلى حيث نظر جبرئيل فإذا شيء قد ملأ بين الخافقين مقبلاً حتى كان كقاب من الأرض إلى أن قال : قال - يعني جبرئيل - : يعني جبرئيل هذا اسرافيل حاجب الرب. الخبر

وفي التوحيد عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) أنّه سئل عن قوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾ فقال : رأى جبرئيل على ساقه الدر مثل القطر على البقل له ستمائة جناح قد ملأ ما بين السماء والأرض . الحديث .

والروايات وردت أكثر من أن تحصى في نزولهم واختلافهم وأن منهم سكنة الهواء والأرض والأماكن والمقدسة آلافاً آلافاً وأنهم ينزلون مع قطرات الأمطار ومع كل شخص وكل عمل وفي ليلة القدر ألوف من الملائكة لا يحصى عددهم إلاّ الله سبحانه .

ومساق هذه الأخبار والآثار يأبى أن نقول أن لإختلاف موجودات عالمنا وتقلباتها وانقلاباتها تأثيراً فيهم فلا يوطؤون بالأقدام ولا يضغطون ولا تخرق حركات الأجسام أبدانهم مع أنهم قد ملأوا الفضاء والسطح مع أن الضرورة تقضي بالمزاحمة بين الماديات والجسمانيات ولا يبصرون ولا يلمسون ولا يحس بهم ولا غير ذلك من أحكام الماديات فليسوا بالأجسام المادية وإنما للماديات نسبة إليهم . هذا :

وما ربّما يقال أن الله سبحانه قادر أن يصرف الماديات عنها فلا تحس بها ولا تزاحمها ويجعل القوة على رؤيتهم والإرتباط بهم في بعض أشخاص الإنسان كالأنبياء (عَلَيْهِم السّلام) فيختصّوا برؤيتهم

وكلامهم مثلاً فكلام يشبه بظاهره كلام المسلّمين من المسلمين وبباطنه يهدم أساس الدين إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم في الحس لم يثبت لنا نبيّ ولا كتاب ولا شرع ولا إعجاز ولحقنا بالسوفسطائية ولم يثبت توحيد حتى تصل النوبة إلى الكلام في الملائكة على أن الضرورة تدفعه .

وما أثبتنا في محله من الخطأ في الحس إنّما هو الخطأ في الحكم الذي معه لا في المحسوس الحاصل عند الحس فما نراه من صغر النجوم مثلاً فالذي عند الحس من نقطة بيضاء هو هذا القدر وهو ضروري بديهي والخطأ إنما هو في حكمنا أن النجم في نفسه على هذا المقدار من الحجم على ما يثبته أحكام الزوايا المثلثية من حجمها .

ومنها الأخبار الكثيرة الواردة في عصمتهم الذاتيّة وقد قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربّك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ الآية ، فمن المعلوم أن لو كانت فيهم مادة وهي حاملة للقوة والأمكان وأفعالهم صادرة عن علم كان ذلك منهم إختيارياً متساوي الوجود والعدم كالإنسان ولم يكونوا مجبولين على الطاعة ولاستوجبوا بالطاعة مزيد الثواب مع أن العمالة منهم عمالة إلى أبد الآبدين من قبل وفي الدنيا والآخرة وفي الجنة والنار .

ومنها ما ورد أن طعامهم التسبيح وشرابهم التهليل أي أن قوام وجودهم الخارجي بالتوحيد والتنزيه وأما الحمد والتشبيه فلم يرد فيه نص غير ما في قوله تعالى : ﴿ والملائكة يسبحون بحمده ﴾ الآية ، ولم يرد ويحمدون ووجهه واضح عند العارف بالحقائق .

وفي رواية أخرى في العلل لمحمد بن علي بن إبراهيم سئل أبو

عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) عن الملائكة يأكلون ويشربون وينكحون ؟ قال : لا إنهم يعيشون بنسيم العرش . فقيل له : فما العلة في نومهم ؟ فقال (عَلَيْهِ السّلام) . فرقاً بينهم وبين الله عزّ وجلّ لأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله . الخبر .

وحديث نومهم وارد في أحاديث أُخر منها ما في إكمال الدين مسنداً عن داود بن فرقد في حديث حدثه بعض أصحابه عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) فقال (عَلَيْهِ السّلام) : ما من حي إلاّ وهو ينام خلا الله وحده عزّ وجلّ والملائكة ينامون . فقلت : يقول الله : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ قال : أنفاسهم تسبيح . الخبر .

وقد مرّ في أول الكلام قول علي (عَلَيْهِ السّلام) : لا يغشاهم نوم العيون . الخطبة ، فلو صحّت هذه الأخبار كان المراد من نومهم ما هو مثل قوله (عَلَيْهِ السّلام) الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وما ورد مستفيضاً في أخبار البرزخ كما في الكافي مسنداً عن سالم عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : ثم تؤخذ روحه فتوضع في الجنة حيث رأى منزله ثم يقال له نم قرير العين فلا تزال نفحة من الجنة تصيب جسده يجد لذتها وطيبها حتى يبعث . الحديث .

وجملة المعنى أن نسبة جنة الآخرة إلى البرزخ وكذلك نسبة البرزخ إلى الدنيا كنسبة اليقظة إلى النوم وكذا في الملائكة نوم غير نوم العيون وغفلة العقول نسبته إلى ما عليه الحق سبحانه نسبة النوم إلى اليقظة فمن فقد شيئاً فقد نام عنه والحاصل أن تعيشهم بنسيم العرش وهو التسبيح والتهليل وقد عرفت أن العرش ما هو إنما هو مشاهدة التوحيد والتنزيه فبه قوام وجودهم فحجاب المادة ليس مضروباً دونهم .

وفي كتاب الدرر والغرر للآمدي عن المناقب : وسئل يعني عليّاً (عَلَيْهِ السّلام) عن العالم العلوي فقال : صور عارية من المواد خالية عن القوة والإستعداد تجلى لها فاشرقت وطالعها فتلألأت وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله . الحديث.وهاهنا مباحث أُخر ربما تعرضنا لبعضها في الكلام على الشيطان على حسب ما يسوغه المجال .

وأما الكلام في الشيطان فهو أيضاً من ضروريات هذا الدين بل سائر الملل وقد تواترت الآثار وتكرر في القرآن إثبات خصوصيات عجيبة لهذا المخلوق والكلام الجامع فيه أن نقول كما أن الإسلام يثبت وراء الحس موجودات كثيرة موكلة بجميع جهات العالم تدعوا إلى الخيرات وتهدي إلى الحسنات وتفيض البركات وسمتها الملائكة فالملك موجود غير محسوس له مبدئية ما للخيرات والحسنات والبركات كذلك يثبت وراء الحس موجودات أخرى موكلة بالإنسان وغيره تدعوا إلى الشرور وتهدي إلى كل معصية ومخالفة يسميها الشيطان وذريته فالشيطان موجود غير محسوس له مبدئية ما للشرور والمعاصي .

أقول : إذا فرضنا معصية ما فهي مخالفة والمخالفة لا تتحقق إلّا مع تصور موافقة في محلها وإطاعة والموافقة بالطاعة لا تكون بشباهة الفعل بالفعل بل بمطابقة الفعل لما يريده آمر بأمر مثلاً والأمر اللفظي إنما هو لإيصال الأمر إلى المأمور لا لموضوعية له في نفسه بالضرورة . ولذا كان الأمر العقلي كالأمر اللفظي والأمر أمر اعتباري اعتبر للتوصل إلى وجود فعل مراد من الغير بالبعث والتحريك الإعتباري للمأمور إلى المأمور به وإرادة الفعل لا تكون إلّا بمحبة تامة فالذي يصدر عن الفاعل المطيع إنما هو الذي يحبه الأمر من حيث أنّه

يحبه وإلاّ لم يكن موافقة أي أن علم الفاعل في إرادته الفعل إنّما تعلق بالفعل بما أن الآمر يحبه أي بمحبة الأمر مشاهداً تعلقها بالفعل ووجودها في الفعل وحيث أن العلم متحد بالمعلوم فمنشأ الفعل إرادة الأمر التي عند الفعال فهذا الفعل إنما تحقق بفناء إرادة الفاعل في إرادة الآمر وحيث أن الفعل أثر الفاعل ووجوده رابط غير مستقل بالنسبة إلى الذات فللذات وجود ما في مرتبته ففناء الإرادة في الإرادة يستلزم فناء ما للذات في الذات في هذه المرتبة فيختلف الفناء المذكور باختلاف الأفعال فهناك فناءات مختلفة بالنسبة إلى الأفعال المختلفة والطاعات المتشتته .

ومثل البرهان يثبت في جانب المعصية أن المعصية لا تتحقق إلاّ بأنانية بالنسبة إلى ذات الأمر بوجه ما وهي خلاف الفناء أي الغفلة عن ذات الأمر وتوجه المأمور إلى ذات نفسه .

وحيث أن الكلام في إطاعة الحق سبحانه ومعصيته ولا ذات موجودة بالإستقلال إلاّ ذاته فالتوجه إلى ذات أخرى غير متصورة هناك بل هي الغفلة عن أنه هو به لا عن هو البسيط فإنّه غير متحقق البتة .

فقد تحقق أن المعاصي بجميع أنحائها لا تتحقق إلاّ مع الغفلة عن الحق سبحانه ودعوى الأنانية وتختلف أقسام هذه الدعاوي باختلاف أقسام الأفعال التي هي معاصٍ اختلافاً شديداً فهذا هو المتحقق في مرتبتنا الطبيعية ولها بالضرورة مثل في مرتبة المثال نسبتها في الكلية والجزئية والمنشئيّة والتولد نسبة ما في عالم الطبيعة بمقتضى ما مر من البرهان في أول الرسالة فهي موجودات متقدمة عليها بوجه إحياء في أنفسها لها مبدئية ما بالنسبة إلى ما في عالم الطبيعة من ممثلاتها وهذا الموجود غير المحسوس الذي هو مبدأ عام للمعاصي مع المبادىء

الجزئية التي لها هو الذي نسميه بالشيطان وذريته هذا ما سنح ببالي من البرهان على وجوده ولم أجد مجال المراجعة إلى كتب القوم فيما أدرى هل سبقني إليه أحد أو جاء ببرهان غير هذا ومنه يتبين معاني عامة ما ورد في خصوصيات وجوده وذريته وحالاتهم وكيفية وساوسهم وغير ذلك .

ومن البرهان يظهر وجه عدم سجدته لعنه الله لآدم لأنه غير خاضع لذات الإنسان النورية التي هي خليفة الله في أرضه لأن ذاته قائمة بالأنانية وقد ورد في الخبر : أن أول من قال أنا إبليس وأنّه إنّما استحق اللعن بذلك قال تعالى : ﴿ إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ الأيات . ويظهر مما مرّ أنه لعنه الله كما لم يسجد لآدم لم يسجد لذريته أيضاً وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس ﴾ الآية . وكما أنّه لم يسجد هو لعنه الله لم تسجد ذريته أيضاً ففهي نهج البلاغة في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) في صفة آدم (عَلَيْهِ السّلام) : واستادى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته فقال سبحانه : اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس وقبيله اعترتهم الحمية وغلبت عليهم الشقوة . الخطبة ، ويستفاد هذا المعنى من قوله سبحانه : ﴿ أنه يريكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ الآية .

ومن البرهان يظهر أن المتخلص منه لعنه الله بالكلية لا يتحقق إلّا مع الخلوص للّه سبحانه قال سبحانه حكاية عن إبليس حين رجم وأنظر قال : ﴿ فبعزّتك لأغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم

المخلصين ﴾ وهم الذي اخلصوا لله ـ بالبناء للمجهول ـ فلا يبقى غاية لهم اما ذاتاً أو اسماً أو فعلاً فقط إلاّ الله سبحانه وهو الخلوص بأحد وجوهه وذلك لأنّه يرتفع موضوع الوسوسة حينئذ وهو الأنانية والغفلة عن الحق سبحانه وذلك قوله (عَلَيْهِ السّلام) : ان شيطاني أسلم على يدي وفي رواية قتلته وفي رواية عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) على أن الشيطان لا يتعرض بنا . هذا وأما وقوع الخطأ وهو مخالفة الأمر الإرشادي دون المولوي منه وترك الأولى من الأنبياء فقد صرّح به القرآن الكريم وتواترت به الأخبار قال تعالى في آدم وحواء : ﴿ فأزلّهما الشيطان ﴾ الآية ، وكذا في سائر الأنبياء وكذلك وقوع الخطأ الخالي قال تعالى : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ الآية ، وقال تعالى حكاية عن فتى موسى وهو يوشع في قصة الحوت : ﴿ وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره ﴾ الآية ، وقال تعالى حكاية عن أيوب (عَلَيْهِ السّلام) : ﴿ إنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ .

ويتبين مما مرّ من الأمثلة أن عمدة تصرفاته لعنه الله في هذا العالم الطبيعي على ثلاثة أقسام :

القسم الأول تصرفه في الإنسان بالوسوسة في صدره والإلقاء في قلبه قال تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ من شر الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ والخنّاس اسم للشيطان الموكل على الناس كما في الأخبار وقد مرّ رواية الكافي في هذا المعنى .

وهذا القسم هو الذي عصم منه المعصومون من الأنبياء والأولياء ولذلك لو تحقق منه لعنه الله وسوسة لهم كان ذلك بالظهور والتجسم لهم كما وردت أخبار كثيرة في قصص نوح وإبراهيم

وإسماعيل وموسى وعيسى ويحيى ونبيّنا (عَلَيْهِم السّلام) في هذا المعنى .

القسم الثاني تصرفه لعنه الله في الإنسان غير قلبه كأعضائه مثلاً كما في قصة أيّوب ومرضه مرضاً شديداً وهذا في غير المعصومين من الأولياء مقدمة للقسم الأول وفيهم ينتج إيذاءاً .

القسم الثالث تصرفه لعنه الله في غير الإنسان من الأمور الخارجة عنه قال تعالى : ﴿ قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصى .

كما في الكافي بإسناده عن علي (عَلَيْهِ السّلام) قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) لا تؤوا منديل اللحم في البيت فإنه مربض الشيطان ولا تؤوا التراب خلف الباب فإنه مأوى الشيطان . الخبر .

وفيه منسداً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) أن على ذروة كل جسر شيطاناً فإذا انتهيت إليه فقل بسم الله يرحل عنك .

وفي أخبار كثيرة انّه لعنه الله تصرف في العنب والكرمة والنخلة وفي أخبار كثيرة أنه لعنه الله يتصرف في النطفة والمأكل والمشرب والملبس والمسكن إذا لم يذكر اسم الله عليه .

وفي الكافي مسنداً عن علي قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) بيت الشيطان في بيوتكم بيت العنكبوت .

وفي الكافي أيضاً مسنداً عن أحدهما عَلَيْهِما السّلام) قال : لا تشرب وأنت قائم ولا تبل في ماء يفتع ولا تطف بقبر ولا تخل في بيت وحدك ولا تمش بنعل واحدة فإن الشيطان أسرع ما يكون إلى العبد

إذا كان على بعض هذه الأحوال . إلى غير ذلك من نظائرها التي وردت في الشريعة وهذا القسم أيضاً مقدمة للقسم الأول من تصرفاته لعنه الله .

ومن البرهان المذكور يظهر أيضاً أن الشياطين مفارقة الوجود للمادة والوجود المذكورة في تجرد الملائكة غير الوجه الأخير منها جار في الشياطين بعينها قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ وقال تعالى : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أنّه يريكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذا قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنّي بريء منك ﴾ الآيات . وأمثال الأخبار التي أوردناها في الكلام على الملائكة واردة في هذا المقام ولا نطيل بالإيراد والبيان بل الأخبار الواردة هاهنا أوضح دلالة من هناك لأن كثيراً من تصرفاته الواردة بتمثيل جسماني مفسر هاهنا بخلافه هناك .

كما في المحاسن عن الرضا عن آبائه عن علي (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : فأمّا كحله فالنوم وأمّا سفوفه فالغضب وأما لعوقه فالكذب .

وفي الكافي مسنداً عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) : إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم .

وعن النبيّ (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع .

وفي الخبر أن موسى (عَلَيْهِ السّلام) رآه وعليه برنس فسأله عن برنسه فقال لعنه الله : به اصطاد قلوب بني آدم .

وفي مجالس ابن الشيخ مسنداً عن الرضا عن آبائه (عَلَيْهِم السّلام) : أن إبليس كان يأتي الأنبياء من لدن آدم إلى أن بعث الله المسيح (عَلَيْهِ السّلام) يتحدث عندهم ويسائلهم ولم يكن بأحد منهم أشدّ أنساً منه بيحيى بن زكريا فقال له يحيى (عَلَيْهِ السّلام) : يا أبا مرّة إن لي إليك حاجة ، فقال له : أنت أعظم قدراً من أن أردّك بمسألة فاسألني ما شئت فإنّي غير مخالفك في أمر تريده . فقال يحيى : يا أبا مرّة أحبّ أن تعرض علي مصائدك وفخوخك التي تصطاد بها بني آدم . فقال له إبليس : حبّاً وكرامة وواعده لغد فلمّا أصبح يحيى قعد في بيته ينتظر الوعد وأغلق عليه الباب إغلاقاً فما شعر حتى ساواه من خوخة كانت في بيته فإذا وجهه صورة وجه القرد وجسده على صورة الخنزير وإذا عيناه مشقوقتان طولاً وإذا أسنانه وفمّه مشقوقات طولاً عظماً واحداً بلا ذقن ولا لحية وله أربعة أيدٍ يدان في صدره ويدان في منكبه وإذا عراقيبه قوادمه وأصابعه خلفه وعليه قباء وقد شدّ وسطه بمنطقة فيها خيوط معلقة بين أحمر وأصفر وأخضر وجميع الألوان وإذا بيده جرس عظيم وعلى رأسه بيضة وإذا في البيضة حديدة معلقة شبيهة بالكلاب فلمّا تأمله يحيى (عَلَيْهِ السّلام) قال له : ما هذه المنطقة التي في وسطك ؟ فقال : هذه المجوسية أنا الذي سننتها وزينتها لهم . فقال له : ما هذه الخطوط الألوان ؟ قال : هذه جميع أصناع النساء لا تزال المرأة تصنع الصنيع حتى يقع مع لونها فافتن الناس بها . فقال له : فما هذا الجرس الذي بيدك ؟ قال : هذا مجمع كل لذة من طنبور وبربط ومعزفة وطبل وناي وصرناي وأن القوم ليجلسون على شرابهم فلا يستلذونه فأحرّك الجرس فيما بينهم

فإذا سمعوه استخفّ بهم الطرب فمن بين من يرقص ومن بين من يفرقع أصابعه ومن بين من يشق ثيابه . فقال له : وأي الأشياء أقرّ لعينك ؟ قال : النساء هن فخوخي ومصائدي فإنّي إذا اجتمعت على دعوات الصالحين ولعناتهم صرت إلى النساء فطابت نفسي بهن . فقال له يحيى (عَلَيْهِ السّلام) : فما هذه البيضة على رأسك ؟ قال : بها أتوقى دعوة المؤمنين . قال (عَلَيْهِ السّلام) : فما هذه الحديدة التي أرى فيها ؟ قال : بهذه أقلب قلوب الصالحين . قال يحيى (عَلَيْهِ السّلام) : فهل ظفرت بي ساعة قط ؟ قال : لا ولكن فيك خصلة تعجبني . قال يحيى (عَلَيْهِ السّلام) : فما هي ؟ قال : أنت رجل أكول فإذا افطرت أكلت وبشمت فيمنعك ذلك من بعض صلاتك وقيامك بالليل . قال يحيى (عَلَيْهِ السّلام) : فإنّي أعطي الله عهداً إنّي لا أشبع من الطعام حتّى ألقاه . فقال له إبليس : وأنا أعطي الله عهداً إنّي لا أنصح مسلماً حتى ألقاه . ثم خرج فما عاد إليه بعد ذلك . الحديث ، وهو مروي عن طرق العامة أبسط من ذلك والروايات في أقسام إغواءاته وتزييناته عند أنواع المعاصي والذنوب بتصويرات عجيبة فوق حد الإحصاء وكل ذلك يشهد أنّها تمثلات مثالية منه لعنه الله غير مادية .

وبما تقرر يندفع ما ذكره بعضهم أنّا إذا عملنا سيئة فلا نجد في أنفسنا إلّا تصوراً للفعل وتصديقاً وجزماً وإرادة وتحريكاً للأعضاء بالعضلات ولم نجد أثر المؤثر آخر يسمى شيطاناً فليس إلّا القوى المادية لميلها إلى الشهوة والغضب والخواطر المنبعثة فالشيطان كناية عنها والوسوسة كناية عن الخواطر من حيث وقوعها في طريق الشر وهذا الكلام يطرد في جانب الملك والهامة كما لا يخفى .

ووجه الإندفاع ظاهر إذ الشيطان والملك في طول الإنسان

الطبيعي لا في عرضه حتى يتوجه ما ذكر .

ومن أجاب عنه بأن فعل الشيطان والملك الذكر والتذكير فلا يلزم ما أوردوه كأنّه غفل عن مئآت أو ألوف من الأخبار والآثار في أقسام تصرفاته لعنه الله أو أنه حمل جميعها على المجاز والإستعارة وسائر الصنائع الشعرية وحاشا مقام أئمة الإسلام عن ذلك .

ومن البرهان المذكور يظهر كيفية وجود الملائكة أعني العمالة منهم ويظهر أيضاً أن ذات الإنسان كالمؤلف من تصرفات ملكية أو شيطانية وليس له ذات مستقل منحاز .

ومن البرهان المذكور يظهر مع ملاحظة الأصول المقررة في محلّها أنه لعنه الله وجنوده وإن كان لهم تقدم على هذه النشأة لتقدم المثال على المادة إلّا أن لهم تأخراً ما وتعيناً ما بالمادة إذ تحقق المعصية بأنواعها يحتاج إلى تعين مادي .

ومن هنا ربّما يظهر وجه معنى شمول الخطاب بالسجدة لآدم (عَلَيْهِ السّلام) لإبليس لعنه الله مع أنه لم يكن من الملائكة والخطاب كان متوجهاً إليهم وأنّه كان في السماء إذ لم يكن إذ ذاك أرض متعينة بل لم يكن إلّا أسماء نورانية طاهرة وإنّما تعينت الأرض بعد وقوع المعصية قال سبحانه : ﴿ قال إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزائكم جزاءاً موفورا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ الآية ، فأرض آدم الأرض الطبيعية وأرض إبليس الأرض السابعة والأرض مع ذلك أرض واحدة إذ الإختلاف بالبطون والظهور لا يوجب الإختلاف حقيقة كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حي ﴾ الآية .

ومن هنا ربّما يظهر معنى ما ورد مستفيضاً من أئمة أهل البيت (عَلَيْهِم السّلام) كما في الكافي وتفسيري القمّي والعياشي بطرق متعددة ان إبليس كان مع الملائكة ولم يكن منهم وكانت الملائكة ترى أنّه منهم . الخبر وذلك لعدم ظهور معصيته ومخالفته إذ ذاك .

ومن هنا ربّما يظهر معنى تولد ذريته قال تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ الآية .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن النبيّ (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) في حديث : فقال إبليس لعنه الله ربّ هذا الذي كرّمت عليّ وفضّلته وان لم تفضل عليّ لم أقوَ عليه . قال : لا يولد له ولد إلّا ولد لك ولدان . الحديث ، وهذا على سبيل التكثير .

ويؤيده ما في تفسير العياشي مسنداً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : فقال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : والذي بعث محمداً للعفاريت والأبالسة على المؤمن أكثر من الزنابير على اللحم . الحديث .

وفي الكافي مسنداً عن أبان عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : لإبليس عون يقال له تمريح إذا جاء الليل ملأ ما بين الخافقين . الحديث ، وهو حديث غريب في معناه .

واعلم أن مثل هذا المعنى وارد في الملائكة أيضاً وأن لم يعبر عنه في الأخبار بالذرية والتولد ففي الكافي مسنداً عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن في الجنة نهراً يغتمس فيه جبرئيل كل غداة ثم يخرج منه فينتفض فيخلق الله عزّ وجلّ من كل قطرة منه ملكاً . الحديث . وهو مروي في حديث المعراج من طرق العامة والخاصة وهذا المعنى كثير في روايات العبادات أيضاً .

واعلم أن هذه المقابلة بين الملك والشيطان يوضح معنى ما ورد أن الملك مخلوق من النور والشيطان من النار قال تعالى : ﴿ خلقتني من نار ﴾ الآية حكاية عنه لعنه الله وفي الكافي مسنداً عن داود الرقي عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الله عزّ وجلّ خلق الملائكة من نور . الخبر .

تتمة :

ومما يتعلق مجال الشياطين قضية رجمها بالشهب قال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلاّ من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ الآيات .

وفي المجالس عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) كان إبليس يخترق السموات السبع فلمّا ولد عيسى حجب عن ثلاث سموات وكان يخترق أربع سموات فلمّا ولد رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) حجب عن السبع كلّها ورميت الشياطين بالنجوم . الحديث ، ومضمون الخبر مروي مشهور بين الفريقين .

وفي العلل مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إنما كان بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا لنعمة أنعم الله بها عليه فأدّى شكرها وكان إبليس في ذلك الزمان لا يحجب دون العرش فلمّا صعد عمل أيوب (عَلَيْهِ السّلام) بأداء شكر النعمة حسده إبليس لعنه الله . الخبر .

ويظهر منه أن عروجه لعنه الله إلى السموات لم يكن منحصراً في سماع الأخبار عن الملائكة وقد ذكروا في معنى هذه المسألة بعض الوجوه منها ما ذكره صدر المتألهين (قدّس سرّه) في المفاتيح من أراده فليرجع إليه .

والذي يظهر من معناها بما يناسب البناء على ما مرّ من الأصول أن يقال أن السموات السبع والأرضين السبع ما كانت منحازة في زمن الأنبياء السابقين كل الإنحياز ولا كانت شرائعهم مستوعبة للأعمال النازلة من السموات غير ما نزلت مما فوق السماء السابعة كأصل التوحيد والولاية والنبوة وبعض مما دونها بحسب استعداد الأمم الماضية فلمّا تولد المسيح عيسى بن مريم (عَلَيْهِ السّلام) منع إبليس لعنه الله من ثلاث سموات وهي السابعة والسادسة والخامسة وانحازت إذ ذاك ثلاث من الأرضين واستوعبت شريعته بتكميل شريعة موسى (عَلَيْهِ السّلام) من الأعمال بنسبة ذلك ثم لما تولد محمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) منع لعنه الله ببركته (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) من جميع السموات السبع وانحازت بذلك جميع الأرضين السبع وقذفت الشياطين بالشهب وانقطعت الكهانة واستوعبت شريعته المقدسة جميع الأعمال النازلة من السموات السبع فافهم إن كنت من أهله إن شاء الله .

واعلم أن الشياطين غير منحصرة في الجن بل ربما لحق بهم شياطين من الإنس أيضاً وهو الذي يقتضيه الأصول السابقة وهو الفناء في الشيطان قال تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ وقال تعالى : ﴿ من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ .

وفي قصص الرواندي مسنداً عن عبدالعظيم الحسني (عَلَيْهِ السّلام) عن علي بن محمد العسكري في حديث ظهور إبليس لعنه الله لنوح (عَلَيْهِ السّلام) فقال نوح (عَلَيْهِ السّلام) : تكلم . فقال إبليس لعنه الله : إذا وجدنا ابن آدم شحيحاً أو حريصاً أو حسوداً أو

جبّاراً أو عجولاً تلقفناه تلقف الكرة فإن اجتمعت لنا هذه الأخلاق سميناه شيطاناً مريداً .

هذا آخر ما أردنا إيراده من هذه المباحث على ما يسمح به الوقت ويسعه الباع والله المستعان وإليه المصير والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين .

وكان الفراغ ليلة الجمعة منتصف المحرم سنة ١٣٥٧
وفرغ عن كتابته في العشر الأوسط من شهر الصفر
سنة ١٣٦١ هجرية قمرية
ووقعت الكتابة في قرية شاد آباد من أعمال بلدة تبريز

رسالة الانسان
قبل الدنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة الإنسان قبل الدنيا

وهي الرسالة الأولى من كتاب الإنسان

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيّما محمد وآله الطاهرين .

هذه رسالة الإنسان قبل الدنيا نشير منها إلى ما جرى على الإنسان قبل هبوطه ووقوعه في ظرف الحياة الدنيا على ما دبّره العليم القدير على ما ينتجه البرهان ويستفاد من ظواهر الكتاب والسنة والله المعين .

فصل ١

قد تبين بالبرهان في الفلسفة الأولى أن العلية تقتضي قيام المعلول في وجوده وكمالاته الأولية والثانوية بالعلة وإن ذلك كلّه من تنزلات العلة دون النواقص والجهات العدمية .

وأيضاً إن عالم المادة مسبوق الوجود بعالم آخر غير متعلق بالمادة فيه أحكام المادة وهو علّته وبعالم آخر مجرد عن المادة وأحكامها هو علّة علته ويسميان بعالمي المثال والعقل وعالمي البرزخ والروح .

ويستنتج من ذلك ان الإنسان بجميع خصوصيات ذاته وصفاته وأفعاله موجود في عالم المثال من غير تحقق أوصافه الرذيلة وأفعاله السيئة ولوازمه الناقصة وجهاته العدمية فهو كان موجوداً هناك في أهنأ عيشٍ وأقر عين في زمرة الطاهرين وصفّ الملائكة المقدسين مبتهجاً بما يشاهده من نور ربّه ونورانية ذاته وتشعشع أفقه ملتذّاً بمرافقة الأبرار ومسامرة الأخيار لا يمسّه فيها تعب ولا لغوب ولا يتكدر بكدورات النواقص والعيوب لا حجاب بينه وبين ما يشتهيه ولا ألم ولا ملال يعتريه .

فصل ٢

وظواهر الكتاب والسنة تدل على ما مرّ قال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين ﴾ ففرق سبحانه بين الخلق والأمر فعلمنا أن الخلق غير الأمر بوجه وليس الأمر مختصاً بآثار أعيان الموجودات حتى تختص الأعيان بالخلق وآثار الأعيان بالأمر لقوله سبحانه : ﴿ قل الروح من أمر ربّي ﴾ فنسب سبحانه الروح وهو من الأعيان إلى الأمر ، وقوله تعالى : ﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أفاد إنّ أمره هو إيجاده بكلمة كن سواء كان عيناً أو أثر عين وحيث ليس هناك إلّا وجود الشيء الذي هو نفس الشيء تبين في إن كلّ شيء أمراً إلهياً .

ثم قال سبحانه : ﴿ إنّا خلقناكم من طين لازب ﴾ وقال : ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ وغير ذلك من الآيات المفيدة إن الخلق بالتدريج .

وقد قال سبحانه : ﴿ وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وقال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفسٍ واحدة ﴾ وقال : ﴿ ما

أمر الساعة إلاّ كلمح البصر ﴾ فأفاد عدم التدريج في الأمر .

تبين بمجموع الآيات إن الأمر أمر غير تدريجي بخلاف الخلق وإن كان الخلق ربّما استعمل في مورد الأمر أيضاً .

وبالجملة ففيما يتكون بالتدريج وهو مجموع المجودات الجسمانية وآثارها وجهان في الموجود الفائض من الحق سبحانه وجه أمري غير تدريجي ووجه خلقي تدريجي وهو الذي يفيده لفظ الخلق من معنى الجمع بعد التفرقة .

وقد أفاد قوله سبحانه : ﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ﴾ الآية ، إن الأمر سابق على الخلق وأن الخلق يتبعه ويتفرع عليه وهو الذي يفيده قوله سبحانه : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ فعمل الملائكة وهم المتوسطون في الحوادث بواسطة الأمر .

فتحصل من الجميع أن فوق عالم الأجسام وفيه نظام التدريج عالماً آخر يشتمل على نظام موجودات غير تدريجية أي غير زمانية يتفرع كل موجود زماني من مظروفات نظام التدريج على ما هنا لك من الموجودات الأمرية وهي محيطة بها موجودة معها قائمة عليها كما يفيده (فالتدبير وهو الإتيان بالأمر دبر الأمر وعقيبه يصدر من العرش أولاً ثم يتنزل الأمر من سماء إلى سماء وقد أوحى إلى كل سماء ما يختص بها من الأمر فإن الأمر كلمته سبحانه فإلقائه إلى شيء وحي منه إليه ولا يزال يتنزل سماءاً سماءاً حتى ينتهي إلى الأرض ثم يأخذ في العروج فهذا هو المتحصل من الآيات) قوله سبحانه : ﴿ ثم استوى على العرش يدبّر الأمر ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ثم استوى

إلى السماء ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ فقضيهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾ الآيات .

وهي مع ذلك تفيد أن الأمر في تنزله ذو مراتب فإنّه سبحانه أخبر عن أن التنزل بينهن فللتنزل نسبة إلى كل واحدة منها لوقوعه من عال إلى سافل حتى ينتهي إلى آخرها فيتجاوزها إلى الأرض وهو قوله سبحانه : ﴿ يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ وهذه حال الأمر بعد تقديره بالقدر والمقادير ومحدوديته بالحدود والنهايات كما قال سبحانه : ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ وهناك وجود أمري غير محدود ولا مقدر ينبىء عنه قوله سبحانه : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم ﴾ الآية حيث أفاد إن لكل شيء من الأشياء وجوداً مخزوناً عنده سبحانه وإن تنزله إنّما هو بقدر معلوم والآية حيث تفيد أن التنزل يلازم التقدير بالمقدار أفادت أن الخزائن التي من كلّ شيء عنده سبحانه وجودات غير محدودة ولا مقدرة فهي من عالم الأمر قبل الخلق .

وحيث عبّر سبحانه بلفظ الجميع المشعر بالكثرة فلابد أن يكون الإمتياز بين أفرادها بشدة الوجود وضعفه وهو المراتب دون الإمتياز الفردي بالمشخصات مثلّ الأفراد من نوع واحد وإلّا وقع الحد والقدر وقد أنبأ سبحانه أن لا قدر قبل التنزل ففي هذا القسم من الموجود الأمري الغير المحدود أيضاً مراتب واقعة .

وليس التنزل عن هناك كيفما كان بالتجافي وتخلية المكان السابق بالنزول إلى اللاحق لقوله سبحانه : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ﴾ الآية وهذه الموجودات الغير المحدودة حيث لا حدّ لها ولا بينها فيها موجودة جميعاً بوجود واحد على كثرتها ومشتملة على جم

الكمالات التي في عالمها ولا خبر ولا أثر هناك عن الإعدام والنواقص التي تفيدها المادة والإمكان أو الجد والفقدان .

ولا تزال تتنزل عن مرتبة إلى مرتبة حتى تشرف على عالم الأجسام وهي في جميع مراحلها مشتملة على جمل الكمالات مبراة عن النواقص غير أنّها في كل مرتبة بحسب ما يقتضيه حال المرتبة من قوة الموجود وضعفه ولا حجاب ولا غيبوبة بل أشعة الكل واقعة من الكل على الكل ومنعكسة من الكل إلى الكل فهي أنوار طاهرة ولذلك وصف سبحانه الروح الذي هو من عالم الأمر بالطهارة والقدس فقال : ﴿ وأيّدناه بروح القدس ﴾ وقال : ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ وحكى سبحانه ذلك عن الملائكة فقال سبحانه : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك ﴾ الآية ، أي نظهر قدسك وطهارتك عن النواقص بذواتنا وأفعالنا حيث إن ذواتنا بأمرك وأفعال ذواتنا بأمرك كما يومي إلى جميع المرحلتين قوله سبحانه : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ الآيات ، فالآية الثانية فرع للأولى فهو أكرام ذاتي لهم هذا وليس في أعمالهم إلاّ حيثية الأمر إذ هو المصحح للثناء عليهم وإكرامهم منه سبحانه وإلاّ ففي كل فعل من كل فاعل أمر منه سبحانه كما يستفاد من قوله سبحانه : ﴿ ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء ﴾ وقوله : ﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ الآيات ، فتخصيصه سبحانه عملهم بالذكر بأنّه بأمره سبحانه ليس إلاّ لأن عملهم لا جهة فيه إلاّ جهة الأمر وكذلك ذواتهم ويشير إليه آيات أُخر كقوله تعالى : ﴿ قل كلا يعمل على شاكلته ﴾ وقوله : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وقوله : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته

بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وأيضاً فإن الملائكة لم تقل : أتجعل فيها من يفسد . . . الخ ولم يستفد صدور هذه المعاصي إلّا بالإستفادة من قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ إن الخلافة وهي قيام الشيء مقام آخر ونيابته عنه تقتضي إتصاف الخليفة باوصاف الحق سبحانه وهي محمودة مقدسة لا يصح في قباله دعواهم : ﴿ إنّا نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ فلم يبق للإستناد إلّا الجعل في الأرض فمن هنا فهموا أنه سيؤثر في أفعاله وسيتلون بكدورة الأرض وظلمات الطين ذاته ولذلك عبّروا عن الخليفة بالموصول والصلة فقالوا : من يفسد فيها ويسفك الدماء وهو الإسم فيكون مقابلته بدعواهم : ﴿ إنّا نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ مقابلة بالإسم فهم طاهرون مقدسون في أسمائهم أي ذواتهم من حيث الوصف وهو المطلوب فافهم .

ولنرجع إلى ما كنّا فيه وبالجملة فعالم الأمر عالم القدس والطهارة وسمّي بالأمر لكونه لا يحتاج في وجوده إلى أزيد من كلمة كن ومن هنا ربّما يعبّر سبحانه عنه بالكلمة كقوله : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ كما يعبّر عن القضاء المحتوم بالكلمة كقوله : ﴿ وكذلك حقّت كلمة ربّك على الذين كفروا أنّهم أصحاب النار ﴾ وقال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنّهم لهم المنصورون وأنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ الآيات . والقضاء من عالم الأمر عنه وقد اطلق عليه الأمر كثيراً كقوله سبحانه : ﴿ أتى أمر الله ﴾ وقوله : ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ وقوله : ﴿ والله غالب على أمره ﴾ إلى غير ذلك وقال سبحانه : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ الآية ، إذ التبديل فرع قبول التغير الذي هو من لوازم المادة والقوة وعالم الأمر

كما عرفت مبرّى منها وقال سبحانه : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدادا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ الاية .

فتبين من جميع ذلك أن عالم الأمر مؤلف من عوالم كثيرة مترتبة بعضها لا تحديد ولا تقدير لموجوداتها غير أنّها معلولة له سبحانه بل هي موجودات طاهرة نورية متعالية دائمة غير نافذة ولا محدودة وبعضها يشتمل على موجودات نورية طاهرة غير نافذة لكنها محدودة ويشتمل الجميع على جميع كمالات هذه النشأة الجسمانية ولذائذها ومزاياها بنحو أعلى وأشرف غير مشوب بنواقص المادة وإعدامها وكدوراتها وآلامها ولا حجاب يحتجب الحق سبحانه به عنها كل ذلك بحسب وجودهم ومراتب ذواتهم .

ثم إن الحق سبحانه بين أن الروح من هذا العالم فقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً ﴾ ومما مرّ من البيان تعرف أن قوله سبحانه : ﴿ قل الروح من أمر ربّي ﴾ يشتمل على بيان الحقيقة وليس استنكافاً عن الجواب والبيان فبين سبحانه إن الروح موجود أمري غير خلقي كما يومي إليه قوله تعالى : ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فظهر بذلك أنّه مشارك مع سائر موجودات عالم الأمر في شؤونهم وأوصافهم وأطوارهم ثم قال سبحانه : ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي ﴾ فبين ان الروح كان غير البدن وانّه إنّما سكن هذه البنية بالنفخ الربّاني وهبط إليه من مقامه العلوي ثم قال سبحانه : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ .

فبان بذلك أن هذا الطائر القدسي سيترك هذه البنية المظلمة

بجذب ربّاني كما سكنها أولاً بنفخ ربّاني وقد قال سبحانه : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمى ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنّا لفي خلق جديد ﴾ زعماً منهم أنهم هم الأبدان وهي تتلاشى وتضل في الأرض فقال سبحانه : ﴿ بل هم بلقاء ربّهم كافرون قل يتوفيكم ملك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ الآية .

فبيّن سبحانه أن الذي يلقى الله تعالى ويتوفّاه ملك الموت أي يأخذه ويقبضه هو روحهم وهو نفسهم المدلول عليها بلفظ كم فما يحكي عنه الإنسان بلفظ أنا هو روحه وهو الذي يقبضه الله ويأخذه بعد ما نفخه وهو غير البدن ثم قال سبحانه : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وقال سبحانه : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ فبيّن أن للروح مع ذلك اتحاداً امّا مع البدن في هذه الحياة الدنيا فهو هو ويشير إليه ما في العلل مسنداً عن عبدالرحمن عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : قلت لأي علّة إذا خرج الروح من الجسد وجد له مسّا وحيث ركبت لم يعلم به ؟ قال : لأنّه نما عليها البدن . وقال سبحانه : ﴿ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ وقال سبحانه : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ الآية .

فبين سبحانه أنّه ملك الروح بعد توحيده مع البدن وإعطائه جوارح البدن وأعضائه قوى سامعة وباصرة ومتفكرة عاقلة وتمم له إذ ذاك جميع الأفعال الجسمانية التي ما كان يقدر على شيء منها لولا هذا الإعطاء والجعل وهيّأ سبحانه له جميع التصرفات الجسمانيّة في عالم الإختيار وسخّر له ما في السموات والأرض وسخّر له الشمس والقمر دائبين وسخّر له الليل والنهار قال سبحانه : ﴿ مسخّرات بأمره ﴾

فالتسخير والتدبير للأمر وبالأمر دون الخلق وإنّما للخلق وهو مجموع عالم الأجسام الآلية والأداتية قال تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ الآية .

فهذا أول الفروق التي يفترق بها الروح عن الملائكة وهما جميعاً من عالم الأمر فالروح موجود مجرد محلّى بحلل الكمالات الحقيقية مبرّى عن القوة والإستعداد والمنقصة والعدميات منزّه عن الإحتجاب بحجب الزمان والمكان سائر في مراتب الأمرومدارج النور وهو مع ذلك يقبل أن ينزل عن عالمه إلى هذا العالم فيتحد بالأجسام ويتصرف في جميع الأنحاء الجسمية والجهات الإستعدادية والإمكانية بالإتحاد من غير واسطة بخلاف الملائكة فإنّهم محدودو الوجود بعالم الأمر لا يجاوزون أفق المثال .

ثم أنّه سبحانه قال : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم منّي هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار وهم فيها خالدون ﴾ الآية

فبين أن هبوطهم إلى الأرض يوجب إنشعاب الطريق إلى شعبتين شعبة السعادة وشعبة الشقاوة وتفرقهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ثم قال سبحانه : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار ﴾ .

فبين أن طريق الشقاوة في الحقيقة هلاك وبوار فهناك منتهى سفرهم من عالم القدس وأما طريق السعادة فهو الحياة الجارية الدائمة قال تعالى : ﴿ إن لهم قدم صدقٍ عند ربّهم ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليه الضلالة ﴾ .

فبين أن الفريقين يعودان على ما كانا عليه قبل النزول والهبوط وتبيّن به أن أصحاب الشقاء يعيشون ويحيون بعد العود عيشاً في صورة البوار وحياة في صورة الموت قال سبحانه : ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وإن أصحاب السعادة يعودون إلى ما كانوا عليه من الحياة الطيبة قال تعالى ﴿ فلنحيينه حيوة طيبة ﴾ وهم الذين يؤجرون بأعمالهم الناشئة عن ذواتهم السعيدة ويزيدهم الله من فضله ليجزيهم الله أحسن ما علموا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب فغاية هذا السير والسرى والهبوط والنزول من فريق الروح هلاك بعضهم في الدنيا ورجوع بعضهم إلى مقامه الشامخ الأول مع مزايا اكتسبها قال تعالى : ﴿ قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهّار أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار إبتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاءاً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ الآيات .

وهذا هو الفرق الثاني بين الروح والملائكة فالروح بواسطة نزوله إلى هذه النشأة وإقامته فيها يقع على مفترق طريقين ومنشعب خطّين غاية أحدهما البوار والهلاك وغاية الآخر التمكن في معارج العليا وجنّة الخلد ومقام القرب والملائكة بخلاف ذلك فليس لهم إلاّ خط واحد وهو خط السعادة .

واعلم إنّا قد فصّلنا القول في رسالة الأفعال في باب السعادة والشقاوة أن محتد هذه المعاني ومنشعب السعادة والشقاء قبل نشأة المادة . هذا :

ثم إنّه سبحانه قال في وصف المؤمنين : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ﴾ فعلمنا إن هناك روحاً آخر غير ما

يشترك فيه جميع أفراد الإنسان يختص به المؤمنون وهو المسمى بروح الإيمان وقال سبحانه : ﴿ فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ فعبّر عنه بكلمة التقوى وبين أن هذا الروح يلازم التقوى .

وفي الكافي مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن للقلب أذنين فإذا همّ العبد بذنب قال له روح الإيمان لا تفعل وقال له الشيطان إفعل ، وإذا كان على بطنها نزع منه روح الإيمان . الحديث .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ فعبّر عنه بالنور وبيّن ذلك في آيات أُخر .

ثم قال سبحانه : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ الآيات .

فبين أن هناك روحاً آخر يختص به الرسل (عَلَيْهِم السّلام) وهو نور يهتدي به الغير كما أن روح الإيمان نور يهتدي به الإنسان في نفسه .

وقوله : ﴿ ما كنت تدري . . . ﴾ الخ ، يبيّن أن هذا الروح مهيمن على روح الإيمان حيث يفيد علم الكتاب ونور الإيمان فظهر أن اختلاف الروحين إنّما هو بشدة الوجود وضعفه وليس بالإختلاف الشخصي .

وقوله : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم ﴾ إشارة إلى أن

بينه وبين الروح الإنساني اتحاداً فالإختلاف بينهما أيضاً بالشدة والضعف دون الشخص فما هناك إلّا روح واحد .

ثم قال سبحانه : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ الآية ، فبين بذلك أن الروح أرفع منزلة من الملائكة وأنّه يتحد معهم قائماً عليهم كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك ﴾ وقال سبحانه : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ وقال سبحانه : ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ الآيات .

فعبّر سبحانه في كلامه تارة بالروح وتارة بجبرئيل (عَلَيْهِ السّلام) وهو بعطي الإتحاد الذي ذكرناه وأنت تعلم أن هذا غير الإتحاد والحلول المقدّس عنه ساحة الوجود .

وفي البصائر مسنداً عن الحسن بن إبراهيم عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن علم المعالم فقال : إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح روح البدن وروح القدس وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان وفي المؤمنين أربعة أرواح إنما فقدوا روح القدس ، روح البدن وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان . وفي الكفار ثلاثة أرواح روح البدن وروح القوة وروح الشهوة . ثم قال (عَلَيْهِ السّلام) : وروح الإيمان يلازم الجسد ما لم يعمل بكبيرة فإذا عمل بكبيرة فارقه الروح وروح القدس من سكن فيه فإنّه لا يعمل بكبيرة أبداً .

وفي تفسير العياشي عن الصادقين (عَلَيْهِما السّلام) في قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الروح ﴾ الآية ، إنما الروح خلق من خلقه له بصر وقوة وتأييد يجعله في قلوب المؤمنين والرسل . الحديث ، وفي إشعار ما بإتحاد الروحين .

ويؤيده ما رواه العياشي أيضاً في الآية عن أحدهما (عَلَيْهِما السّلام) : سئل عن الروح ، قال : التي في الدواب والناس . قيل : وما هي ؟ قال : هي من الملكوت من القدرة .

وفي تفسير القمّي عن الصادق أنّه سئل عن هذه الآية فقال : خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) وهو مع الأئمة ، هو من الملكوت .

وفي تفسير العياشي عنه (عَلَيْهِ السّلام) أنه سئل عنها فقال : خلق عظيم أعظم من جبرئيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) ومع الأئمة يسدّدهم وليس كلّما طلب وجد . الحديث ويستشم منه أن الروح المؤيد به الرسل (عَلَيْهِم السّلام) أيضاً ذو مراتب .

وفي تفسير القمّي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : أن الروح أعظم من جبرئيل وأن جبرئيل من الملائكة وأن الروح هو خلق أعظم من الملائكة أليس يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ .

وفي تفسير القمّي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) وفي الكافي عن الكاظم (عَلَيْهِ السّلام) : نحن والله المأذونون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً . قيل : ما تقولون إذا تكلمتم ؟ قالا : نمجّد ربّنا ونصلّي على نبينا ونشفع بشيعتنا ولا يردنا ربّنا . الحديث . يشيران (عَلَيْهِما السّلام) إلى قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ الآية ، وفيه من الإشارة إلى توحيد الأرواح ما يخفى .

وهذا هو الفرق الثالث بين الملائكة والروح فالروح من الأمر وهو أرفع درجة من الملائكة ومهيمن عليهم والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ الآية مع كون الملائكة قائمة بالروح ومتحداً ذاتاً وفعلاً به كما مرّ يعطي أنّهم أنوار إلهية وحينئذ فيتضح إتضاحاً ما قوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ الآية ، وقوله سبحانه : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ الآية ، وقوله سبحانه : ﴿ مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنّها كوكب درّي ﴾ إلى قال تعالى : ﴿ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ ولنقتصر على هذا المقدار من الكلام والله الهادي .

خاتمة :

تناسب ما مرّ من الكلام ، قال سبحانه : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

قوله سبحانه : ﴿ قالوا أتجعل فيها ﴾ ظاهر في أنّهم قايسوا خلافة خليفة الأرض على خلافتهم السماوية وذكروا إن الخلافة السماوية خلافة تامة تظهر تنزه الحق سبحانه وقدسه بخلاف خلافة الأرض فإن فيها ظهور الفساد وسفك الدماء وبالجملة السيئات التي أخبر الحق سبحانه في كتابه بأنّها ليست منه وذلك يوجب تغيراً في حقيقة الخلافة وعدم بقائه على قدسه حتى يحكي كمال الحق بما يليق

بقدس ذاته سبحانه وذلك كان كالإستفسار منهم لكيفية هذه الخلافة مع هذه النواقص دون الإعتراض عليه وتخطئته سبحانه .

والدليل على ذلك قولهم : ﴿ إنّك أنت العليم الحكيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قال إنّي أعلم ما لا تعلمون ﴾ بيان لنفص خلافتهم بان اسم العلم لم يظهر فيهم تمام الظهور وليس من قبيل الإسكات كما يقوله أحدنا لمن ينكر شيئاً من أمره إنّي أعلم ما لا تعلمون .

ويشرح ذلك قوله سبحانه : ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم ﴾ يظهر من السياق أن هذه الأسماء كلّها موجودات حية عالمة عاقلة وأنّهم عين الأسماء التي علّمها سبحانه آدم (عَلَيْهِ السّلام) كما إن الإسم عين المسمّى وإن الذي علّمه هو جميع الأسماء وهي حية عالمة فالمراد بالأسماء غير الألفاظ قطعاً بل الذوات من حيث إتصافها بصفات الكمال وهي ظهوراتها التي يتفرع على ذواتها يدل عليه قوله : ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ وقوله : ﴿ فلمّا أنبأهم بأسمائهم ﴾ وحينئذ [1] فينطبق على قوله سبحانه : ﴿ وإن من شيءٍ إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم ﴾ فهؤلاء الأسماء هي خزائن الغيب التي هي غير محدودة ولا مقدرة وفيها كل شيء .

ويظهر من هنا إن هؤلاء الملائكة المخاطبين إنّما كانوا هم الذي لا يرقى وجودهم عن عالم التقدير والحدود ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ إنّي أعلم ما لا تعلمون ﴾ وقوله : ﴿ إنّي أعلم غيب السموات والأرض ﴾ .

(١) والشاهد على ذلك انّه سبحانه كرّر قوله : ﴿ إنّي أعلم ما لا تعلمون ﴾ بتبديله بقوله : ﴿ إنّي أعلم غيب السموات والأرض ﴾ فللسموات والأرض غيب كما انّ لها شهادة والأسماء التي علّمها سبحانه ادم (عَلَيْهِ السّلام) هم غيبها فافهم منه .

وبهذا يتضح ما في بعض الأخبار أن لله ملائكة لم يشعروا أن الله خلق عالماً ولا آدماً .

وما في أخبار أُخر أن الملائكة لما عرفوا خطأهم في قولهم لاذوا بالعرش ثم قال سبحانه في موضع آخر من كتابه : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ﴾ والمفاتح هو الخزائن أو مفاتيحها فعلم آدم إنّما هو علمه سبحانه المحجوب عن الملائكة وهذا لا يتحقق بغير الولاية كما حقق في محله فالذي صنعه سبحانه هو أنّه وضع في جبلة آدم الولاية والتخلق بجميع الأسماء والصفات في جميع الأسماء وقد حجب عنه الملائكة ولم يصيروا بعد إنباء آدم إيّاهم الأسماء مثل آدم وإلّا لم يصح الجواب الذي أجاب به سبحانه عنهم وهو واضح .

ثم اعلم أنّه سبحانه لم يذكر قصة هذه المخاطبة في كتابه في أزيد من موضع واحد من سورة البقرة بل بدّل هذا التفصيل بنحو قوله سبحانه : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي ﴾ فيظهر أن قوله : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ يشتمل على إجمال ما يفصله قوله سبحانه : ﴿ وعلّم آدم الأسماء . . . ﴾ الخ ويظهر منه حقيقة هذا الروح الذي نفخه سبحانه ووجه تخصيصه بنفسه بقوله : ﴿ من روحي ﴾ ولم يرد في القرآن إضافة الروح إليه سبحانه إلّا في قصة آدم والباقي على غير هذا النحو من الإضافة كقوله سبحانه : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وقوله : ﴿ وأيّدناه بروح القدس ﴾ الآيات ، وقوله سبحانه : ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ يشعر بأنه كان هناك أمر ما مكتوم وقوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ الآية . حيث عبّر بقوله : ﴿ وكان

من ﴾ كالبيان لهذا الأمر المكتوم ولذا ورد في الروايات كما في تفسيرالقمّي وغيره أن المراد مما كانوا يكتمون ما كان يضمره إبليس من عدم السجدة لآدم (عَلَيْهِ السّلام) .

وقد بيّنا في رسالة الوسائط أن هذه النشأة المتقدمة على الدنيا لا يتمايز فيها السعادة والشقاوة وإنما موطن التمايز ومبدأه الدنيا ولذلك فحال إبليس هناك حال سائر الملائكة وقد شمله الخطاب بالسجود كما يفيده الإستثناء ثم تميز إبليس من الملائكة وصار رجيماً ويستشعر ذلك من قوله سبحانه : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ إلى أن قال : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم مني هداً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ الآيات .

فقوله : ﴿ قلنا اهبطوا منها . . . ﴾ الخ وقال سبحانه في موضع اخر : ﴿ قلنا اهبطا ﴾ .

وفي رواية القمّي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : ولم يدخلها إبليس . الحديث .

وقال سبحانه بعد حكاية آبائه عن السجدة : ﴿ قال اخرج منها فإنّك رجيم ﴾ يوجب إشكالاً في كيفية وسوسته لعنه الله في الجنة وهو ممنوع من وروده ووسوسته لآدم وهو معصوم وينحل الإشكال بما ذكرناه من عدم تميز السعادة والشقاوة قبل الهبوط فافهم .

ويظهر منه إن عصيان آدم لم يكن بالعصيان المنافي لعصمته (عَلَيْهِ السّلام) وإنما هو عصيان جبلي ذاتي وهو اختياره الهبوط إلى الدنيا وهو ترك عالم النور والطهارة واختيار الظلمة والكدورة وإليه يلمح قوله سبحانه : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ وهذا معنى قوله سبحانه : ﴿ وعصى آدم ربّه فغوى ﴾ الآية ، والدليل عليه قوله سبحانه بعده : ﴿ ثم اجتبيه ربّه فتاب عليه وهدى ﴾ الآية ، وقد قال سبحانه : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ولو كانت معصيته (عَلَيْهِ السّلام) معصية فسق لكانت جنّته دار إختيار فكانت من دار المادة والظلمة فكانت في الأرض دون السماء على ما سيجيء .

وقوله سبحانه : ﴿ قلنا اهبطوا منها ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ سياق الكلام يعطي أن الهبوط إنما كان من غير الأرض وهو السماء إلى الأرض وهو ظاهر قوله في موضع آخر : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ الآية . ويدل عليه قول علي (عَلَيْهِ السّلام) في احتجاجه على الشامي حين سأله عن أكرم وادٍ على وجه الأرض فقال (عَلَيْهِ السّلام) له : وادٍ يقال له سرانديب سقط فيه آدم من السماء .

وفي النهج في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) يصف فيها قصة آدم (عَلَيْهِ السّلام) : ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقيه كلمة رحمته ووعده المرد إلى جنته فاهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية . الخطبة .

يشير (عَلَيْهِ السّلام) بقوله : « ووعده » إلى قوله سبحانه : ﴿ فإمّا يأتينّكم منّي هدىً فمن تبع . . . ﴾ الخ وقوله : ﴿ ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى ﴾ الآية .

ومن الممكن أن يكون قوله سبحانه : ﴿ قلنا اهبطوا منها

جميعاً . . . ﴾ تلميحاً إلى أن ذرية آدم مشاركون مع أبيهم في الخروج عن الجنة بعد دخولها .

ويؤيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ فإمّا يأتينّكم منّي ﴾ فإن إبليس يائس من رحمته وقد قال فيه : ﴿ قال فالحق والحق أقول لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ فلا يبقى للخطاب إلّا آدم وزوجته والخطاب لهم إنّما هو بالتثنية دون الجمع .

وما في بعض الروايات أن في الهابطين حية كان إبليس ألقى وسوسته إليها في الجنة بواسطتها لا يصحح الخطاب الجمع فإن الحية وهي غير مكلفة بتكليف آدم وزوجته خارجة عن الخطاب قطعاً فليس إلّا أن الحكم لآدم وزوجته وذريتها وقد قال سبحانه في موضع من كتابه : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ الآية .

وكيف كان فظاهر سياق الآيات أن دخولها الجنة كان بعد تسويتها والنفخ والسجود وهو المتحصل بل الصريح من الروايات .

ومما في بعض الروايات وهي روايتان أو ثلاثة أنّه سبحانه نفخ في خلق آدم يوم الجمعة وأدخله الجنة بعد الظهر من يومه ذلك وما لبث في الجنة إلّا ست ساعات من النهار أو سبعاً حتى خرج منها .

ويظهر من الجميع أن ذلك كان حالاً برزخياً له ولزوجته (عَلَيْهِما السّلام) وتمثل لهما الشجرة المنهية فيها فأكلا منها وظلما أنفسهما وكان ذلك منهما هبوطاً إلى الأرض وحياة فيها وظهور سوآتهما .

وورد في الخبر أنّها كانت شجرة الحنطة والسنبلة ، وورد أيضاً أنّها كانت تحمل جميع الأثمار كسائر أشجار الجنة وورد أنّها كانت شجرة علم محمد وآله وولايتهم .

وهذه التعبيرات جميعها مستقيمة واضحة عند الممارس المستأنس بالتعبيرات المتشابهة التي وردت في الشرع .

وعلى أي حال كانت شجرة كان أصلها يستوجب الهبوط إلى الدنيا وحيث أن الغاية فيها هي التحقق بعلم الأسماء كلّها كما يتبين من سابق الآيات وهي الولاية فلذلك عبّر عنها تارة بشجرة الحنطة وتارة بشجرة تحمل كل ثمرة وتارة بشجرة علم محمد وآله .

ويمكن أن يكون شجرة الحنطة والإنسان يعيش بها فيؤول إلى تمثل الحياة الدنيا له (عَلَيْهِ السّلام) ويؤيده قضية ظهور السوأة وبدوّها ووريَ عنها والله العالم .

ويمكن أن يكون إلى ما مرّ الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولا ﴾ الآية .

فقوله سبحانه : ﴿ أنّه كان ظلوماً ﴾ يحكي عن ظلم سابق وجهالة سابقة فموطن هذا العرض إن كان هو الوجود الدنيوي فالظلم في نشأة سابقة والأمانة هي التكليف كما يفسره به بعض الروايات وإن كان قبل الوجود الدنيوي فالظلم قبلها بطريق أولى والأمانة هي الولاية كما يفسره بعض آخر من الروايات وكلاهما صحيحان فإن الدنيا جارية على ما جرى عليه الأمر قبلها من سعادة وشقاوة .

وقوله سبحانه بعده : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ الآية بيان لغاية عرض الأمانة وقد قسم الإنسان بقسمين مؤمن ومنافق إشعاراً بأن الكل حاملون فمنهم من حمله ظاهراً وباطناً ومنهم من

حمله ظاهراً لا باطناً ومعلوم إن ظاهر تلك النشأة باطن في هذه النشأة وبالعكس فالكافر في هذه النشأة كافر في ظاهر لكنه معترف بجبلته وفطرته ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ وبالجملة فتنطبق الآيتان على قضية أخذ الميثاق وقد شرحناها بعض الشرح في رسالة الأفعال وهي الرسالة الثالثة من كتاب التوحيد .

تمّ الكلام ولله الحمد وعلى رسوله وآله الصلاة والسلام
ليلة الأحد لعشرين خلون من شهر صفر الخيـــــــر
وهي ليلة الأربعين المقدسة من سنة واحد وستين
وثلاثمائة وألف قمرية من الهجرة
ووقعت الكتابة في قرية شاد آباد من أعمال بلدة تبريز

رسالة الانسان
في الدنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة الإنسان في الدنيا
من كتاب الإنسان وهي الرسالة الثانية

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيّما محمد وآله الطاهرين .

هذه رسالة الإنسان في الدنيا نضع فيه إجمال القول في ما يصير إليه حال الإنسان في وروده في دار الحياة الدنيا بعد ما كان عليه قبل الدنيا مما عرفنا ملخصه في رسالة الإنسان قبل الدنيا والله سبحانه هو المستعان .

فصل ١

اعلم أن المعاني التي عندنا وهي صور علومنا الذهنية على قسمين :

أحدهما المعاني التي تقع على الموجودات الخارجية في نفسها مطابقة بها ومعها بحيث أنّها في نفسها كذلك سواء إنتزعنا منها تلك المعاني وتعقلناها وأوقعنا عليها هذه المعاني أولاً وذلك كمعنى الأرض

والسماء والكواكب والإنسان فإن مطابقات هذه المعاني موجودة في الخارج في نفسها سواء انتزعنا منها هذه المعاني وتعقلناها في أذهاننا وأوقعنا المعاني المنتزعة عليها أولاً وهذه المعاني هي التي نسميها الحقائق .

وثانيهما المعاني التي نوقعها على الأمور الخارجية لكنها بحيث لو أغمضنا وقطعنا النظر عن التعقل والتصور لم يكن لها في الخارج تحقق ولا لها وقوع وذلك كمعنى الملك مثلا فإنّه معنى به يتمكن المالك من انحاء التصرفات في العين المملوك من غير أن يزاحمه فيها أحد من نوعه وكمعنى الرئاسة فإنها معنى بها يتمكن الإنسان الرئيس من إدارة الأمور في حوزة رئاسته وجلب طاعة مرؤوسيه لكنّا إذا تأملنا في مورد هذين المعنيين لم نجد هناك في الخارج إلّا إنساناً وعينا خارجية مثلاً ولم يكن لولا تعقلنا وتصورنا في الخارج عين ولا أثر من معنى الملك والمالك والمملوك والرئاسة والرئيس والمرؤوس ولذلك نرى في هذا القسم من المعاني من التغير والتبدل والإختلاف بحسب اختلاف أنظار العقلاء ما لا يتحقق ذلك في قسم الحقائق البتة فترى أمّة من الناس تعقد على ملكية شيء لا تعقد عليها آخرون ويذعن برئاسة إنسان لا يذعن بها فيه آخرون والحقائق لا يمكن فيها ذلك فالإنسان إنسان عند الكل ودائماً وسواء تعقلوا معنى إنّه إنسان أو لم يتعقلوا ذلك .

وهذه المعاني غير الحقائق حيث إنّها ليست في الخارج حقيقة ففي الذهن لكنها ليست متحققة في الذهن بإيجاده واختلافه إياها من غير استعانة بالخارج فإن الذهن يوقعها على الخارج بتوهمها إنّها في الخارج ووقوعها على الأمور الخارجية على وتيرة واحدة من غير اختلاف وتغير من هذه الحيثية فالكلام وهو الصوت المؤلف الدال

على معنى بالوضع كلام ولا يصدق عليه الملك مثلا والرئاسة مثلاً ولا غيرها ولو كانت بإيجاد من الذهن من غير ارتباط واستعانة من الخارج لكانت أما غير صادقة على الخارج أصلاً وأما واقعة على جميع ما في الخارج لإستواء النسبة مع عدم الرابطة .

فثبت إن إنتزاع الذهن إيّاها إنّما هو بالإستعانة من الخارج أي من المعاني الحقيقية التي عند الذهن وحيث إن هذا الإرتباط ليس بالحقيقي لعدم تحققها في الخارج فهو وهمي بتوهم الذهن إنّها هي المعاني الحقيقية وهي إعطاء حد الأمور الخارجية لها فهذه المعاني تتحقق بإعطاء الذهن حد الأمور الحقيقية لما ليس لها ووضعها فيما ليست فيه فهي معانٍ سرابية وهمية مثلها بين المعاني مثل السراب بين الحقائق والأعيان وهذا القسم من المعاني هي التي نسميها بالإعتباريات والوهميات والقسم الأول خارجية حقيقية وهذا القسم الثاني ذهنية وهمية غير حقيقية هذا .

ثم إنّا إذا أخذنا نتأمل الموجودات الخارجية الحقيقية وركزنا التأمل في كل واحد منهـــا بالأخذ بمجموع دائرة وجوده من حين يظهر في الوجود ثم يديم بقاءه وحياته المختصة به حتى ينتهي إلى البطلان والعدم ورددنا كل أمر يرتبط به من حيث هو مرتبط إلى داخل محيط هذه الدائرة المفروضة بحيث لا يشذ منه شيء منها ولا يدخله شيء غيرها وجدنا هذا المجموع يسوي في الوجود أمراً واحداً حقيقياً وموجوداً متفرداً كل جزء من أجزاء المجموع المفروض يرتبط بالآخرين بروابط خاصة بها قضية للوحدة الحقيقية الموجودة وهذا لاشك فيها ولا ريب .

ثم إذا حللنا هذا الموجود الواحد على سعة دائرة وجوده وجدناه على كثرة أجزائه وجهاته ينحل إلى أمر ثابت في نفسه كالأصل

وأمور أُخر تدور عليه وتقوم به كالفروع تتفرع على الأصل وهذا الأصل هو الذي نسمّيه بالذات وهذه الفروع هي التي نسميها بالعوارض واللواحق ونحو ذلك وهذا معنى سار في كل موجود في وعاء الوجود مثال ذلك الإنسان فإن فيك أمراً تحكي عنه بلفظ أنا وكل معنى غيره مرتبط به ومتفرع على هذا الذات المحكي عنه بأنا هذه وهذا المجموع المؤلف من الذات والعوارض نسميه بالنظام الجزئي في الموجود الجزئي والمجموع المؤلف من جميع هذه النظامات الجزئية التي في ظرف الوجود نسميه بنظام الكل .

ثم نقول أن لكل موجود حقيقي نظاماً حقيقياً خارجياً ذو أجزاء حقيقية فذاته من حين يظهر في الوجود يصحب معه شيئاً من عوارضه اللازمة والغير اللازمة ثم يرد عليه سلسلة عوارضه واحداً بعد واحد ولا يزال يستكمل بها حتى يتم ذاته في عوارضه تماماً وكمالاً إن لم يعقه عائق فينتهي به الوجود المختص به وهو حياته فيبطل وينعدم ببلوغه أجله فهو بحسب التمثيل كالشمس عند الحس تطلع من أفق ثم تحاذي نقطة بعد نقطة وتجري حتى تغرب في أفق اخر .

وجملة الأمر في هذه النظامات أن لحوق العوارض بالذات باقتضاء ما من الذات لها بمعنى أن الذات لو وضع وحده من غير مانع تبعه عوارضه بارتباط معها في الذات وهذه كلها أصول كلية عامة بديهية أو قريبة من البداهة .

ثم إن هذا الإقتضاء من الذات لعوارضه مقرونة في الإنسان بالعلم فهذا النوع يميز الملائم عن غير الملائم بالعلم والإدراك ثم يتحرك وينحو نحو الملائم ويهرب عن المنافر المنافي وبعض الأنواع الأخر من الحيوان أيضاً حاله حال الإنسان ولسنا نعلم هل حال كل

نوع من الموجودات الجسمانية حال الإنسان لعدم وفاء الحس والتجارب وإن قام بعض البراهين في العلم الإلهي على أن العلم سار في جميع الموجودات .

وبالجملة حيث كان تميز الملائم عن غيره بالعلم والذات مقتض للملائم ومتابّ عن غير الملائم والحركة إلى الملائم عن إرادة وعلم والحركة عن غير الملائم عن إرادة وعلم تحقق هناك بالضرورة بالنسبة إلى الملائم صورة علمية ذهنية مخصوصة وبالنسبة إلى غير الملائم صورة أخرى مخصوصة وهما صورة إقتضاء الذات لأمر وصورة تأبّيها عن أمر فللإقتضاء صورة وهي وجوب الفعل في قولنا يجب أن يفعل كذا إنتزعتها النفس عن نسبة الضرورة في القضايا الحقيقية الخارجية ولعدم الإقتضاء صورة وهي حرمة الفعل أو وجوب عدمها في قولنا يحرم أو يجب أن لا يفعل كذا إنتزعتها النفس عن نسبة الإمتناع في القضايا الحقيقية الخارجية وللمقتضى بالبناء للمفعول صورة ولعدم المقتضى المتأبي عنه بالبناء للمفعول صورة أخرى والظاهر أن النفس ينتزعها فيهما من نسبة بعض أجزاء الشخص بالنسبة إليه أو شخصه بالنسبة إلى شخصه ومن نسبة عدم شخصه أو عدم بعض أجزاء شخصه بالنسبة إلى شخصه وهذا هو الذي يوجب الحركة إليه أو الهرب منه فافهم .

وهذا المقدار من الإعتبار كالمادة الأولى بالنسبة إلى الإعتبارات التالية قاطبة ويسري هذا الحكم ويتكثر أقسام الإعتبار ويختلف بتكثر حوائج الإنسان واستقباله النواقص التي تصادف ذاته ويمكنك التحقق بما ذكرنا واختبار الحال في ذلك بالتدبر في حال الطفل الإنساني وتدرجه في الحياة وكذلك باختبار حال بعض الحيوان مما الإجتماع في نوعه محدود ساذج والتميز في أوهامه سهل يسير .

ثم إن الإنسان الفرد لا يتم له وحده جميع كمالاته الملائمة لذاته لكونه في جميع جهات ذاته محتاجاً إلى التكامل وتفنن احتياجاته الحيوية مع احتفاف كل واحد من كمالاته بما لا يحصى من الآفات ولذلك فهو بالفطرة مضطر إلى الإجتماع والتعاون والتمدن مع أمثاله والحياة فيهم حتى يقوم كل فرد بجهة أو جهات معدودة من خصوصيات كمالاتهم بما يسعه طاقته ويعيشوا بنحو الإشتراك وها هنا وقعت الحاجة إلى التفهيم والتفهم فابتدأ ذلك بالإشارة ثم كمل بالصوت ثم تمم ذلك بتمييز الأصوات المختلفة للمقاصد المختلفة .

والدليل عليه ما نشاهده في الحيوان العجم فإن فيها دلالة على المقاصد بالأصوات وتعدادها كثرة وقلة بالنسبة إلى إجتماعاتها كصوت النزاع وصوت السفاد وصوت التربية وصوت الإشفاق وغير ذلك مما بينها وهذا الأمر يكتمل ثم يكتمل حتى يصير اللفظ وجوداً لفظياً للمعنى لا يلتفت عند استماعه إلاّ إلى المعنى ويسري الحسن والقبح من أحدهما إلى الآخر .

ثم إن اشتراك المساعي في الحياة واختصاص كل فرد بما يهيؤه يوجب اعتبار الملك في المختصات واصله الإختصاص وكذا اعتبار الزوجية واحتياج الكل إلى ما في أيدي آخرين يوجب اعتبار التبديل في الملك والمعاملات المتنوعة من البيع والشراء والإجارة وغيرها وحفظ النسبة بين الأشياء القابلة للتبديل من حيث القلة والكثرة والإبتذال والعزة وغير ذلك يوجب اعتبار الفلوس والدينار وهو شيء يحتفظ به نسبة الأشياء القابلة للتبديل بعضها مع بعض .

ثم إن هذه التقلبات الغير المحصورة لا يختلف من وقائع جزئية معتدلة واخرى يقع فيها الظلم والتعدي والإجحاف فالأفراد في أخلاقها مختلفة والطبائع إلى التعدي وتخصيص المنافع بنفسها

ومزاحمة غيرها مجبولة وحين إذ ذاك وقع الإحتياج إلى قوانين يحفظ بها الإعتدال في الإجتماع وإلى من يحفظ هذه القوانين وإلى من يعتضد به لذلك فينشعب إذ ذاك اعتبار الرئاسة والرئيس والمرؤوس والقانون وغير ذلك .

ويتفرع على ذلك اعتبارات أُخر ولا يزال يتبع بعضها بعضاً حتى ينتهي إلى غايات بعيدة طوينا الكلام عن شرحها لعدم وفاء المقام بذلك وقد فصلنا القول في أنواعها وأقسامها في كتاب الإعتبارات . هذا :

وبالجملة فهذه الإعتبارات لا تزال تتكثر بكثرة مسيس الحاجة حتى تنفذ وتسري في جميع جزئيات الأمور المربوطة بالإنسان الإجتماعي وكلياتها ويتلون الجميع بهذه الألوان الوهمية وتتلبس بهذه الملابس الخيالية بحيث إن الإنسان الذي يتقلب بينها بواسطة الإدراك ويقصدها ويتركها ويحبها ويكرهها ويرغب فيها وينفر عنها ويرجوها ويخاف منها ويشتاقها ويعافها ويلتذ بها ويتألم منها ويختارها ويتركها بالحسن والقبح والوجوب والحرمة والنفع والضر والخير والشر بواسطة العلم والإرادة لا يشهد منها إلّا هذه المعاني السرابية ولا يحس منها إلّا بهذه الوجوه فحياة الإنسان وهي حياة إجتماعية مربوطة بهذه الأسباب محدودة بهذه الجهات متقلبة في هذه العرصات لو وقعت حيناً ما في خارجها كالحيتان خارج المياه بطلت وخمدت .

وأنت إذا أجلت النظر وأدرت الفكر في بعض الموجودات ونظامها الطبيعي كالمركبات النباتية مثلاً رأيت فرجار حياتها في إدامة بقاءها يدور على التغذية والنمو وتوليد المثل ورأيت ذاتها يفعل هذه الأفعال بإقتضاء من نفسه من غير استعانة بالخارج عنه ويتمم ويستكمل هذه الجهات بأفعال وانفعالات ذاتية طبيعية بجذب ودفع

ويديم بها أمره حتى ينتهي إلى البطلان ونظامه نظام طبيعي غير متوسط في جريانه غيره وإذا رجعت إلى الإنسان وجدت هذا النظام الطبيعي منه محفوفاً بمعان ليس لها وجود في الخارج وهمية باطلة لا يحس الإنسان إلاّ بها ولا يماس الأمور الطبيعية إلاّ من وراء حجابها فالإنسان لا يريد ولا يروم في دائرة حياته إلاّ إيّاها ولا ينسج إلاّ بمنوالها لكن الواقع من الأمر حين ما يقع هو الأمور الحقيقية الخارجية .

هذا حال الإنسان في نشأة المادة والطبيعة من التعلق التام بمعان وهمية سرابية هي المتوسطة بين ذاته الخالية عن الكمالات وبين الكمالات الطارية اللاحقة بذاته .

فصل ٢

قال الله سبحانه : ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فأخبر سبحانه أنّه بعد اتمام ذات كلّ شيء هداه إلى كماله المختص به هداية يتفرع على ذاته وهو اقتضائه الذاتي لكمالاته وإياه يفصل سبحانه بقوله : ﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾ فهو سبحانه بعد خلق الشيء وتسويته قدر هناك تقديراً وذلك بتفصيل خصوصيات وجوده كما قال : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ واتبع هذا التقدير والتفصيل بهدايته إلى الخصوصيات التي قدرها له وذلك بإفاضة الإقتضاء الذاتي منه لجميع ما يلزمه في وجوده ويتم به ذاته من كمالاته وهذا هو النظام الحقيقي الذي في كل واحد وفي المجموع من الموجودات ومنها الإنسان الذي هو أحدها .

ثم ذكر سبحانه الإنسان فقال : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا

الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ فأخبر أنّه بعد تمامية خلقه مردود إلى أسفل سافلين واستثناء المؤمنين الصالحين حيث أنّه معقب بقوله : ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ والأجر بظاهره غير متحقق في الدنيا بعد يدل على انقطاع الإستثناء وانهم مرفوعون بعد الرد وقد قال سبحانه : ﴿ من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وإن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ فحكم الرد شامل لنوع الإنسان لا يشذّ عنه شاذ منهم وقد قال سبحانه أيضاً : ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ وعقبه تفسيراً بقوله : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ وقال : ﴿ إنما هذه الحيوة الدنيا متاع ﴾ فبيّن أن الذي ردّ إليه الإنسان هو الحياة الدنيا وهو أسفل السافلين ثم وصف الحياة الدنيا فقال سبحانه : ﴿ إنما الحيوة الدنيا لعب ولهو ﴾ واللعب هو الفعل الذي لا غاية له إلّا الخيال واللهو هو ما يشغلك بنفسه عن غيره فأشار إلى أن هذه الحياة وهي تعلق النفس بالبدن وتوسيطه إيّاه في طريق كمالاته شاغلة له بنفسه عن غيره وذلك لأن ذلك يوجب أن يتوهم الروح إنّها عين البدن لا غير وحينئذ ينقطع عن غير عالم الأجسام وينسى جميع ما كان عليه من الجمال والجلال والبهاء والسناء والنور والحبور والسرور قبل نشأة البدن المادية ولا يتذكر ما خلفه من مقامات القرب ومراتب الزلفى والرفقة الطاهرين وفضاء الإنس والقدس فيتقلب في أمد حياته اللعب لا يستقبل شيئاً ولا يواجهه شيء من محبوب أو محذور إلّا لغاية

خيالية وأمنية وهمية إذا بلغها لم يجد شيئاً موجوداً قال سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً ﴾ والعمل ما يعمله الإنسان من شيء وقال سبحانه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفيه حسابه ﴾ فبين أن أعمالهم وغاياتهم منها كالسراب بالقاع يقصده الظمآن فلما بلغه لم يجد ما قصده ووجد ما لم يقصده وينكشف حينئذ أن ما قصده كان غير مقصوده والله غالب على أمره وهو الذي يشير إليه سبحانه بقوله : ﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا ﴾ فإن الزينة هي الشيء الجميل المحبوب بنفسه وبذاته يصحبه شيء آخر ليكسب منه الحسن أي يقع في القلب مع وقوع الزينة فيجلب الرغبة فتكون هي المقصودة والمتزين بها هو الواقع فجعل ما على الأرض زينة لها ليقصدها القاصدون ويبلغوا الأرض بقصدهم وهي غير مقصودة وقال سبحانه : ﴿ إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما ﴾ الآية .

فبين أنّها مؤلفة من أمور خيالية تحتها أمور حقيقية فالإنسان بعد كمال خلقته يبدأ بتكميل جهات الحياة الدنيا بتحصيل مقصد بعد آخر وهو يريد تكميل ما يظنه كمالا من اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وليست إلاّ أمور وهمية فإذا تممها وكمّلها بدا له بطلانه وفنائه عند موته ووداعه للحياة الدنيا .

ومن الممكن أن يكون قوله سبحانه في ذيل الآية : ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ﴾ الآية معطوفاً على قوله في صدر الآية : لعب ، فيكون خبراً بعد خبر لقوله ﴿ إنما

الحياة . . ﴾ الخ ، ويؤيد ذلك بعض التأييد الآية التالية لهذه الآية [١] .

وبالجملة فيتبين بذلك أن الحياة الدنيا بجهاتها المقصودة من اللعب واللهو والزينة وغير ذلك أمر موهوم وسراب خيالي وهي بعينها في الحقيقة وباطن الأمر عذاب ومغفرة ورضوان يظهر ذلك بظهور أن جهات الحياة الدنيوية كانت باطلة موهومة كالحطام للنبات وهو قوله سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعائكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ فالآيتان كما ترى في الموت وما ينفصل الإنسان عن حياته الدنيا فيقول سبحانه فيها إن الإنسان سيقبل راجعاً إليه سبحانه فرداً كما خلق أول مرة ويترك الأعضاء والقوى والأسباب التي كان يعتقدها لنفسه أركاناً يعتمد عليها وأعضاداً يتقوى بها وأسباباً يتوصل بها ويطمئن إليها وسينقطع ما بين الإنسان وبينها أي الروابط التي كان الإنسان يسكن إليها ويباهي بها من اعتباراته الوهمية وحينئذ ذاك ضلال الكل وزوال الجميع وفقدانها ومشاهدته عياناً أنّه كان مغروراً بذلك كلّه وقد قال سبحانه : ﴿ فلا تغرّنكم الحيوة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور ﴾ وقال سبحانه :

---

(١) وقد نقل عن شيخنا البهائي رضوان الله عليه في معنى الآية انّ هذه الأمور مترتبة بحسب مدارج عمر الإنسان فهو يشتغل أوّلاً باللعب وذلك في أوان الصبى ثم باللهو في أوان البلوغ ثم بالزينة وهو عند كمال الشباب ثم بالتفاخر وهو عند منتصف العمر ثم بالتكاثر في الأموال والأولاد وهو في أوان الشيخوخة فهي مقسومة على مدارج عمر الإنسان منه .

﴿ إنّما هذه الحيوة الدنيا متاع وإن الأخرة هي دار القرار ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وما الحيوة الدنيا إلّا متاع الغرور ﴾ والمتاع ما يتمتع وينتفع به لغيره فالحياة الدنيا إنما تتوصل به لغرور الإنسان بها لبلهى بها عن غيرها وهي كماله الأقصى في مبدئه ومعاده وقال سبحانه : ﴿ إنما مثل الحيوة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتيها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجلعناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس ﴾ .

والأخبار في المعاني السابقة كثيرة جدّاً نقتصر منها بجملة من كلام أمير المؤمنين عليّ (عَلَيْهِ السّلام) ، قال (عَلَيْهِ السّلام) : في بعض خطبه على ما في النهج : عباد الله إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين . إلى أن قال (عَلَيْهِ السّلام) : فمن شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات وارتبك في الهلكات ومدّت به شياطينه في طغيانه وزينت له سيء أعماله فالجنة غاية السابقين والنار غاية المفرطين . إلى أن قال (عَلَيْهِ السّلام) : وكأن الصيحة قد أتتكم والساعة قد غشيتكم وبرزتم لفصل القضاء قد زاحت عنكم الأباطيل واضمحلت عنكم العلل واستحقت بكم الحقائق . الخطبة .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : فمن شغل . . . الخ ، إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم ﴾ وقوله تعالى : والذين كذبوا بآياتنا صمٌّ وبكمٌ في الظلمات من يشاء الله يضلله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم ﴾ وقوله : ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنّهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ الآيات .

فالإنسان لا حياة له في غير ظرف نفسه ولا معاش له دون وعائه وجوّه فإذا نسي نفسه ووقع في غيرها وقع في الضلال البحت والبوار وبطلت أعمال قواه فلا تعمل منه سمع ولا لسان ولا بصر فهو في الظلمات ليس بخارج منها وصار كل ما قصده سراباً وكل ما صنعه باثراً هالكاً فإذا برز إلى اليوم الحق برز صفر اليد خفيف العمل وقد زاحت عنه أباطيله واستحقت حقائقه والله ولي الأمر كلّه .

والكلام ذو شجون وإيثار الإختصار مانع عن الإطناب والتعرض بأزيد من التلويح والإشارة على ما هو الدأب في هذه الرسالة وأخواتها من الرسائل السابقة فالحق سبحانه خير دليل وهو الهادي إلى سواء السبيل .

تمّت والحمد لله والصلاة على محمد وآله رابع الربيع الأول
من سنة واحد وستين وثلاثمائة وألف
هجرية قمرية على هاجرها التحية
ووقعت الكتابة في قرية شاد آباد من أعمال بلدة تبريز

رسالة الإنسان
بعد الدنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الإنسان بعد الدنيا

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيّما محمد وآله الطاهرين .

هذه الرسالة في المعاد نشرح فيها بعون الله سبحانه حال الإنسان بعد حياته الدنيا على ما يقوم عليه البرهان ويستخرج من الكتاب وتكشف عنه السنّة ، غير إنّا آثرنا فيها الإختصار والإقتصار على كلّيات المعاني فإن المسلك الذي نستعمله من تفسير الآية بالآية والرواية بالرواية بعيد الغور منيع الحريم ووسيع المنطقة لا يتيسر استيفاء الحظ منه في رسالة واحدة يقاس فيها النظير بالنظير والشبيه بالشبيه والأطراف بالنسب ويؤخذ بها الجار بالجار وستقف إن شاء الله العزيز على صحة قولنا هذا .

ومن الإنصاف أن نعترف إن سلفنا من المفسرين وشرّاح الأخبار أهملوا هذا المسلك في استنباط المعاني واستخراج المقاصد فلم يورثونا فيه ولا يسيراً من خطير فالهاجم إلى هذه الأهداف والغايات على صعوبة منالها ودقّة مسلكها كساع إلى الهيجاء بغير سلاح والله المستعان .

فصل ١

في الموت والأجل

قال الله سبحانه : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمى ﴾ [١] فبيّن أن كل موجود من السماء والأرض وما بينهما وجوده محدود بأجل سمّاه سبحانه أي قدّره وعيّنه لا يتعدى وجود عن أجله كما قال سبحانه : ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة وأجل الشيء هو الوقت الذي ينتهي إليه فيستقر فيه ومنه أجل الدين وتسميته وبالجملة هو الظرف الذي ينتهي إليه الشيء ولذلك عبّر عنه باليوم في قوله سبحانه : ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ ثم إنّه قال سبحانه : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ فأخبر بأن الأجل المسمّى عنده وقد قال سبحانه: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فأخبر بأن ما هو موجود عنده حاضر لديه لا يتطرقه النفاد ولا يلحقه تغير ولا يعرضه كون ولا فساد فلا يعتوره الزمان وطوارق الحدثان فالأجل المسمّى ظرف محفوظ ثابت

---

(١) والآية كما ترى مثل نظائرها ساكتة عن ضرب الأجل لما وراء السموات والأرض وما بينهما مما هو خارج عنها وليس في كلامه سبحانه ما يدل على ابتداء خلق هذا النوع الأعلى فنائه وزواله بل ربّما يستفاد العكس من قوله : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم ﴾ وقوله : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ بل نفس الآية أعني قوله : ﴿ ما خلقنا السموات ﴾ دالة على أن الحقّ والأجل المسمّى خارجان عن هذا الحكم وهما الواسطتان منه .

يثبت فيه مظروفه من غير تغير ولا نفاد وقال سبحانه : ﴿ إنّما مثل الحيوة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتيها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنِ بالأمس ﴾ .

فأخبر سبحانه بالأجل الذي لزينة الأرض وأنّه يتحقق بالأمر الإلهي وكذلك الحياة الدنيا فهناك أمر إلهي يتحقق به الأجل الدنيوي فالأجل أجلان أو أجل واحد ذو وجهين أجل زماني دنيوي وأمر إلهي كما يومي إليه قوله سبحانه : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ فالأجل المسمّى من عالم الأمر وهو عنده سبحانه فلا حاجب هناك أصلاً كما يفيده لفظ (عند) وإيّاه يفيد قوله سبحانه : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ ولذلك أيضاً عبّر عنه بالرجوع إلى الله والمصير إليه في آيات كثيرة .

ثم إن هذا الرجوع وهو الخروج عن نشأة الدنيا والورود في نشأة أخرى هو الموت الذي وصفه سبحانه لا ما يترائى لظاهر أعيننا من بطلان الحس والحركة وزوال الحياة وبالجملة فناء الشيء قال سبحانه : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ فوصفه بالحق فلا يكونن باطلاً وعدماً وقال سبحانه : ﴿ كلاّ إذا بلغت التراقي ﴾ إلى أن قال : ﴿ والتفت الساق بالساق إلى ربّك يومئذ المساق ﴾ فيوم الموت يوم الرجوع إلى الله والسوق إليه .

ويدل على ما مرّ ما رواه الصدوق وغيره عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء وإنّما تنتقلون من دار إلى دار .

وفي العلل عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : فهكذا

الإنسان خلق من شأن الدنيا وشأن الأخرة فإذا جمع الله بينهما صارت حياته في الأرض لأنه نزل من شأن السماء إلى الدنيا فإذا فرق الله بينهما صارت تلك الفرقة الموت ترد شأن الأخرى إلى السماء فالحياة في الأرض والموت في السماء وذلك أنّه يفرق بين الروح والجسد فردّت الروح والنور إلى القدس الأولى وترك الجسد لأنّه من شأن الدنيا . الحديث .

وفي المعاني عن الحسن بن علي قال : دخل علي بن محمد على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجرّج من الموت فقال له : يا عبدالله تخاف من الموت لأنّك لا تعرفه أرأيتك إذا اتسخت وتقذرت وتأذيت من كثرة القذر والوسخ عليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أن الغسل في حمام يزيل ذلك كلّه أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك أو تكره أن تدخله فيبقى ذلك عليك ؟ قال : بلى يابن رسول الله . قال (عَلَيْه السّلام) : فذلك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما يبقى عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك من سيئاتك فإذا أنت وردت عليه وجاورته فقد نجوت من كل غم وهم وأذى ووصلت إلى كل سرور وفرح فسكن ذلك الرجل ونشط واستسلم وغمض عين نفسه ومضى لسبيله .

وفي المعاني عن الجواد (عَلَيْه السّلام) عن آبائه في حديث قال : وقال علي بن الحسين (عَلَيْهما السّلام) : لما اشتد الأمر بالحسين بن علي بن أبي طالب (عَلَيْهِم السّلام) نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنّهم كلّما اشتد الأمر تغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم وكان الحسين (عَلَيْه السّلام) وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم وتهدي جوارحهم وتسكن نفوسهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا لا يبالي بالموت . فقال لهم

الحسين (عَلَيْهِ السّلام) : صبراً بني الكرم فما الموت إلّا قنطرة يعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب إن أبي حدّثني عن رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) انّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذب ولا كذبت .

وقال محمد بن علي (عَلَيْهِ السّلام) : قيل لعلي بن الحسين (عَلَيْهِ السّلام) : ما الموت ؟ قال : للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة وفك قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطئ المراكب وآنس المنازل وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل من منازل أنيسة والإستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب .

وقيل لمحمد بن علي (عَلَيْهِ السّلام) : ما الموت ؟ قال : هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلّا يوم القيامة فمن رأى في نومه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره ومن أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره فكيف حال فرح في النوم ووجل فيه هذا هو الموت فاستعدوا له . الحديث .

أقول : وعدّه (عَلَيْهِ السّلام) الموت من نوع النوم مستفاد من قوله سبحانه : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى ﴾ حيث عدّ الأمرين جميعاً توفيّاً ثم عبّر بالإمساك دون القبض .

وكذلك عدّه (عَلَيْهِ السّلام) كما في سائر الأحاديث الموت وصفاً للروح وأنّه يترك به الجسد ويمضي لسبيله هو المستفاد من قوله سبحانه : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها ﴾ حيث نسب التوفّي وهو

آخذ الحق من المطلوب بتمامه إلى الأنفس كما نسبه في قوله سبحانه : ﴿ وهو الذي يتوفيكم ﴾ إلى لفظ (كم) وهو الأمر الذي يعبّر عنه الإنسان بأنا وقد شرحناه في رسالة الإنسان قبل الدنيا .

وبالجملة فالوارد في النشأة الأخرى من الإنسان نفسه وروحه وعليه يدل قوله سبحانه : ﴿ يا أيّها الإنسان إنّك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه ﴾ والكدح هو السعي إلى الشيء والإنسان كادح إلى ربّه لأنّه لم يزل سائر إلى الله سبحانه منذ خلقه وقدره ولذلك عبّر عن إقامته في هذه الدار باللبث في آيات كثيرة قال سبحانه : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ .

ثم إنّه سبحانه قال : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها ﴾ فنسب التوفّي إلى نفسه وقال سبحانه : ﴿ قل يتوفيكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ فنسبه إلى ملك الموت وقال سبحانه : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ فنسبه إلى الملائكة الرسل ومرجع الجميع واحد لما عرفت في محلّه إن الأفعال كلّها لله وهي مع ذلك ذو مراتب يقوم بكل مرتبة من مراتبها طائفة من الموجودات على حسب مراتبهم في الوجود .

والأخبار أيضاً شاهدة بذلك ففي التوحيد عن الصادق قال (عَلَيْهِ السّلام) : قيل لملك الموت كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق في ساعة واحدة فقال : أدعوها فتجيبني .

قال : وقال ملك الموت : إن الدنيا بين يدي كالقصعة بن يدي أحدكم يتناول منها ما شاء والدنيا عندي كالدرهم في كف أحدكم يقلبها كيف شاء .

وفي الفقيه عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) انّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وعن قول الله :

﴿ قل يتوفيكم ملك الموت الذي وكّل بكم ﴾ وعن قول الله : ﴿ الذين تتوفيهم الملائكة طيّبين والذين تتوفيهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ وعن قوله الله : ﴿ توفّته رسلنا ﴾ وعن قول الله : ﴿ ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكة ﴾ وقد يموت في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلّا الله عزّ وجلّ فكيف هذا فقال : إن الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجهم فتوفيهم الملائكة ويتوفّاهم ملك الموت مع ما يقبض هو ويتوفّـــاه الله عزّ وجلّ من ملك الموت .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) مثله وزاد في آخره وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأنّ منهم القوي والضعيف ولأنّ منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلّا من يسهّل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه وإنّما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي المميت وأنّه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم . الحديث .

أقول : قوله (عَلَيْهِ السّلام) : وغيرهم ظاهره أنّه سبحانه ربّما توفاها على يدي غير الملائكة من خلقه فهو معنى غريب ويمكن أن يراد به بعض المقربين من الأولياء العالين درجة من الملائكة المتمكنين في مقام الأسماء كالقابض والمميت ويمكن أن يراد به ما يتوفاه سبحانه بنفسه من غير توسط الملائكة وإن كان مرجع المعينين واحداً .

فقد روي في الكافي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) : كان علي بن الحسين (عَلَيْهِ السّلام) يقول : إن يسخى نفسي في سرعة الموت والقتل فيها قول الله تعالى : ﴿ أوَلَم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ وهو ذهاب العلماء والظاهر على ما ذكره بعض العلماء أنّه

(عَلَيْهِ السّلام) أخذ الأطراف جمع طرف بتسكين الراء بمعنى العلماء والإشراف كما ذكره في الغريبين .

وبالجملة فكما إنّ حال الأنفس في القرب من الله سبحانه على مراتب حقيقية فكذلك المتوفي لها تختلف بحسب ذلك فمن نفس يتوفاه الله بنفسه تعالى لا تحس ولا تشعر بغيره سبحانه ومن نفس بتوفاها ملك الموت لا تشعر بمن دونه كما يشير إليه الصادق (عَلَيْهِ السّلام) بقوله في الرواية السابقة مع ما يقبض هواه ومن نفس يتوفاها الملائكة عملة ملك الموت ، والمأخوذ المتوفى على كل حال هو النفس دون البدن كما مرّ وهو سبحانه أقرب إلى النفس من نفسه وملائكته من عالم الأمر وبأمره يعملون والنفس أيضاً من هناك ولا حجاب في الأمر بشيء من الأزمنة والأمكنة فالتوفي من باطن النفس وداخلها دون الخارج عنها وعن البدن وقد قال سبحانه : ﴿ إذ فرغوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾ وقال سبحانه : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ ثم إذا كانت النفس المتوفاة وهي الإنسان حقيقة لا تبطل بالموت وقد سكنت في الدنيا وسكنت إليها وعاش في دار الغرور واستأنست بها فأول ما ينكشف لها حين الموت بطلان ما فيها وإنمحاء الرسوم التي عليها وتبدل الأعمال والغايات التي فيها بالسراب بتقطع ظواهر الأسباب قال سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعائكم الذي زعمتم أنّهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

فالإنسان إنّما يختلط في هذه الدار الدنيا بقسمين من موجوداتها وشؤوناتها .

أحدهما ما يزعم أنّه يملكه من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ويستعين به في آماله وأمانيه وأغراضه وغاياته .

والثاني ما يرتبط به مما يزعمه شفيعاً لا يتمكن من بلوغ المآرب إلاّ بشراكته وتأثيره من أزواج وأولاد وأقارب وأصدقاء ومعاريف أولي القوة والبأس فأشار سبحانه إلى بطلانهما بالجملة بقوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ وإلى زوال القسم الأول بقوله : ﴿ وتركتم ما خوّلناكم ﴾ وإلى زوال القسم الثاني بقوله : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ وإلى سبب البطلان بقوله : ﴿ لقد تقطّع بينكم ﴾ وإلى نتيجته بقوله : ﴿ وضلّ عنكم ﴾ .

وبالجملة فيبقى ما في الدنيا في الدنيا وتشرع من حين الموت حياة أخرى للإنسان فاقدة لجميع ما في الدنيا ولذلك سمّى الموت بالقيامة الصغرى فعن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : « من مات فقد قامت قيامته » .

ثم إن النفس إذا فارقت الجسد فقدت صفة الإختيار والتقوى على كلا طرفي الفعل والترك وحينئذ يرتفع موضوع التكليف قال سبحانه : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ وعند ذلك يقع الإنسان في أحد الطريقين السعادة والشقاوة ويحتم له إمّا السعادة أو الشقاء فيتلقى إمّا بشرى السعادة أو وعيد الشقاوة قال سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ الآية ، وقال سبحانه : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما

كنتم تعملون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ .

وقوله : ﴿ كنتم توعدون ﴾ مشعر بكون البشارة بعد الدنيا وهي الآخرة ومن المعلوم أن البشارة بالشيء قبل حلوله فالبشرى بالجنة قبل دخولها وهي إنّما تكون بأمر قطعي الوقوع فلا تتحقق في الدنيا حتى الموت لبقاء الإختيار وإمكان انتقال الإنسان من إحدى سبيلي السعادة والشقاوة إلى الأخرى .

ومن هنا ما ترى أنّه سبحانه في قوله : ﴿ ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذي آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ﴾ حيث أثبت في حق المؤمنين أنّهم مأمونون من الخوف والحزن وأنّ لهم البشرى في الحياة الدنيا أثبت قبل ذلك الولاية في حقّهم وهي أن يكون سبحانه هو الذي يلي أمورهم من غير دخالة اختيارهم وانية أنفسهم في التدبير وعند ذلك تصح البشارة لعدم إمكان شقاء في حقّهم ما ولى أمرهم الحق سبحانه ولذلك غير السياق في وصف تقواهم فقال : ﴿ وكانوا يتقون ﴾ وكان حق ظاهر السياق أن يقول : (آمنوا واتقوا) إشارة إلى أن إيمانهم هذا مكسبة بالتقوى بعد إيمان سابق عليها وهذا صفاء الإيمان من شائبة الشرك المعنوي بالإعتماد على غيره سبحانه فيه في سياق قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾ وهذا هو الذي امتن سبحانه به فسمّاه نعمة فقال : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فارجعوا الأمر إليه سبحانه وسلبوا تدبير أنفسهم واختيارها فقال

سبحانه : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ فنفى مس السوء عنهم بنعمة أفاضها عليهم وليست إلّا الولاية بتوليه سبحانه أمورهم ودفعه السوء عنهم بتدبيره وكفايته لهم ووكالته عنهم ومثله قوله سبحانه : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ألم ترَ إلى الذين بدلّوا نعمة الله كفرا ﴾ فسمّى ذلك نعمة ثم ذكر سبحانه أنه سيلحق المطيعين بأوليائه المنعمين بهذه النعمة فقال سبحانه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ فإن المطيع من حيث إرادته لا إرادة له غير إرادة المطاع فالمطاع هو القائم مقام نفس المطيع في إرادتها وأفعالها فالمطاع وليه وكل من كانت لا نفس له إلّا نفس المطاع فهو أيضاً ولي للمطيع إذ ليس هناك إلّا المطاع ولذلك قرّر سبحانه بعض أوليائه المقربين وليا لآخرين قال سبحانه : ﴿ إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون ﴾ والآية نازلة في أمير المؤمنين علي (عَلَيْهِ السّلام) وليس المراد بالولاية في الآية هو المحبة قطعاً لمكان إنّما ولكون المورد مورد بيان الواقع لمكان قوله : ﴿ وليكم الله ﴾ بخلاف قوله سبحانه : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

وبالجملة فعند ذلك يتضح وجه إلحاقه سبحانه المطيعين بأوليائهم فهو سبحانه ولي الجميع وبعضهم وهم الأقربون إليه أولياء لبعض آخر ممن دونهم وجميعهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يبشرون بالجنة والرفقة الصاحلة عند الموت .

ويدل أيضاً على هذه المعاني أخبار كثيرة ففي الكافي عن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : جعلت فداك يابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : لا والله إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم افتح عينيك فانظر . قال : ويمثل له رسول الله وأمير المؤمنين والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم ، فقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة رفقائك . قال : فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه منادٍ من قبل ربّ العزة فيقول : يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته ارجعي إلى ربّك راضية بالولاية مرضية بالثواب فادخلي في عبادي وادخلي جنتي فما من شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي .

وروى العياشي في تفسيره عن عبدالرحيم الأقصر قال أبو جعفر (عَلَيْهِ السّلام) : إنّما أحدكم حين يبلغ نفسه هاهنا فينزل عليه ملك الموت فيقول أمّا ما كنت ترجوه فقد أعطيته وأمّا ما كنت تخافه فقد أمنت منه ويفتح له باب إلى منزله من الجنة ويقال له : إنظر إلى مسكنك في الجنة وانظر إلى رسول الله وعلي والحسن والحسين رفقائك وهو قول الله : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وروى المفيد في مجالسه عن الاصبغ بن نباته حديث الحارث الهمداني مع أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) وفيه قال (عَلَيْهِ السّلام) : وابشرْك يا حارث لتعرفني عند الممات وعند الصراط وعند الحوض وعند المقاسمة قال الحارث : وما المقاسمة ؟ قال : مقاسمة

النار أقاسمها قسمة صحيحة أقول هذا وليي فاتركيه وهذا عدوّي فخذيه . الحديث . وهو من مشاهير الأخبار رواه جمع من الرواة وصدّقه بعض الأئمة بعده (عَلَيْهِم السّلام) .

وفي غيبة النعماني عن أمير المؤمنين في حديث : أما إنّه لا يموت عبد يحبّني فتخرج نفسه حتى يراني حيث يحب ولا يموت عبد يبغضني فتخرج نفسه حتى يراني حيث يكره . الحديث .

وفي الكافي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : ما من أحد يحضره الموت إلّا وكّل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله حتى يموت . الحديث ، ومعناه مستفاد من قوله سبحانه : ﴿ يثبت الله الذين أمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الاخرة ويضلّ الله الظالمين ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك إنّي أخاف الله ربّ العالمين ﴾ فظاهر الآية أن قوله : ﴿ اكفر ﴾ وقوله : ﴿ إنّي بريء ﴾ من جنس واحد ووقت واحد وليس من لسان الحال في شيء وهناك خطاب فافهم .

وفي تفسير العياشي عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن يساره ليصدّه عمّا هو عليه فيأبى الله ذلك وكذلك قال الله : ﴿ يثبت الله الذين أمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

أقول : والروايات عن أئمة الهدى في هذه المعاني متظافرة متكاثرة رواها جم غفير من الرواة هذا كلّه ما يفيده الكتاب والسنة والبرهان يفيده أيضاً مما يدل على تجرد النفس وعدم انعدامها وبطلانها

بانقطاع علاقتها عن البدن وسيجيء إشارة إليه في الفصل التالي لهذا الفصل إن شاء الله .

فصل ٢
في البرزخ

قد بين في محله أن بين عالم الأجسام والجسمانيات وبين أسمائه سبحانه عالمين عالم العقل وعالم المثال .

وإن كل واحد من الموجودات يرجع بالضرورة إلى ما بدأ منه .

وإن العوالم آخذاً من الجسمانيات إلى أن ينتهي إلى المبدأ الأول ومبدع الكل مترتبة في الكمال والنقص متطابقة في الوجود ومعنى ذلك تنزل العالي إلى مرتبة السافل وظهوره كالمرآة تنعكس فيه صور ما يقابلها من الأضواء والألوان والمقادير فتظهر منها على قدر ما تقبله وتطيقه وتتكيف بما في المرآة من الكيفيات تماماً ونقصاً .

وإن عالم المثال كالبرزخ بين العقل المجرد والموجودات المادية فهو موجود مجرد عن المادة غير مجرد عن لوازمها من المقادير والاشكال والأعراض الفعلية وبهذه المقدمات يتبين تفصيل حال الإنسان في إنتقاله من الدنيا إلى ما بعد الموت هذا .

وينبغي لك أن تتثبت في تصور معنى المادة وانها جوهر شأنها قبول الآثار الجسمية وتحققها في الأجسام مصحح الإنفعالات التي يرد عليها وليست بجسم ولا محسوس وإيّاك أن تتصور أنّها الجسمية التي في الموجودات الجسمانية فهذا هو الذي عزب عن جمع من علماء

الظواهر فتلقوا ما ذكره المتألهون من أصحاب البرهان على غير وجهه وحسبوا أن قولنا أن البرزخ لا مادة له مثلاً أو أن لذائذه خيالية أو هناك لذة عقلية معناها إنّها وهمية سرابية غير موجودة في الخارج إلاّ في الوهم والتصور وذلك انحراف عن المقصود غلط من جهة المعنى .

وكيف كان فحال البرزخ ما عرفته والكتاب والسنة يدلان على ذلك لكن الأخبار حيث اشتملت على جلّ الآيات وضعنا الكلام فيها وتعرضنا للآيات في ضمنها .

ففي تفسير النعماني بإسناده عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلام) قال : وأما الرد على من أنكر الثواب والعقاب في الدنيا بعد الموت قبل القيامة يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلاّ بإذنه فمنهم شقي وسعيد فأمّا الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربّك إن ربك فعّال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربّك ﴾ يعني السموات والأرض قبل القيامة فإذا كانت القيامة بدلت السموات والأرض .

ومثل قوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون وهو أمر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة ﴾ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة ﴾ والغدو والعشي لا يكونان في القيامة التي هي دار الخلود وإنما يكونان في الدنيا وقال الله تعالى في أهل الجنة : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً ﴾ والبكرة والعشي إنما يكونان من الليل والنهار في جنة الحياة قبل يوم القيامة قال الله : ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ ومثله قوله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون فرحين بما آتيهم الله من

فضله ﴾ الآيات .

أقول : قوله سبحانه : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ إريد به نار الآخرة وأما المعرض عليها فهو في البرزخ ويدل على ذلك ذيل الآية وهو قوله سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وسيجيء نظير هذا التعبير في الروايات أنّه يفتح له إلى قبره باب من الحميم يدخل عليه منه اللهب والشرر فهناك نار مثال نار وعذاب مثال عذاب .

وقوله سبحانه : ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار ﴾ أريد به نار البرزخ وبما ذكر يستصح الجمع بين الكون في النار والمعرض عليها ومثله قوله سبحانه : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ فالسحب في الحميم وهو الماء الحار مقدمة للإسجار في النار وهو القيامة وهذه المعاني مروية في تفسير العياشي أيضاً .

وروى القمي والعياشي في تفسيريهما والكليني في الكافي والمفيد في الأمالي بأسانيدهم عن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة مثل له أهله وماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول والله إني كنت عليك لحريصاً شحيحاً فما لي عندك فيقول خذ منّي كفنك ، ثم يلتفت إلى ولده فيقول والله إنّي كنت لكم لمحبّاً وإنّي كنت عليكم لمحامياً فماذا لي عندكم فيقولون نرد بك إلى حفرتك ونواريك فيها ثم يلتفت إلى عمله فيقول والله إنّي كنت فيك لزاهداً وإنك كنت عليّ لثقيلاً فماذا عندك فيقول أنا قرينك في قبرك ويوم حشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربّك فإن كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأزينهم رياشاً فيقول : ابشر بروح من

الله وريحان وجنة نعيم قد قدمت خير مقدم فيقول : من أنت فيقول : أنا عملك الصالح ارتحل من الدنيا إلى الجنة وانّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله فإذا دخل قبره أتاه ملكان وهما فتانا القبر يجران أشعارهما ويبحثان الأرض بأنيابهما وأصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له من ربّك ومن نبيّك وما دينك فيقول الله ربّي ومحمد نبيي والإسلام ديني فيقولان له ثبتك الله فيما تحب وترضى وهو قول الله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا ﴾ الآية ، فيفسحان له في قبره مد بصره ويفتحان له باباً إلى الجنة ويقولان نم قرير العين نوم الشاب الناعم وهو قوله أصحاب الجنة خير مستقراً وأحسن مقيلاً وإذا كان لربه عدوّاً فإنه يأتيه أقبح خلق الله رياشاً وأنتنه ريحاً فيقول له ابشر بنزل من حميم وتصلية جحيم وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يحبسه فإذا دخل قبره أتياه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثم قالا له : من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان له : ما دريت ولا هديت فيضربانه بمرزبة ضربة ما خلق الله دابة إلاّ وتذعر بها ما خلا الثقلان ثم يفتحان له باباً إلى النار ، ثم يقولان له : نم بشر حال . فهو من الضيق مثل ما فيه القنا من الزج حتى أن دماغه يخرج من بين ظفره ولحمه ويسلط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره وإنّه ليتمنى قيام الساعة مما هو فيه من الشر . الخبر .

أقول : قوله (عَلَيْهِ السّلام) : وهو قول الله : ﴿ يثبت الله . . . ﴾ الخ يشير إلى قوله سبحانه : ﴿ ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

فقد بين سبحانه أنّ من الكلمات ما هي ثابتة الأصل قارة تفيد آثارها في جميع الأحوال ووصفها بالطيب وقد ذكر في موضع آخر أنّها تصعد إليه ويرفعها العمل الصالح حتى تصل إلى السماء فقال سبحانه : ﴿ من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعاً ﴾ ثم بين الطريق إليها فقال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ثم بين سبحانه أن هذه الكلمة الطيبة الثابتة الأصل يثبت الذين آمنوا به في الحيوة الدنيا وفي الآخرة والقول يتصف بالثبات وإفادته باعتبار الإعتقاد والنية ففي الآخرة مورد يثبت فيه الإنسان أو يضلّ بالقول الثابت وعدمه وإذ ليس هناك اختيار واستواء لطرفي السعادة والشقاوة فثباته وتثبيته إنّما هو بالسؤال وهو واضح عند التدبر وقد أخبر سبحانه أن هذا القول الثابت والشجرة الطيبة تؤتي أكلها ومنافعها كل حين بإذن ربّها فالآية تدل على وقوع الإنتفاع به في جميع الأحوال وكل المواقف ففي الجميع سؤال وفي الآية الشريفة مزايا معانٍ أُخر .

ويمكن أن يستشم من تمسكه (عَلَيْهِ السّلام) بالآية أنّه (عَلَيْهِ السّلام) جعل البرزخ من تتمة الحياة الدنيا وهو كذلك بوجه .

وقوله (عَلَيْهِ السّلام) : وهو قوله أصحاب الجنة . الخ ، يشير إلى قوله سبحانه : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقائنا لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً أصحاب الجنة

يومئذ خير مستقرّاً وأحسن مقيلا ﴾ .

والآيات في البرزخ وهي من أصرح الآيات فيه والمقيل هو النوم للقيلولة ومن المعلوم أن لا نوم في جنة القيامة إلّا أن البرزخ وإن لم يكن فيه شيء من منامات الدنيا لكنه بالنسبة إلى القيامة نوم بالنسبة إلى اليقظة ولذلك وصف سبحانه الناس بالقيام للساعة .

ولذلك وصف (عَلَيْهِ السّلام) الحال بأنّه يفتح للميت باب إلى الجنة ويقال له نم قرير العين أو باب إلى النار ويقال له نم بشر حال وهذا المعنى كثير الورود في الأخبار فلم يصرح خبر بوروده الجنة بل الجميع ناطقة أنّه يفتح له باب إلى الجنة ويرى منزله فيها ويدخل عليه منها الروح ويقال له نم قرير العين نم نومة العروس وقد مرّ الحديث عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) : حيث سئل ما الموت ؟ فقال : هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة إلّا أنه طويل مدّته لا ينتبه منه إلّا يوم القيامة . الخبر .

فما البرزخ إلّا مثالاً للقيامة وإليه التلميح اللطيف بقوله (عَلَيْهِ السّلام) كما في عدّة أخبار أُخر أيضاً : « ثم يفسح له في قبره مدّ بصره » .

فما المثال إلّا القدر الذي يفهم من الممثل فما بعد مد البصر شيء وقوله سبحانه : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يراد به أول يوم يرونهم هو بقرينة قولهم : ﴿ لولا إنزل علينا الملائكة ﴾ وهو البرزخ وفيه البشرى وعدم البشرى .

واعلم أن الذي تشعر به الآية هو السؤال عن المؤمنين والظالمين وأمّا المستضعفون والمتوسطون فمسكوت عنهم وهو الذي يتحصل من الروايات ففي الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال : قال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : لا يسئل في القبر إلّا من محض الإيمان

عضاً أو عض الكفر عضاً والآخرون يلهون عنهم .

أقول : والأخبار عنهم (عَلَيْهِم السّلام) في هذا المعنى مستفيضة متكاثرة .

وفي تفسير القمّي مسنداً عن ضريس الكناسي عن أبي جعفر (عَلَيْهِ السّلام) قال : قلت له : جعلت فداك ما حال الموحدين المقرين بنبوة محمد من المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام ولا يعرفون ولايتكم ؟ فقال : أمّا هؤلاء فإنهم في حفرهم لا يخرجون منها فمن كان له عمل صالح ولم يظهر منه عداوة فإنّه يخد له خد إلى الجنة التي خلقها الله بالعزب فيدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة حتى يلقى الله فيحاسبه بحسناته وسيئاته فهؤلاء الموقوفون لأمر الله . قال : وكذلك يفعل بالمستضعفين والبله والأطفال وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم . الخبر .

أقول : يشير (عَلَيْهِ السّلام) بقوله : « فهؤلاء موقوفون » إلى قوله تعالى : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾ . وبالجملة فغير المستضعفين ومن يلحق بهم مسؤولون ثم منعمون أو معذبون بأعمالهم .

ولنرجع إلى ما كنّا فيه روى المفيد في الأمالي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث قال : فإذا قبضه الله إليه صيّر تلك الروح إلى الجنة في صورة كصورته فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا .

وفي الكافي عن أبي ولاد الحناط عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : قلت له : جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش ؟ فقال : لا المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم .

وفيه أيضاً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : أن الأرواح في صفة الأجساد في شجر في الجنة تعارف وتسائل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنها أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان فإن قالت لهم تركته حيّاً ارتجوه وإن قالت لهم قد هلك قالوا قد هوى هوى . الخبر .

وهذا المعنى وارد في أخبار كثيرة لكنها بأجمعها في المؤمنين وأما حال الكافرين فسيأتي .

وفي الكافي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : إن المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحب ويستر عنه ما يكره وأن الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره ويستر عنه ما يحب .

وفيه أيضاً عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : ما من مؤمن ولا كافر إلّا هو يأتي أهله عند زوال الشمس فإذا رأى أهله يعملون بالصالحات حمد الله على ذلك وإذا رأى الكافر أهله يعملون بالصالحات كانت عليه حسرة .

وفيه أيضاً عن اسحاق بن عمّار عن أبي الحسن الأول (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن الميت يزور أهله ؟ قال : نعم فقلت : في كم يزور ؟ قال : في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته . فقلت : في أي صورة يأتيهم ؟ قال : في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم ويشرف عليهم فإذا رآهم بخير فرح وإن رآهم بشر وحاجة حزن واغتم .

أقول : والروايات في هذه المعاني كثيرة مروية وأما تصوره بصورة الطائر فهو تمثل .

ويمكن أن يستشعر هذا المعنى بقوله سبحانه : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل إحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما

آتيهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلّا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ فالاسبشار تلقى بالبشارة والفرح بها وقوله ﴿ يستبشرون بنعمة ﴾ بيان لقوله : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا ﴾ فالآيات تفيد أنهم يستبشرون ويفرحون بما يتلقون ممن خلفهم من النعمة والفضل وإنتفاء الخوف والحزن عنهم وهو الولاية وإنهم يعملون الصالحات والله لا يضيع أجر المؤمنين فيحفظ حسناتهم ويعفو عنهم سيئاتهم ويفيض عليهم بركاته فيرون منهم ذلك كلّه فافهم .

وقريب منه قوله سبحانه : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

وفي الكافي عن أبي بصير عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث سؤال الملكين قال : فإذا كان كافراً قالا من هذا الرجل الذي خرج بين ظهرانيكم فيقول : لا أدري فيخليان بينه وبين الشيطان . الخبر .

وروى هذا المعنى أيضاً في حديث آخر عن بشير الدهان ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) وهو قوله سبحانه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ .

واعلم أن البرزخ عالم أوسع من عالم الدنيا لكون المثال أوسع وأوسط من الجسم المادي وقد عرفت معنى المادة فالوارد من تفصيله

بلسان الكتاب والسنة كليات واردة على سبيل الأنموذج دون الإستيفاء .

واعلم أن تعيين الأرض في الأخبار محلا لجنة البرزخ وناره ومجيء الأموات لزيارة أهليهم وغير ذلك منزل على عدم انقطاع العلقة المادية بكمالها وهو كذلك كما مرّ .

وقد ورد في أخبار أن جنة البرزخ في وادي السلام وان نار البرزخ في وادي برهوت وان صخرة بيت المقدس مجتمع الأرواح وفي روايات أُخر مشاهدة الأئمة للأرواح في أمكنة مختلفة وروى ذلك في كرامات الصالحين بما هو فوق حد الحصر وكل ذلك أمور جائزة تكشف عن علقة لشرافة مكان أو زمان أو حال .

فصل ٣

في نفخ الصور

قال سبحانه : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقد ورد في رواية عن السجاد (عَلَيْهِ السّلام) إن النفخات ثلاث نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة الأحياء ويمكن تنزيل ذلك إلى ما سيأتي من معنى قوله سبحانه : ﴿ ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ الآية ، والله أعلم فالنفخة نفختان نفخة للأماتة ونفخة للأحياء ولم يرد في كلامه سبحانه ما يمكن أن يفسر به معنى الصور من حيث اللفظ وهو في اللغة القرن وربما كان يثقب وينفخ فيه ولا ورد في النفخة الأولى إلّا الآيتان في سورة النمل والزمر إلّا أنّه سبحانه عبّر

عن معناه في مواضع أُخر بالصيحة وبالزجرة وهي الصيحة وبالصاخة وهي الصيحة الشديدة وبالنقر قال سبحانه : ﴿ إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال سبحانه : فإذا جاءت الصاخة يوم يفرّ المرء من أخيه ﴾ الآيات وقال سبحانه : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ وقال سبحانه: ﴿واستمع يوم ينادي المنادِ من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾.

فمن هنا يعلم أن مثل الصور مع نفختيه مثل ما يصنع في العساكر المعدة للحضور إلى غاية فينفخ في الصور مرّة أن اسكتوا وتهيؤوا للحركة وينفخ ثانية أن قاموا وارتحلوا واقصدوا غايتكم فالصور موجود حامل لصيحتين صيحة ممتة وصيحة محيية وهو اذن لم نجد له تفسيراً وافياً من الكتاب إلّا أنه معبر بلفظة فيه في اثنى عشر مورداً أو أزيد فلا محالة هو ذو معنى أصيل محفوظ وقد عبّر عنه بالنداء أيضاً ولا يكون النداء إلّا ذا معنى مقصود ووصفهم سبحانه بسمع الصيحة بالحق ولا يسمع إلّا الموجود الحي وقد أخبر بصعقتهم فليس إلّا إن اتصافهم بالحياة والموجود عين استماعهم وسمعهم إذ استماعهم وسمعهم إذ أسماعهم للصيحة المحيية لهم بعد اتصافهم بالحياة غير معقول فليس إلّا كلمة الهية يميتهم ويحييهم وقد قال سبحانه : ﴿ هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فالنفختان كلمتان الهيتان كلمة ممتة وكلمة محيية لكنه سبحانه لم يعبر بالموت وإنما عبر بالصعقة ولعل ذلك لأن الموت يطلق على خروج الروح من البدن وقد شمل حكم النفخة من في السموات والأرض وفيها الملائكة والأرواح وفي قوله سبحانه في وصف أهل الجنة : ﴿ لا

يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى ﴾ تلميح إلى ذلك .

نعم وقع في قوله سبحانه حكاية عن قول أهل النار : ﴿ ربّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ لو لم تكن التثنية للتكرار أو التغليب إطلاق الموت على صعقة النفخة ثم انه سبحانه قال : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ فأفاد شمول حكم البرزخ على الجميع فالمراد بمن في الأرض في آيتي الفزع والصعقة ليس من على ظهر الأرض ممن هو في قيد الحياة الدنيا قبل البرزخ بل الذين قال فيهم سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾ وقال سبحانه : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلاّ قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة ﴾ إلى أن قال : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ فهؤلاء أهل الأرض وإن حلو البرزخ وأما من في السموات فهم الملائكة وأرواح السعداء وقد قال سبحانه : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وقال : ﴿ لكم ميعاد ما يوم ﴾ وقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ وقال : ﴿ وأجل مسمّى عنده ﴾ وقال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ وقال : ﴿ يرفع الله الذين أمنوا ﴾ وقال : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى هذا فالآيات الدالة على وقوع الصيحة على أهل الأرض وفناء الدنيا وخرابها منزلة على إنطواء نشأة الدنيا وانقراضها وأهلها كقوله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم

يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ كل من عليها فانٍ ﴾ فهناك صيحة ينطوي بها بساط الدنيا وينقرض أهلها ونفخ يموت به أهل البرزخ ونفخ تقوم به القيامة ويبعث به الناس . نعم قوله سبحانه : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمّى ﴾ وقوله : ﴿ وأجل مسمّى عنده ﴾ قد جمع الجميع تحت الأجل فلا موت حتف أنفساً أو قتلاً ولا بصيحة ولا بنفخ صور إلّا بأجل .

وأمّا قوله سبحانه في أيتي النفخ : ﴿ إلّا من شاء الله ﴾ فالإستثناء الذي في قوله سبحانه : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله ﴾ فيفسره ما بعده من الآيات وهي : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون ﴾ ، لكن الحسنة أريدت بها المطلقة لمكان الأمن وقرينة مقابلتها بالسيئة والإيعاد عليها فالمختلط عمله منها لا يأمن الفزع لمكان السيئة فالأمن من الفزع طيب ذاته وطيب أعماله من السيئات وقد عدّ سبحانه سيئات الأعمال خبائث فقال : ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾ وقال أيضا : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ وقد عدّ من الرجس الكفر والنفاق والشرك فقال : ﴿ وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ وقال : ﴿ إنّما المشركون نجس ﴾ وعدّ من الشرك بعض مراتب الإيمان فقال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون ﴾ فطيب الذات من الشرك أن لا يؤمن بغيره سبحانه

ولا يطمئن إلاّ إليه أي لا يرى له سبحانه شريكاً في وجوده وأوصافه وأفعاله وهو الولاية وإليه يرجع معنى قوله سبحانه : ﴿ الذين تتوفيهم الملائكة طيبين ﴾ أي من حيث الذات بالولاية : ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾ والسلام هو الأمن .

فقد ظهر بما وجهنا به معنى الآية أن الحسنة فيها هي الولاية وبه يشعر قوله سبحانه : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً أن الله غفور شكور ﴾ .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ قال (عَلَيْهِ السّلام) الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين والسيئة والله اتباع أعدائه .

وفي الكافي عن الصادق عن أبيه عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) قال (عَلَيْهِ السّلام) : الحسنة معرفة الولاية وحبّنا أهل البيت والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت ثم قرأ الآية . الحديث .

وبما مرّ من البيان يتبين الحال في الآية الأخرى وهي قوله سبحانه : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ فظاهر الآية إن الذين صعقوا من النفخة هم الذين قاموا لله يوم يقوم الناس لربّ العالمين وهم المحضرون لقوله سبحانه : ﴿ إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ ، وقد استثنى سبحانه من المحضرين عباده المخلصين إذ قال : ﴿ فإنّهم لمحضرون إلاّ عباد الله المخلصين ﴾ ثم عرفهم سبحانه بقوله حكاية عن إبليس حين رجم : ﴿ قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾ فبين أن لا سبيل للشيطان إليهم ولا يتحقق إغوائه

فيهم ، وقد ذكر أيضاً إن إغوائه إنما هو بالوعد حيث قال سبحانه : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ إلى أن قال : ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إنّي كفرت بما أشركتموني من قبل أن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ واستنتج من ذلك كما ترى إن اللوم راجع إلى أنفسهم وان الذنب راجع إلى الشرك وانهم بمقتضى شقائهم الذاتي ظالمون وان الظالمين لهم عذاب أليم فالمخلصون هم المخلصون عن الشرك بذاتهم لا يرون لغيره سبحانه وجوداً ولا يحسون لغيره إسماً ولا رسماً ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً وهذا هو الولاية .

وبالجملة فأولياء الله سبحانه هم المستثنون من حكم الصعقة والفزع لا يموتون بالنفخة حين يموت بها من في السموات والأرض وقد قال سبحانه : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ وقال : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ فبيّن سبحانه طيّها وبلوغها أجلها يومئذ بمن فيها بذلك يظهر أن المخلصين المستثنين ليسوا فيها بل مقامهم فيما وراء السموات والأرض وهم مع ذلك في الجميع قال سبحانه : ﴿ كل شيء هالك إلّا وجهه ﴾ فهم من الوجه وقال سبحانه : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ فهم المحيطون بالعالم بإحاطته سبحانه وقد بينه سبحانه بوجه آخر بعدما بين أن أهل الجنة في السماء وأهل النار في النار بقوله : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ وسيأتي كلام فيه في غير هذا المقام .

ومن هنا يظهر انهم في فراغ وأمن من سائر الأمور الجارية والشدائد والأهوال الواقعة بين النفختين قال سبحانه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتّا دكّة واحدة

فيومئذ وقعت والواقعة ﴾ والدك هو الدق تقول دككت الشيء إذا ضربته وكسرته حتى تسوي به الأرض وقال تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ وقال : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وقال : ﴿ فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ﴾ وقال : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وقال : ﴿ وإذا الكواكب انتشرت ﴾ وقال : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ وقال : ﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾ وهذه الآيات بظاهرها قريبة الإنطباق باشراط الساعة ومقدمات القيامة وخراب الدنيا وانقراض أهلها .

واعلم إن هذا هو المصحح لعد الساعة تالية للدنيا وبعدها كما ان الموت هو المصحح لعد البرزخ بعد الدنيا وإلّا فكما إن المثال محيط بعالم المادة وهو الدنيا فكذلك نشأة البعث محيطة بالدنيا والبرزخ على ما يعطيه البرهان السابق واللاحق ومع الغض عن الإحاطة أيضاً فانطواء بساط الزمان وانقطاع الحركات بين النشأتين يوجب انقطاع النسبة الزمانية ويبطل بذلك قبل وبعد قطعاً هذا .

واعلم أن هناك آيات أُخر قريبة السياق من الآيات المذكورة آنفاً غير أنّها تعطي نحواً آخر من المعنى قال سبحانه : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ فإن تسيير الجبال بنقل أمكنتها وجعلها كثيباً مهيلاً وكالعهن المنفوش لا ينتهي إلى كونها سراباً وذلك ظاهر وقال سبحانه : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع

الله الذي أتقن كل شيء ﴾ فإن ظرف ترى أمّا حال الخطاب أو حال النفخ كما يؤيده وقوع الآية بعد آية النفخ فتنطبق على زلزلة الساعة وهي التي بها تذهل كل مرضعة عمّا ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وهي لا تلائم قوله تعالى : ﴿ تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب ﴾ فإنها تدل على أن الجبال حينئذ على ظاهر كيفيتها الجسمانية من الأبهة والعظمة والإستقرار والتمكن مع انّها من غير هذه الحيثية غير مستقرة بل سارية .

ومن الدليل عليه قوله : ﴿ صنع الله الذي أتقن كلّ شيء ﴾ فإنّه لا يلائم فناء الجبال وإندكاكها بل يشعر بأنها في صنعها متقنة غير هينة الفساد ولا يسيرة الإنفكاك فهو سير لا ينافي استحكام أساسها واتقان وجودها في محله بل إندكاك في عين الإستحكام فكونها سراباً يجتمع مع إتقان صنعها وبقاء هويتها ووجودها .

فصل ٤

في صفات يوم القيامة وقيام الأشياء له سبحانه

قال تعالى:﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم للّه الواحد القهّار ﴾ وقال : ﴿ يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ﴾ وقال : ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾ وقال : ﴿ يوم لا يغني مولىً عن مولى شيئاً ﴾ وقال : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وقال : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وقد اشتملت على توصيف يوم القيامة بأوصاف غير مختصة به ظاهراً فإن الملك والقوة والأمر لله دائماً والموجودات بارزة له غير خافية عليه ولا عاصم ولا ملجأ منه سبحانه دائماً لكنه سبحانه قال :

﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب إن القوة لله جميعاً وإن الله شديد العقاب إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ فأخبر بتقطع الأسباب وانقطاع الروابط يومئذ فأفاد إن جميع التأثيرات والإرتباطات التي بين الموجودات في نظامها الموجود في عالم الأجسام والجسمانيات وما يتلوه ستقطع وتزول فلا يؤثر شيء منها في شيء ولا يتأثر شيء عن شيء ولا ينتفع ولا يستضر شيء بشيء ولو كان الظرف ظرفها واليوم يومها لما تخلف شيء من أحكامها ولم تزل عن مستقرها إلاّ ببطلان الذوات وانقلاب الماهيات ومن المحال ذلك ولا تبديل لكلمات الله فإذن المرفوع الزائل هو وجوداتها السرابية وهي وجوداتها القائمة بالحق سبحانه الثابتة به الباطلة في أنفسها فلا تبقى إلاّ نسبتها إلى الحق سبحانه وتبطل بقيّة النسب وإذ هي باطلة في نفسها فهو انكشاف بطلانها لا نفسه وظهور حقيقة الأمر وهو أن لا وجود إلاّ له سبحانه ولا تأثير لغيره فلا ملك إلاّ له ولا مالك إلاّ هو وهو قوله سبحانه : ﴿ ملك يوم الدين ﴾ قوله : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقوله : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار ﴾ ويشهد لما ذكرنا من إنكشاف بطلان الوجودات السرابية والأسباب الظاهرية لا نفس بطلانها قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم ﴾ إلى أن قال : ﴿ لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ الآيات حيث ذكر بطلان الأسباب عند الموت مع أنّها في محلها لم تزل وإنّما هو إنكشاف بطلانها .

وفي نهج البلاغة في خطبة له (عَلَيْهِ السّلام) : وأنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل إبتدائها كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند

ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات فلا شيء إلّا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور .

وفي الإحتجاج عن هشام بن الحكم في خبر الزنديق فيما سأله عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) إلى أن قال : أيتلاشى الروح بعد خروجه من قالبه أم هو باقٍ بل هو باقٍ إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء فلا حسّ ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبّرها وذلك بعد أربعمائة سنة ليست فيها الخلق وذلك بين النفختين .

وفي تفسير القمّي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : ثم يقول الله عزّ وجلّ لمن الملك اليوم فيردّ على نفسه لله والواحد القهار .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : ويقول الله لمن الملك اليوم ثم تنطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون لله الوحد القهار .

وفي تفسير القمّي عن السجّاد (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : قال : فعند ذلك ينادي الجبّار بصوت جهوري يسمع أقطار السموات والأرضين لمن الملك فلا يجيبه مجيب فعند ذلك ينادي الجبار مجيباً لنفسه لله الواحد القهار . الحديث .

أقول : فانظر إلى بياناتهم (عَلَيْهِم السّلام) وهم لسان واحد كيف جمعت بين فناء السموات والأرض وتحققها وزوال السنين والساعات وثبوتها وعدم مجيب لندائه سبحانه غير نفسه ووجود المجيب ثم انظر إلى قوله سبحانه في جوابه لنداء نفسه لله الواحد القهار ومكان الاسمين وتدبر في أطراف الكلام تعرف صحّة ما استفدناه آنفاً .

ثم إنّه إذا زال الوجود المستقل عن الأشياء وعادت الثبوتات إلى تحققات وهمية سرابية وبطلت عامة التسبيبات والتشبثات وهو قوله سبحانه : ﴿ مالكم من الله من عاصم ﴾ وقوله : ﴿ ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾ وقوله : ﴿ ما أغنى عنّي ماليه هلك عنّي سلطانيه ﴾ وقوله : ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ وقوله : ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ وقوله : ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ وقوله : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا بل نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضلّ الله الكافرين ﴾ وقولهم : ﴿ بل لم نكن ندعو ﴾ يقولون إنّا قبل يوم القيامة لم ندعُ غير الله ولم نعبد له شريكاً فهو ظهور كونهم في الدنيا مغرورين بسرابها ولعبها وقد كان باطلاً بالحقيقة فقال سبحانه : ﴿ كذلك يضلّ الله الكافرين ﴾ .

وقريب منه قوله سبحانه : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركائكم فزيلنا بينهم وقال شركائهم ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾ وقوله : ﴿ تبرّأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون ﴾ ومرجع الجميع إلى قوله سبحانه : ﴿ ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ وقوله : ﴿ ما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ .

ثم إنّه إذا بطلت الأسباب بينهم وهي المراتب المترتبة المقدرة في الوجود والتأثيرات التي بينها ظهر حكم الباطن ومن المعلوم أن الظاهر ظاهر بالباطن فاتحد حينئذ الغيب والشهادة إذ كل شيء فهو في نفسه ووجوده شهادة وإنما الغيب معنى نسبي يتحقق بفقدان شيء لشيء وغيبوبته عنه إمّا حسّاً أو غيره .

وبالجملة بسبب وبارتفاع الأسباب يرتفع كل حجاب يحجب

شيئاً عن شيء وهو قوله سبحانه : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ وقوله : ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ وقوله : ﴿ فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد ﴾ ومن هذا الباب قوله : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وقوله : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور أن ربّهم بهم يومئذ لخبير ﴾ وقوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

ويمكن أن ينزل على ما هاهنا ما ورد من الآيات والأخبار في بروز الأرض .

وفي الكافي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع ﴾ قال : القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه . قال : وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنّما أرادوا بالزهد في الدنيا تفرغ قلوبهم للآخرة .

أقول : وقوله سبحانه : ﴿ كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ﴾ لا ينافي ما ذكرناه فإنّه كما سيجيء ينفي التشريف الذي يقع للمؤمنين وتصديق لما قضى به سبحانه إن الجزاء بالأعمال وإن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد حجب هؤلاء أنفسهم في الدنيا عنه سبحانه فلابد من ظهور مصداقه يوم القيامة وذلك كقوله سبحانه : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

ثم إن بطلان الأسباب وزوال الحجب وظهور الباطن الذي هو محيط بالظاهر مقوم له قائم عليه يعطي كون الساعة محيطة بهذه النشأة وما فيها وما يتلوها فالظاهر موجود للباطن حاضر عنده دون العكس وهو قوله سبحانه : ﴿ ويقولون متى هو قل عسى أن يكون

قريباً ﴾ وقوله : ﴿ فلمّا رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ وقوله : ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ وقوله : ﴿ وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ وقوله : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم ﴾ فالسبق إلى الشيء يوجب حيلولة فقولك سبقت إلى مكان كذا يوجب وجود شيء آخر سبقته وحلت بينه وبين المكان قبل أن يصل إليه فسبقة كلمة سبحانه إلى أجل مسمّى وهو قوله : ﴿ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاعٌ إلى حين ﴾ يعطي أنّه محيط بهم قريب لولا السد الذي سدّه سبحانه تجاهه لغشيهم فصل القضاء فافهم .

ومن هذا الباب قوله : ﴿ كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيّة أو ضحيها ﴾ وقوله : ﴿ كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ﴾ وقوله : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلاّ قليلاً لو أنّكم كنتم تعلمون ﴾ وقوله : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ .

ثم إن ما مرّ من ظهور الباطن وبطلان الظاهر يوجب ظهور الحق سبحانه يومئذ وارتفاع حجب الماهيات وانتهاك استار الهويات وبلوغ الكل إلى غاية الغايات من سيرهم ومنتهى النهايات من كدحهم ورجوعهم وهو قوله سبحانه : ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرسيها فيم أنت من ذكريها إلى ربّك منتهاها ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وإنّ إلى ربّك المنتهى ﴾ وقوله : ﴿ يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه ﴾ وقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ وقوله : ﴿ وإليه

تقلبون ﴾ وقوله : ﴿ وإليه المصير ﴾ وقوله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ وآيات أخرى في هذا المعنى ، وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل إنّما العلم عند الله ﴾ وقوله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرسيها قل إنّما علمها عند ربّي لا يجليها لوقتها إلاّ هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة يسألونك كأنك حفيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فهم لزعمهم أنّها أمر زماني في سلسلة متصلة بزمانهم سألوا توقيتها فصرفهم سبحانه بما يقرب من أفهامهم ثم لما ألحوا فيه أجابهم بأن علمها لا يبرز من عند الله ويأبى بذاته عن الطلوع لغيره سبحانه لا أنّه يقبل الحصول للغير وإنما أخفى إخفاءاً كما لمصلحة أو غيرها كما في معلوماتنا ولذلك عقبه سبحانه بقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ثم إن حجب المراتب والهويات حيث ارتفعت يومئذ ولم يحتجب شيء عن شيء فالوعاء وعاء النور وقد تبدلت الهويات فصارت متنورة وهو قوله سبحانه : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ وقوله : ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ وقوله : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه ﴾ إلى أن قال : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ﴾ وقوله : ﴿ وان الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ وقوله : وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلّت ﴾ وقوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

وفي تفسير القمّي عن السجاد (عَلَيْهِ السّلام) في حديث في قوله سبحانه : ﴿ تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال (عَلَيْهِ السّلام) : يعني بأرض لم تكتسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها

جبال ولا نبات كما دحيها أول مرة ويعيد عرشه على الماء كما كان أول مرة مستقلاً[١] بعظمته وقدرته . الحديث .

وما ذكرناه في الإستفادة عن الآيات في تنور الموجودات لا ينافي آيات أُخر تنفي النور عن الكافرين كقوله سبحانه : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، وقوله : ﴿ ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وقد قال سبحانه في المؤمنين : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ الآية ﴿ ولهم أجرهم ونورهم ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ سبحانه كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ وقوله : ﴿ أوليائهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ فإن ذلك ظهور ظلمات اكتسبتها أنفسهم في الدنيا ولابد أن يبدو لهم في الآخرة فتلك ظلمة مع نور قد حرم المشركون عن إفاضتها وكتبه الله للمؤمنين وقد مرّ نظير هذا المطلب في إرتفاع الحجب بين الإنسان وبين ربّه .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ كذبوا على أنفسهم ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فألقوا السلم ما كنّا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ .

وهناك روايات أيضاً في أن المشركين يكذبون يوم القيامة فهذه كما ذكرنا في غيرها أيضاً ظهور للمعصية التي اقترفوها في الدنيا يومئذ ولا ينافي عدم قابلية اليوم للكذب فكل ما يعمله الإنسان من عمل أو

(١) قوله (عَلَيْهِ السَّلام) : « مستقلاً بعظمته وقدرته » تفسير لكون عرشه على الماء وله شواهد من الكتاب تدل على أن الماء إشارة إلى منبع كلّ حياة وقدرة وعظمة ان تحمل نقوش الخلقة ظهرت الموجودات وإذا امحت عاد العرش على الماء فافهم والله الهادي منه .

يكسبه من فضيلة أو رذيلة لابد وإن يظهر يوم القيامة وقد قال سبحانه : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وسيجيء في فصل الأعراف ما يتم به هذا البيان ويتبين به أن الأمر واحد في نفسه لكنه للمؤمنين رحمة وكرامة وللكافرين نقمة وعذاب فاحسن التدبر فيه فإنّه دقيق .

فصل ٥

في قيام الإنسان إلى فصل القضاء

حيث أن المعاد رجوع الأشياء بتمام ذاتها إلى ما بدأ منها وهو واجب بالضرورة كما مرّت الإشارة إليه فمن الضروري أن يكون ذلك بتمام وجودها فما وجوده ذو مراتب وجهات متحدّة بعضها مع بعض يرجع إلى هناك بتمام وجوده بالضرورة فلحوق بدن الإنسان بنفسه في المعاد ضروري غير أن النشأة متبدلة إلى نشأة الكمال الأخير والحيوة التامة فالبدن كالنفس الحية حي نوراني . هذا :

ويشير إلى ذلك ما في الإحتجاج عن الصادق في كلامه مع الزنديق قال (عَلَيْهِ السّلام) : إن الروح مقيمة في مكانها روح المحسن في ضياء وفسحة وروح المسيء في ضيق وظلمة والبدن يصير تراباً منه خلق وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها وأن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء والزبد هو اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كل قالب فينتقل بإذن القادر إلى حيث الروح فتعود

الصور بإذن المصور كهيأتها وتلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً . الخبر .

أقول : وقوله (عَلَيْهِ السَّلام) : ﴿ فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور ﴾ ورد في هذا المعنى عدّة روايات منهم (عَلَيْهِم السَّلام) أيضاً هو مستفاد من تمثيله سبحانه البعث والاحياء بإحياء الأرض بعد موتها قال سبحانه : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنّه يحيي الموتى وأنّه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ .

فالآيات كما ترى تعطي أن للإنسان المادي أو لبدنه فقد تبدلات حتى يصل الغاية التي غياها سبحانه له ومثلها قوله سبحانه : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرّة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ يفيد أن الذي جعل الشجر الأخضر بالتدريج والتصرف بعد التصرف ناراً يضاد الخضرة قادر على أن يجعل العظام الرميم حية وفي هذا المجرى قوله سبحانه : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون ﴾ ومثله قوله : ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا ﴾ .

والمراد بتبديل الأمثال ورود خلق بعد خلق قال تعالى : ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ وقال : ﴿ كل يوم هو في شان ﴾ وليس المراد بها الأمثال المصطلح عليها في العلوم العقلية وبالإتحاد النوعي والإختلاف الشخصي فإن مثل الشيء بهذا المعنى غير الشيء

فلا يتم الحجة على منكري الحشر بقوله : ﴿ أوَليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ إذ خلق مثلهم على ذلك ليس إعادة لهم بالضرورة بل المراد بخلق مثلهم وتبديل أمثالهم التبدلات فيهم بحيث لا تخرج عن أنفسهم كما أنّه سبحانه في مثل هذا النظم بدل المثل بالعين فقال : ﴿ أوَلم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فالمراد بمثل الشيء نفس الشيء وهو نوع من التلطف في الكلام .

فهذا كلّه يتضمن تبدلات الأبدان وورودها طوراً بعد طور وركوبها طبقاً عن طبق حتى تنتهي إلى الساعة فتلحق بالأنفس قال سبحانه : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ وقال : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ فعبّر بكلمة ما ثم قال : ﴿ فإنّما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ وهذا هو لحوق الأبدان بالأرواح كما ترى وللأرواح مع ذلك سيراً في مسيرها وحركة في طريقها قال سبحانه ﴿ من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فبين أن الروح كالملائكة تعرج إليه سبحانه في معارجه والمعراج السلم ومثله قوله سبحانه : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وقد جمع سبحانه أهل السعادة والشقاء جميعاً في قوله : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ وقوله : ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ وقال سبحانه في أهل الجنة : ﴿ كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابهاً ﴾ وقال في أهل النار : ﴿ مأويهم جهنم كلّما خبت زدناهم سعيرا ﴾ إذ قد أخبر سبحانه أن لا وقود لجهنم غير أهلها فخبوها نفاذ من فيها بالاحراق .

فصل ٦
في الصراط

قال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلّا طريق جهنم ﴾ وقال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنّهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون ﴾ فأخبر تعالى أن للجحيم صراطاً يهدي الظالمون إليها مع أزواجهم وهم الشياطين كما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ فوربّك لنحشرنّهم والشياطين ثم لنحضرنّهم حول جهنم جثيّا ﴾ إلى أن قال : ﴿ وإن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّا ثم ننجي الذي اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيّا ﴾ .

والصراط كما يدل عليه هذه الآيات صراط على الجحيم أو فيها إذ قد أخبر سبحانه بالورود والنجاة والترك في هذه الآيات وبالملاء الحتمي في قوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حقّ القول مني لأملأنّ جنهم من الجنّة والناس أجمعين ﴾ .

وهذا الصراط الممدود على جهنم ممر الخلائق أجمعين من برّ وفاجر ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيّا ولقد كرّر سبحانه في هذه الآيات لفظ الظلم ومثله قوله سبحانه : ﴿ الّذين طغوا في البلاد ﴾ والطغيان الإفراط في الظلم والإستكبار : ﴿ فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب إنّ ربّك لبالمرصاد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إنّ جهنّم كانت مرصاداً ﴾ .

والظلم إمّا بتفريط في جنب الناس وإمّا بتفريط في جنب النفس وإمّا بتفريط في جنب الله وهو الولاية التي لأولياء الله

والجميع يحصل باتباع الهوى والشيطان وأصله الإغترار بزينة الحياة الدنيا والإخلاد إلى هذه الأوهام التي نسمّيها مجموعاً بنظام التمدن وهو التناصر بالأوهام غير الحقائق ولعل هذا هو المسؤول عنه في قوله سبحانه : ﴿ وقفوهم أنّهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

ومن ما مرّ يظهر معنى ما ورد من الروايات في الباب ففي تفسير القمّي في قوله تعالى : ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ الآية عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وجيء يومئذ بجهنّم ﴾ سئل عن ذلك رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) فقال (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين أتي بجهنم تقاد بألف زمام آخذ بكل زمام مئة ألف يقودها من الغلاظ الشداد لها هدة وغضب وزفير وشهيق وأنّها لتزفر زفرة فلولا أن الله أخرهم للحساب لأهلكت الجميع ثم يخرج منها عنق فيحيط بالخلائق البرّ منه والفاجر ما خلق الله عبداً من عباد الله ملكاً ولا نبيّاً إلّا ينادي ربّ نفسي نفسي وأنت يا نبي الله تنادي أمّتي أمتي ثم يوضع عليها الصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف عليه ثلاثة قناطر فأمّا واحدة فعليها الأمانة والرحم والثانية فعليها الصلاة والثالثة فعليها ربّ العالمين لا إله غيره فيكلفون الممر عليها فيحبسهم الرحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلوة فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين وهو قوله : ﴿ إنّ ربّك لبالمرصاد ﴾ فمتعلق بيد وتزل بقدم ويستمسك بقدم والملائكة حولها ينادون يا حليم أعفُ واصفح وعد بفضلك وسلّم سلّم والناس يتهافتون في النار كالفراش فيها فإذا نجى ناجٍ برحمة الله مرّ بها فقال الحمد لله وبنعمته تتم الصالحات وتزكو الحسنات والحمد

لله الذي نجّاني منك بعد إياس بمنّه وفضله إنّ ربّنا لغفور شكور .
وروى الكليني في الكافي والصدوق في الأمالي ما في معناه .

وفي العلل عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في تفسير قوله : ﴿ إنّهم مسؤولون ﴾ قال (عَلَيْهِ السّلام) : لا يجاذبه قدما عبد حتى يسئل عن أربع عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه وعن حبّنا أهل البيت .

وروى القمّي في تفسيره عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) والصدوق في الأمالي والعيون عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) عن المسؤول عنه ولاية أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام)

وفي المجمع عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) قال : يرد الناس النار ثم يصدرون بأعمالهم فأوّلهم كلمع البرق ثم كمرّ الريح ثم كمحضر الفرس ثم كالراكب ثم كشد الرجل ثم كمشيه .

وعنه (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي .

وعن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) أيضاً أنّه سئل عن قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلّا واردها ﴾ الآيات ، فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربّنا أن نرد النار فقال : قد وردتموها وهي خامدة .

أقول : وبالتأمل فيما قدّمنا وفي ما سيجيء في الشفاعة يتضح معنى هذه الأحاديث والله الهادي .

فصل ٧
في الميزان

قال سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ بين سبحانه أن الوزن حق ثابت يوم القيامة ثم قال فمن ثقلت موازينه ، ومن خفّت موازينه ، ولعلّ الجمع باعتبار عدد الزنات والثقل في الحسنات والخفّة في السيئات مع أن ظاهر الأمر يقتضي العكس كما قال : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ ﴿ ويرفع الله الذين آمنوا ﴾ وقال : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ بناءاً على ما بينه سبحانه من بوار السيئات وبقاء الحسنات قال تعالى : ﴿ فأمّا الزبد فيذهب جفاءاً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ فالثقل إنما هو للحسنات دون السيئات وفي قوله سبحانه : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ إشارة إلى ذلك .

ثم إنّه سبحانه قال : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ففسر الموازين بالقسط وهو العدل في مقابلة الظلم وبين وجه الثقل في الحسنات والخفة في السيئات .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ قال (عَلَيْهِ السّلام) : إنّما يعني الحسنات توزن الحسنات والسيّئات والحسنات ثقل الميزان والسيئات خفّة الميزان .

وفي الإحتجاج عنه (عَلَيْهِ السّلام) : هي قلّة الحسنات وكثرتها . الحديث ، ويتبيّن بما مرّ معنى قوله سبحانه : ﴿ أولئك

الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً ﴾ إذ لا معنى لوضع الميزان والوزن مع الحبط .

وبه يتبين أن الوزن بالميزان يوم القيامة يختص بالأعمال غير المحبطة ولذلك فالآية لا تنافي قوله سبحانه : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ﴾ .

وبما مرّ يظهر معنى ما ورد عنهم (عَلَيْهِم السّلام) من الروايات : ففي الإحتجاج عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) حيث سأل عنه الزنديق : أوَليس توزن الأعمال ؟ قال : لا لأنّ الأعمال ليست أجساماً وإنّما هي صفة ما عملوا وإنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها ولا خفّتها وإن الله لا يخفى عليه شيء . قال : فما معنى الميزان ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : العدل . قال : فما معناه في كتابه ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ ؟ قال : فمن رجح عمله . الخبر .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في خبر من ادّعى التناقض بين آيات القرآن قال (عَلَيْهِ السّلام) : وأمّا قوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين الله تبارك وتعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين . الخبر .

وفي الكافي والمعاني عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) وقد سئل عن قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيمة ﴾ قال : الأنبياء والأوصياء .

أقول : ووجهه واضح مما مرّ .

وفي الكافي عن السجاد (عَلَيْهِ السّلام) في كلام له في الزهد : واعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام واتّقوا الله عباد الله . الخبر .

فصل ٨

في الكتب

قال سبحانه : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتاباً يلقيه منشوراً إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ بيّن سبحانه أنّه ألزم الإنسان طائره وهو عمله الذي يتفائل به ويتشائم به فطائر الإنسان عمله الذي قلّده ولذلك وصفه بأنّه في عنقه وقد كانت الأعمال التي يحفظ للإنسان وعليه غير محسوسة ولا ظاهرة إذ الحس في الدنيا لا يجاوز سطح الأشياء والإستدلال فيها إنّما هو بالآثار لكن نشأة القيامة نشأة تبلى فيها السرائر ويرزوا لله جميعاً فلذلك وصف الطائر بأنّه سيخرج له كتاباً منشوراً وقال سبحانه : ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ وقال سبحانه : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ ونسب الإحصاء والبداء واللزوم إلى نفس الأعمال إذ كان الكتاب مشتملاً على نفسها أو حقائقها دون الخطوط التي نصطلح عليها فيما عندنا من الكتابة وهو قوله سبحانه : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى ﴾ وقوله : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر ﴾ وقد مرّ أن هذا اليوم محيط بجميع المراتب الوجودية فالأعمال كما تحضر بأنفسها تحضر بحقائقها التي ظهرت منها وهو قوله سبحانه : ﴿ وترى كل أمّة جاثية كلّ أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وهذا هو الكتاب المخصوص الذي يشتمل على نفس الأعمال ثم قال سبحانه : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وهذا هو الكتاب المبين الذي مكتوب فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما في الأخبار ومنه النسخ الجزئية كلّها ومنه يستنسخ الأعمال في نشأة ظهورها وهو المشتمل على حقائقها والحجّة على الكل ولعلّه المراد بقوله سبحانه : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب ﴾ .

وفي الكافي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث اللوح وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلّها ، أوَلستم عرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه انسخ ذلك الكتاب أوَليس إنّما ينسخ من كتاب آخر من الأصل وهو قوله : ﴿ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .

وفي تفسير العياشي عن خالد بن نجيح عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : إذا كان يوم القيامة دفع إلى الإنسان كتابه ثم قيل له إقرأ . قلت : فيعرف ما فيه ؟ فقال : إن الله يذكره فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله إلّا ذكره كأنّه عمله تلك الساعة فلذلك قالوا : ﴿ يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيها ﴾ .

وفيه أيضاً عن خالد بن يحيى عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قريب منه .

أقول : وقد فسّر (عَلَيْهِ السّلام) القراءة بالذكر وقد ذكرنا في رسالتي الأفعال والوسائط في الكتاب كلاماً أبسط من هذا .

ثم إنّه سبحانه قال : إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم ﴾ فعمّم الكتابة لأعمالهم التي فعلوها بلا واسطة وما يترتب عليها من الآثار فالكل محاسب به ويظهر به معنى قوله : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر ﴾ .

وفي تفسير القمّي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) : بما قدّم من خير وشر وما أخّر فما سنّ من سنة يستن بها فإن كان شرّاً كان عليه مثل وزرهم ولا ينقص من وزرهم شيئاً وإن كان خيراً كان له مثل أجورهم ولا ينقص من أجورهم شيئاً ثم عقّبه سبحانه بقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمامٍ مبين ﴾ .

ومن هنا يظهر أن اللوح المحفوظ يحاسب به العباد كما يحاسبون بالألواح المخصوصة لكل واحد منهم .

ويظهر أيضاً أن الكتاب الذي ذكره سبحانه بقوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم ﴾ هو اللوح المحفوظ فإنّه وصف الكتاب في هذه الآية بالإمامة وهو المتبوعية في الأعمال ووصفه هناك باستنساخ الأعمال منه فهو واحد .

ثم بيّن سبحانه تفاوت أخذهم الكتاب بالسعادة والشقاوة فقال : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه ﴾ إلى أن قال : ﴿ وأمّا من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابيه ولم أدرِ ما حسابيه ﴾ واليمين والشمال جانبا الإنسان القوي والضعيف

أو اليدان التاليتان لهما أو جانبا السعادة والشآمة .

وليس المراد وضع الكتاب في يد الإنسان اليمنى أو اليسرى على ما يفهمه الظاهريون من المحدثين وغيرهم إذ لم يقل سبحانه أوتى كتابه ليمينه أو لشماله بل أتى بالباء المفيد للوساطة ويشهد به قوله سبحانه : ﴿ فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ﴾ فقد وضع مكان الشمال قوله وراء ظهره وقوله سبحانه : يوم ندعوا كلّ إناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ فقد قال سبحانه أنّه يدعوهم بإمامهم ولم يقل إلى إمامهم وقد قال كل أمة تدعى إلى كتابها ولم يقل بكتابها فالدعوة بالإمام غير الدعوة إلى الكتاب .

ثم فصّله سبحانه بأن طائفة منهم بعد ذلك يؤتى كتابه بيمينه أي بواسطة اليمين فيمينه إمامه الحق الذي يدعى به ثم بدّل الإيتاء بالشمال بقوله : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ﴾ .

فظهر به أنّ الإيتاء باليمين نور واهتداء في الآخرة كما قال سبحانه : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربّهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ .

ومن هنا يظهر أن النور هو الإمام والمراد هو اللحوق به والكلام فيه كثير وبالجملة فيشبه أن يكون المراد باليمين والشمال البركة والشآمة والسعادة والشقاوة دون اليدين اليمنى واليسرى وقد عبّر سبحانه في سورة الواقعة عن الطائفتين تارة بقوله : ﴿ وأصحاب

اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ وتارة بقوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ وتارة بقوله ﴿ وأمّا إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم ﴾ فوضع في مكان أصحاب الشمال المكذبين الضالّين فهم أصحاب شقاء وأصحاب تكذيب وضلال وكأنّه إشارة إلى قوله ﴿ ومن خفّت موازينه ﴾ إلى أن قال : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ﴾ .

وقد عرفت هناك كون الآية في أصحاب الشقاء من ضلال المليين ونقضة عهد الأئمة الحق وأمّا الكفار الجاحدون فلا يقيم سبحانه لهم وزناً فلا كتاب لهم ولا حساب .

وبالجملة فأصحاب الشمال هم الأشقياء أصحاب الضلال ولذلك فهم يقولون فيما حكى عنهم سبحانه : ﴿ ما أغنى عنّي ماليه هلك عنّي سلطانية ﴾ فهذه الأمور هي الصادّة إيّاهم عن إتباع الحق بعد الإذعان به فكل من أصحاب السعادة والشقاوة مدعو بإمامه ملحق به يؤتى بكتابه به وهو اللحوق الذي يشتمل عليه أخبار الطينة والسعادة والشقاوة الذاتيتين وسيأتي ذكر منه إن شاء الله ولذلك كان أصحاب الشقاء يؤتون كتابهم بشمالهم ووراء ظهرهم إذ أئمّتهم قدّامهم ووجوههم منكوسة مطموسة قال سبحانه في فرعون : ﴿ يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يا أيّها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها ﴾ وقال سبحانه : ﴿ قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً ﴾ وقد مرّ أن النور هو الإمام الحق . هذا :

والإعتبار أيضاً يساعد هذا المعنى فإن الإنسان بوجوده الدنيوي أعني بدنه الحي بقواه واحساساته على ما نزل من عند الحكيم الخبير ودبّره العليم القدير متوجه القوى والإحساسات الى جهتي القدام واليمين وامّا جهتا الشمال والوراء فعندهما نفاد القوى وهلاك الإحساس والإنسان إذا شقى وأخلد إلى الأرض واتبع هواه أقبل إلى الأرض ووجه وجهه لها وإذا قام لربّه وأحضر لحسابه واتّبع الداعي لا عوج له سار وجهه إلى خلفه فحالهم حال ضرير منكوس الوجه مدهوش ساعٍ إلى غاية لا يدري ما يفعل ولا ماذا يفعل به .

واعلم إنّ الإمام الحق على أنّه مهيمن على أناس دعوا به كذلك هو مهيمن على إمام الباطل وحزبه قال سبحانه : ﴿ إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمّام مبين ﴾ فوصف الكتاب المحصي لكل شيء من السعادة والشقاوة بالإمامة وقال أيضاً : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ فالإمام الذي هو الكتاب حاكم في الفريقين السعيد والشقي مهيمن على الطائفتين جميعاً .

وهذا غير منافٍ لما مرّ أن الدعوة إلى الكتاب غير الدعوة بالإمام فإنّه سبحانه ما وصف صحف الأعمال بالإمامة بل وصفها بالإلزام والتابعة وقال : ﴿ ألزمناه طائره ﴾ وإنّما وصف بالإمامة اللوح المحفوظ الذي منه يستنسخ الأعمال وصحف الأعمال وهو الأصل المتبوع والإمام المقتدى الذي عليه مدار أمور العالم برمّتها فافهم ذلك .

واعلم أنّه سبحانه فسّر الإمامة في آيات كثيرة بالولاية غير أنّه وصف نفسه بالولاية دون الإمامة لإقتضائه سنخية ما بين الإمام والمأموم وهو واضح .

وبالجملة فإمام الحق ولي المؤمنين وأئمة الباطل أولياء الكافرين والوجه في جميع ذلك واضح وبه يتحلّ عقد الأخبار التي تدل على حكومة أرباب الولاية في أمر الناس يوم القيامة وسيأتي عدّة منها .

واعلم أيضاً أن الكتاب يؤتى للطائفتين من الناس وهنا جماعة غيرهم وهم السابقون المقرّبون قال سبحانه : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقرّبون ﴾ فهؤلاء هم المخلصون المستثنون من حكم الصور والأحضار والميزان وقد استثنوا من حكم إعطاء الكتاب أيضاً وسيجيء مزايا أُخر من أحوالهم في يوم القيامة فحكم الكتاب واقع على غيرهم من أصحاب الأعمال إلّا المستثنون من المعاندين الجاحدين كما مرّ ، قال سبحانه : ﴿ وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ فهي فيمن له عمل فأمّا من ارتفع عن سطح العمل ممن ليس له إلّا الله تعالى كالمخلصين ومن حبط عمله من المكذبين المنكرين للقاء الله فلا كتاب له أصلاً ثم قال سبحانه : ﴿ ونخرج له يوم القيمة كتاباً يلقيه منشورا ﴾ ويشبه أن يكون الكتاب غير الطائر الملزم في عنقه إذ لم يقل سبحانه ونخرجه وكان حقّ الكلام ذلك لو كان كذلك فالآية في مساق قوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ ثم قال سبحانه : إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ويظهر منه أن حال الكتاب وقراءته يومئذ غير حال الكتاب وقراءته عندنا في الدنيا فافهم وإنما هو الذكر قال سبحانه : ﴿ يومئذ ينبّأ الإنسان بما قدّم وأخّر ﴾ وهذا في تفاصيل الأعمال وقال : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ وهذا في الإجمال وقد مرّت الرواية في كيفية قراءة الكتاب والله العالم .

فصل ٩

في الشهداء يوم القيامة

قال سبحانه : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ وقد عدّ سبحانه أصنافاً من الشهداء على الأعمال يوم القيامة والشهادة على الشيء هي تلقيه بالحضورة والرؤية ويسمّى تحمّلها وحكايتها كلاهما شهادة ومن المعلوم أن الشهادة على الأعمال ليست على مجرّد صورها الظاهرة بل على ما هي عليها من الطاعة والعصيان والسعادة والشقاوة إذ هو قضية القضاء وسيّما من أحكم الحاكمين .

وهذه الأوصاف غير ممكنة الإحراز إلّا بارتباط الشاهد على محتد هذه الأعمال من الضمائر والسرائر وخصوصيات إنتشاءات الأعمال من الإرادات والقصود فالشهادة يومئذ على انّه تشريف للشاهد بالإذن في كلامه كما قال سبحانه : ﴿ لا تكلم نفس إلّا بإذنه ﴾ إنّما يختص بها من آتاه الله سبحانه هذه الكرامة في الدنيا وهي الوقوف على حقائق الأعمال ومحتدها من الضمائر والسرائر قال سبحانه : ﴿ لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ والصواب خلاف الخطأ وقال : ﴿ إلّا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فالشهادة يومئذ إنّما تتحقق ممن حفظ أعمال العاملين على حقيقتها من غير خطأ وعوج .

وأنت إذا تأملت هذه البنية الإنسانية على قواها وحواسها وجدت إنّ هذه الشهادة والتلقّي مستحيلة في حقّها بالنسبة إلى أعمال الحاضرين فضلاً عن الغائبين ومع الحضور من الشاهد فضلاً عن الغيبة ومع القرب فضلاً عن البعد وهو واضح فليس إلّا أن ذلك

بأمر آخر وقوة أخرى وراء ما عند الإنسان المتعارف من القوة والإحساس يمس باطن الإنسان ذي الأعمال كمسّه بظاهره والغائب كالحاضر وبالبعيد كالقريب فهو نور غير جسماني لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الجسم في تأثيراته وأعماله من خصوصيات الزمان والمكان والحال فهو نور يبصر به السرائر ويميز به الطيب من الخبيث قال سبحانه : ﴿ كلّا إن كتاب الأبرار لفي عليّين وما أدريك ما عليّون كتاب مرقوم يشهده المقرّبون ﴾ وقال سبحانه ﴿ كلّا إن كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدريك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

وقد مرّ في الفصل السابق أن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال يؤتون كتابهم بإمامهم الحق وقال سبحانه أيضاً : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ والخطاب عام غير مختص بالمنافقين وهو يقتضي خصوصية المراد بقوله : ﴿ المؤمنون ﴾ وفيه تلويح بأن رواية الرسول والمؤمنين لأعمالهم ستندرج في ضمن ما سينبؤهم سبحانه بما كانوا يعملون فافهم .

وروى القمّي في تفسيره عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : إن أعمال العباد تعرض على رسول الله كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروا وليستحيي أحدكم أن يعرض على نبيّه العمل القبيح .

وروى العياشي في تفسيره عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) أنّه سئل عن قوله : ﴿ وقل اعملوا . . . ﴾ الآية ، فقال : والمؤمنون هم الأئمة .

والأخبار الواردة في الكافي والأمالي والمناقب والبصائر والتفسيرين للقمّي والعياشي في هذا المعنى فوق حدّ الإستفاضة فراجع .

وبالجملة فتحمل هذه الشهادة هو بشهادة نفس الأعمال وكذلك أدائها يوم القيامة وكذلك المجازاة بها يومئذ قال تعالى : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ هذا جملة الكلام في الشهادة .

وأما أصناف الشهداء فمن الشهداء الأولياء المقربون من البشر كالأنبياء والصالحين من الأولياء قال سبحانه : وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ وتمييز النبيين من الشهداء كأنّه نوع تشريف لهم كما قيل وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث من كل أمّه شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴾ والأمة الجماعة من الناس وإذا اضيفت إلى شيء كنبيّ أو زمان أو مكان تميزت به فالآية عامّة لجميع الأولياء ولو اجتمع عدّة منهم في أمّة نبي وقال سبحانه : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

والبيان السابق في معنى الشهيد يوضح أن هذه العطية والكرامة منه سبحانه ليست عامّة لجميع أمّة محمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) بل هي خاصة لبعض الأمة والخطاب الواقع لجميع الأمة بظاهره باعتبار وجودهم فيها وهو ذايع دائر في الخطابات كقوله سبحانه : ﴿ محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء . . . ﴾ إلى آخر الآية ، فإنّه شامل بظاهره لجميع من معه وفيهم المنافقون والفاسقون باجماع الأمة وأمثاله كثيرة .

وبالجملة فالشهداء من هذه الأمة شهداء على الناس والرسول شهيد عليهم فالأمة الشهيدة وسط بين الرسول (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) والناس كما ذكره سبحانه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ هو اجتبيكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو

سميكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ وهذه الآية في اختصاص الشهداء أصرح من سابقتها وفي قوله سبحانه : ﴿ هو سميكم المسلمين من قبل ﴾ إشارة إلى دعاء إبراهيم (عَلَيْهِ السّلام) مع ولده إسماعيل (عَلَيْهِ السّلام) عند بناء الكعبة : ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريّتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

ودعائه (عَلَيْهِ السّلام) حيث إنّه لولد إبراهيم وإسماعيل معاً ولمن في مكة فهو لقريش وحيث إنّه (عَلَيْهِ السّلام) دعا أولاً بإسلامهم لله وإراءة الله إيّاهم مناسكهم وتوبته لهم ثم دعا ببعث رسول يطهرهم ويزكيهم فهم جمع من قريش جمعوا بين[1] طهارة الذات والهداية والإهتداء إلى عهود الله وبين الإيمان برسوله والتزكّي والتطهّر بتزكيته وتطهيره فهم أشخاص مخصوصون بكرامة الله سبحانه من بين الأمة وقوله : ﴿ ليكون الرسول ﴾ بيان لغاية قوله : ﴿ هو اجتبيكم ﴾ .

وما ذكرناه في معنى الآية هو الذي تفسّره به الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت .

ففي الكافي وتفسير العياشي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) نحن الأمة الوسط ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه وسمائه .

وعن شواهد التنزيل عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) : إيّانا

(١) أهل السعادة الذاتية والسعادة المكتسبة وبعبارة اخرى طهارة الذات والتبعية منه

عنى بقوله : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ فرسول الله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجّته في أرضه ونحن الذين قال الله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ .

وفي المناقب عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمة والرسل فأمّا الأمة فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على خرمة بقل .

وفي تفسير العياشي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : ظننت أن الله تعالى عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية ، كلّا لم يعنِ الله مثل هذا من خلقه يعني الأئمة التي وجبت لهم دعوة إبراهيم وهم الأئمة الوسطى وهم خير أمّة أخرجت للناس والأخبار في هذا المعنى كثيرة مستفيضة .

ومن هنا يظهر معنى قوله سبحانه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فحيث إنّه صلّى الله عليه وآله ليس شاهداً على الناس من أمّته بلا واسطة بل على الشهداء منهم فالمشار إليهم بقوله : ﴿ على هؤلاء ﴾ هم الشهداء من كل أمة المذكور في الآية .

واصرح منها قوله سبحانه : ﴿ ويوم نبعث في كل أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ وذلك لمكان قوله تعالى :﴿ من أنفسهم ﴾ وقوله ﴿ نبعث ﴾ و﴿ جئنا ﴾ فافهم ، فرسول الله كما انّه شهيد على الشهداء من أمتّه شهيد على جميع الشهداء .

وروى القمّي في قوله تعالى : ﴿ شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني على الأئمة فرسول الله شهيد على الأئمة وهم شهداء على الناس .

وفي الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في حديث يذكر فيه أحوال أهل الموقف قال (عَلَيْهِ السّلام) : فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى أممهم فاخبروا انّهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم ويسأل الأمم فيجحدون كما قال الله : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ فيقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير فيستشهد الرسل رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) فيشهد بصدق الرسل ويكذب من جحدها من الأمم فيقول لكل أمة منهم بلى قد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير أي مقتدر بشهادة جوارحكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم ولذلك قال الله لنبيه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ الحديث .

وروى العياشي في تفسيره عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في صفة يوم القيامة قال (عَلَيْهِ السّلام) : يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق فلا يتكلم أحد إلاّ من أذن له الرحمن وقال صوابا فيقام الرسل فيسأل فذلك قوله لمحمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ وهو الشهيد على الشهداء والشهداء هم الرسل وقد مرّ كلام في معنى الجحد والحلف والكذب الواقع في هذه الأحاديث .

ومن الشهداء الملائكة الكتبة قال سبحانه : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ وقال : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان

عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد ﴾ إلى أن قال : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الشهداء الجوارح والأعضاء قال سبحانه : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربّكم أرديكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ .

وسياق الآيات واردة في أهل النار فشهادة الجوارح مخصوصة بهم وهي من الشواهد على شمول خطابات الفروع لغير المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لجلودهم ﴾ وجه تخصيصهم السؤال بالجلود دون الجميع أن السمع والبصر أرفع عن المادة وأقرب إلى الحياة والفهم بخلاف الجلود وهي الفروج وما يتلوها في الحكم فهي أوغل في المادة وشهادتها أعجب واقطع .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ جوابها لهم وقد عدلوا عن الشهادة إلى النطق ثم إلى الإنطاق إشعاراً بأن الأمر إلى الله لا إليهم فلا وجه لعتابهم لهم بوضعهم موضع المستقل التام الإختيار في أمرهم بعد ما كان نطق كل شيء منه

سبحانه وليس لشيء من الأمر شيء ولذا أردف ذلك بقوله : ﴿ وهو خلقكم أوّل مرة وإليه ترجعون ﴾ فالبدو والعود كلاهما له سبحانه وهو القائم على كل نفس فليس سبحانه غائباً عن شيء بل هو الرقيب وإنما يرقب الشيء بالشيء ويحتجب بالشيء عن الشيء ولذا أردفه سبحانه بقوله : ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ كأنّه يقول ما كنتم تحتجبون عن شهادة الجوارح لا لأنكم لا تحذرون منها ومن نتيجة شهادتها ولكن ظننتم استقلال الأشياء وغيبة الحق سبحانه عنها وان كلّ واحد منها منفصل عن الحق ليس مرصاداً له سبحانه فظننتم أنّه لا يعلم كثيراً مما تعلمون وهذا هو الغفلة عن الحق سبحانه وأنّه على كلّ شيء شهيد وأن كل ما يحضر عند شيء أو يعلمه شيء فهو حاضر عنده بعينه معلوم له بعينه ﴿ وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربّكم أرديكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ فافهم .

واعلم أن هذا الأصل وهو أن علم الوسائط وقدرتها وسائر كمالاتها بعينها له سبحانه كثير الفروع في القرآن كقوله سبحانه : ﴿ وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾ وقوله : ﴿ أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجويهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ وقوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ إلى غير ذلك من الآيات فترى أنّه سبحانه خلط علمه بعلم الألواح والكتبة .

وبما مرّ من المعنى يظهر معنى قوله ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون وقد تكرر هذا اللفظ في القرآن كثيراً فافهم .

ثم اعلم أنّه يتحصل من الآيات المزبورة أن الحياة سارية في جميع الأشياء إذا يجاد النطق والكلام عند شيء ليس شهادة منه إلاّ إذا كان الكلام له وهو الحياة وكذلك إفاضة الحياة يوم القيامة فحسب لشيء وإنبائه عن واقعة قبل إتصافه بالحياة كوقائع الدنيا ليس شهادة منه إذ لا حضور ولا تحمل .

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه : ﴿ ومن أضلّ ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءاً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله سبحانه في وصف آلهتهم : ﴿ أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون ﴾ فافهم وفيما مرّ من المعاني أخبار كثيرة .

ففي الكافي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب فأمّا المؤمن فيؤتى كتابه بيمينه . الحديث .

أقول يشير (عَلَيْهِ السّلام) : إلى ما في ذيل آيات الشهادة المذكورة : ﴿ وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقّ عليهم القول في أمم قد خلّت من قبلهم من الجن والإنس أنّهم كانوا خاسرين ﴾ .

وفي تفسير القمي والفقيه عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾ الآية قال : يعني بالجلود الفروج والأفخاذ .

وفي تفسير القمّي قال (عَلَيْهِ السّلام) : إذا جمع الله الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه فينظرون فيه فينكرون إنّهم عملوا من ذلك شيئاً فيشهد عليهم الملائكة فيقولون يا رب ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون إنّهم لم يعملوا من ذلك شيئاً وهو قوله :

﴿ ثم يبعثهم الله ﴾ فيحلفون له كما يحلفون لكم فإذا فعلوا ذلك ختم على ألسنتهم وينطق جوارحهم بما كانوا يكسبون .

ومن الشهداء الزمان والمكان من الأيام الشريفة والشهور والأعياد والجمع والأرض والبقاع والمساجد وغيرها قال سبحانه : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ والبيان المذكور آنفاً يوضح هاهنا أن الأيام من الشهود ويظهر به أن كلمة من في قوله : ﴿ منكم ﴾ ابتدائية لا تبعيضية والشهداء هي الأيام وقال سبحانه : ﴿ ثم إليّ مرجعكم فأنبأكم بما كنتم تعملون يا بنيّ أنّها إن تكُ مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله أن الله لطيف خبير ﴾ والبيان السابق عائد هاهنا أيضاً وقال سبحانه : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربّك أوحى لها ﴾ .

وفي الكافي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال إنّ النهار إذا جاء قال يابن آدم اعمل في يومك هذا خيراً أشهد لك به عند ربّك يوم القيامة فإنّي لم آتكَ فيما مضى ولا آتيك فيما بقي وإذا جاء الليل قال مثل ذلك وروى هذا المعنى ابن طاووس في كتاب محاسبة النفس عن الباقر والصادق (عَلَيْهِ السّلام) .

وروى الصدوق في العلل عن عبدالله الزراد قال سأل كهمس أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) فقال : يصلّي الرجل نوافله في موضع أو يفرقها ؟ فقال : لا بل هاهنا وهاهنا فإنّها تشهد له يوم القيامة .

ومن الشهداء القرآن والأعمال والعبادات وسيأتي ملخص الكلام فيها في فصل الشفاعة إن شاء الله .

واعلم أن البرهان أيضاً يفيد ما مرّ من شهادة الشهود فإن

الأعمال لا تتحقق بينها وبين شيء من الموجودات نسبة إلّا وهي متحققة بين الذات وبين ذلك الموجود فإن الأعمال من تنزلاتها ووجوداتها قائمة الذات بتلك الذوات فبقاء الذات يبقى الصادرات عنها بحسب ما يتحقق بها من الوجود وببقائها تبقى النسب التي إلى الأشياء وببقاء النسب تبقى الأشياء ضرورة كون وجوداتها رابطة لا تتحقق إلّا بطرفين وبحياتها تحيي الجميع وبحضورها عند الحق سبحانه وبين يديه تعالى بتمام ذاتها وشهادتها وبيانها ما عندها له سبحانه تفعل الجميع ذلك والله العالم فافهم ذلك .

فصل ١٠
في الحساب

من المعلوم ان الحساب وهو كشف المجهول العددي باستعمال الطرق الموصلة إليه إنّما يتأتى بلحاظ ظرف العلم والجهل وأمّا إذا فرض نفس الواقع مع الغض عن العلم والجهل فلا موضوع لهذا المعنى الذي نسميه حساباً وإنّما الذي في الواقع والخارج هو ترتب النتيجة على المقدمات والمعلول على العلّة فالوضع الذي هو (٣×٨ ـ ٣×٦)يتدرج فيه باستعمال الأسباب والأعمال الحسابية للحصول على النتيجة وهي (٣٠) بالنسبة إلينا لجهلنا أولاً بذلك وتحصيلنا العلم ثانياً بالحساب إن النتيجة هي الثلاثون وأمّا ما في الخارج فإنما هو عدد مع عدد لا إنفكاك بينهما ولا فصل أو ترتب النتيجة على تراكم أمور واقعية موجودة في الخارج ليس بينهما فرجة زمانية ولا فاصلة مكانية .

وعلمه سبحانه بالأشياء الواقعية حيث كان عين تلك الأشياء الواقعية على ما تعطيه الأصول البرهانية دون الصور المنتزعة عن

الخارج مثل علومنا الحصولية كان القول في علمه سبحانه عين القول في الأمور الواقعية فحسابه سبحانه عين حساب الواقع وهو ترتب نتائج الأمور عليها فيما كان هناك أثر مترتب وقد أخبر سبحانه إن لكل شيء أثراً في جانبي السعادة والشقاوة يترتب عليه في الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنّه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾ .

وقال : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى إن كذبوا بآيات الله ﴾ .

وقال : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربّها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا أعدّ الله لهم عذاباً شديداً ﴾ .

وقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وقوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً وهي على كثرتها تفيد أن نتائج الأمور تتبعها لا محالة في الدنيا والآخرة كما أن البرهان أيضاً يفيد ذلك .

ثم إن الأمور ونتائجها لا توجد بنفسها ولا بإيجادها بل بإفاضة منه سبحانه لوجودها فاستتباعها نتائجها استفاضتها منه سبحانه

لنتائجها المترتبة عليها كما ان ارتزاق المرزوقين استفاضتها منه سبحانه ما يديم به بقاءها من الوجود فالحساب كالرزق بوجه فلا تزال سحابة الفيض تشرب من بحر الرحمة وتمطر مطر الفيض على بحر الإمكان فكل قطرة لاحقة تستمد بها سابقتها وهو الرزق وترفع بها حاجتها التي تستحقها وتقتضيها وهو الحساب فكما إن افاضة الرزق لها دائم مستمر ضروري كما قال سبحانه : ﴿ إنّه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ فكل الحساب بينها دائم مستمر ضروري فافهم .

وفي النهج سئل (عَلَيْهِ السّلام) كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم فقال (عَلَيْهِ السّلام) : « كما يرزقهم على كثرتهم.فقيل:فيكف يحاسبهم ولا يرونه.قال:كما يرزقهم ولا يرونه » وهو أنفس كلام في هذا الباب .

وبالجملة فالامور ومنها الأعمال لا تنفك عن حسابها عند تحققها في الخارج أدنى إنفكاك قال سبحانه : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ إذ مع اختصاص الحكم به سبحانه وعدم وجود حاكم غيره يضاد بحكمه حكمه ويدفع به أمره بنحو من الأنحاء بإبطال وتعويق وتضعيف وإنظار لا يتصور لحكمه سبحانه بطء وتعويق وتأخير ولا يمكن فيه مساءة ولا صعوبة ولا يسر ولا عسر ولا غيرها .

فهذه المعاني إذا أطلقت يراد بها حصول معانيها بالنسبة إلى إدراك المحاسبين بصيغة المفعول كقوله سبحانه : ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ وقوله : ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ وقوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وروى في المجمع عن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا

رسول الله ما أطول هذا اليوم ؟ فقال (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِه) : والذي نفس محمد بيده إنّه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا .

وفيه أيضاً عن أبي عبدالله (عَلَيْهِ السَّلام) قال : لو ولي الحساب غير الله لكثوا فيه خمسين ألف سنة من قبل أن يفرغوا والله سبحانه يفرغ من ذلك في ساعة .

أقول : وبهذين الخبرين يظهر معنى قوله تعالى : ﴿ كان ﴾ فيخفف ذلك على المؤمنين لأن وجوههم يومئذ ناظرة إلى ربّها ناظرة فيرون الأمر على حقيقته وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر ويطول على الكافرين والفاسقين لأنّهم يومئذ عن ربّهم لمحجوبون فالإختلاف من جانب الناس وغيرهم وأما بالنسبة إليه سبحانه فأمره واحد لا إختلاف فيه وبالجملة فأمر الحساب كما عرفت جار دائماً وأما إختصاص يوم القيامة بوقوع الحساب فيه فهو من قبيل اختصاصه في كلامه تعالى بخصال أخرى غير مختصة به ظاهراً كإختصاص الملك يومئذ لله وبروز الناس يومئذ لله وكون الأمر يومئذ لله وغير ذلك وقد عرفت فيما مرّ معنى ذلك فوقوع الحساب فيه هو ظهور النتيجة حقيقة بتمام المعنى فهو ظهور نتيجة الخلقة ووصول الممكن إلى غاية سيره في سبيله من الله إليه قال سبحانه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبّة من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال : ﴿ أفحسبتم إنّما خلقناكم عبثاً وإنّكم إلينا لا ترجعون ﴾ وقال : ﴿ وإن إلى ربّك المنتهى ﴾ .

ومن هنا يظهر إن الإنسان كلّما قرب من طريق السعادة ملازماً للصراط المستقيم كان الحساب عليه يسيراً فإنّه أقرب إلى النتيجة المقصودة من الخلقة قال سبحانه : ﴿ فأمّا من أوتي كتابه بيمينه

فسوف يحاسب حساباً يسيرا ﴾ وكلّما بعد عن الحق ونكب عن مستقيم الصراط كان الحساب عليه عسيرا فإنّه أبعد عمّا أودع الله عزّ وجلّ في فطرته من نتيجة الخلقة وغاية الوجود قال سبحانه : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ وقال : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ وقال : ﴿ وأمّا من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابيه ولم أدرِ ما حسابيه ﴾ وينتهي الأمر من الطرفين إلى من لا حساب له ممن لا يليه إلّا ربّه فلا عمل له فلا كتاب فلا حساب وهم المخلصون المقرّبون قال سبحانه : ﴿ إنّهم لمحضرون إلّا عباد الله المخلصين ﴾ وممن لا مولى لهم فحبطت أعمالهم فلا كتاب لهم فلا وزن ولا حساب .

روي في المعاني عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : كلّ محاسب معذب . فقال قائل : يا رسول الله فأين قول الله : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيرا ﴾ ؟ قال (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : ذلك العرض . يعني التصفح ، أقول : وهذا حديث أطبق الفريقان على رواية معناه واتفقوا على صحّته .

وروى العياشي وغيره بطرق متعددة عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في قوله سبحانه : ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ إن معناه الإستقصاء والمداقة وإنّه يحسب لهم السيئات ولا يحسب لهم الحسنات .

ومن ما مرّ يتضح أمر السؤال وهو من توابع الحساب فإن السؤال وهو استيضاح ما عند المسؤول من حقيقة الأمر والأمر يومئذ يدور مدار تفريغ ما عند النفس بحسب الحقيقة من تبعاتها ولواحقها وأذنابها التي اكتسبتها من السعادة والشقاوة وتفريغ حسابها وتوفية

نتيجته لها قال سبحانه : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وهي مكامن النفوس وقال سبحانه : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ وما ورد أن الآية منسوخة بقوله تعالى:﴿ إلّا اللمم إن ربّك واسع المغفرة ﴾ فمعنى النسخ هو التفسير والبيان دون بيان غاية الحكم وانقضائها فإن ذلك مختص بالشرائع والأحكام غير جائز في الحقائق وقال سبحانه : ﴿ فوربّك لنسألنهم أجمعين عمّا كانوا يعملون ﴾ وقال : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ وقال : ﴿ وقفوهم إنّهم مسؤولون ﴾ .

واعلم أن هذه الآيات تعطي عموم السؤال والحساب لجميع الأعمال والنعم وهو المحصل من جماعة الأخبار .

ففي نوادر الراوندي بإسناده عن موسى بن جعفر (عَلَيْهِ السّلام) عن آبائه (عَلَيْهِم السّلام) قال : قال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : كل نعيم مسؤول عنه يوم القيامة إلّا ما كان في سبيل الله .

وفي أمالي المفيد مسنداً عن ابن عيينة قال : سمعت أبا عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) يقول : ما من عبد إلّا ولله عليه حجّة امّا في ذنب اقترفه وامّا في نعمة قصر عن شكرها .

وفي كتاب الحسين بن سعيد عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : الدواوين يوم القيامة ثلاثة ديوان فيه النعم وديوان فيه الحسنات وديوان فيه الذنوب ، فيقابل بين ديوان النعم وديوان الحسنات فتستغرق عامة الحسنات وتبقى الذنوب . والأخبار في هذه المعاني كثيرة .

وأجمعها معنى ما رواه الصدوق في التوحيد عن ابن أذينة عن

الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : قلت له : جعلت فداك ما تقول في القضاء والقدر ؟ قال : أقول إن الله إذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عمّا عهد إليهم ولم يسألوا عمّا قضى عليهم . الحديث .

نعم روى أصحابنا عن علي والباقر والصادق والرضا (عَلَيْهِم السّلام) في قوله سبحانه : ﴿ ولتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ انّ المراد بالنعيم هو الولاية لا ما يرتفع به الحوائج الإنسانية من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها .

فعن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) أنّه قال لأبي حنيفة : بلغني أنّك تفسر النعيم في هذه الآية بالطعام والطيب والماء البارد في اليوم الصائف ، قال : نعم . قال (عَلَيْهِ السّلام) : لو دعاك رجل وأطعمك طعاماً طيباً وسقال ماءاً بارداً ثم امتن عليك به إلى ما كنت تنسبه ؟ قال : إلى البخل . قال (عَلَيْهِ السّلام) : أفبخل الله تعالى ؟ قال : فما هو ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : حبّنا أهل البيت .

وفي الإحتجاج عن علي (عَلَيْهِ السّلام) في حديث : انّ النعيم الذي يسأل عنه رسول الله ومن حلّ محلّه من أصفياء الله فإن الله أنعم بهم على من اتبعهم من أوليائهم .

وفي المحاسن عن أبي خالد الكابلي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) في حديث بعد ذكر الآية قال (عَلَيْهِ السّلام) : إنّما تسألون عمّا أنتم عليه من الحق . الحديث .

والإعتبار العقلي يساعد هذا المعنى فإن الولاية وهي معرفة الله والتحقق بها حيث كانت غاية الخلقة لا غاية غيرها فكل إفاضة إنّما تكون نعمة وملائمة للكمال والراحة إذا وقعت في طريق الغاية أو لوحظت من حيث صحّة وقوعها في طريقها لكنها بعينها إذا وقعت في طريق يضاد الغاية صارت نقمة وإذا لم تقع في طريق أصلاً كانت

لغواً باطلاً فكل شيء نعمة من حيث إيصاله الإنسان إلى ساحة الولاية وأمّا مع الغض عن ذلك فلا نعمة فصّح إن النعمة المطلقة هي التوحيد والنبوة والولاية كما في بعض الروايات وصحّ إن النعمة بالنسبة إلينا هي الولاية كما في بعض آخر فافهم والله الولي الحق .

فصل ١١

في الجزاء

قال سبحانه : ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار فيها آيات كثيرة جدّاً وقد جعلها سبحانه أحد الدليلين على وقوع الحشر فقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجار ﴾ فإن الحكيم من حيث هو حكيم كما يستحيل أن يفعل فعلاً لا غاية له ولا نتيجة متولدة من فعله كما هو مفاد الدليل الأول كذلك يستحيل عليه أن يهمل أمر جماعة فيهم الصالح والطالح والظالم والمظلوم فلا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

ثم انّك ترى أنّه سبحانه أقرّ النسبة بين العمل والجزاء فالإحسان يجزى بالإحسان والإساءة تجازى بالإساءة ثم جاوز وعده ووعيده مطلق الإحسان والإساءة فأيّد خصوصيات في الإحسانات والإساءات بحسب خصوصيات في الأعمال فأيّد بذلك أن بين الأعمال وجزائها نسباً خاصة وارتباطات مخصوصة ثم جاز كلامه سبحانه ذلك بأن أخبر بالعينية والإتحاد بين العمل وجزائه قال سبحانه : ﴿ ولكلٍّ درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا

يظلمون ﴾ فصدر الاية يحكي عن النسبة المذكورة ووسطها عن الإتحاد بين العمل والجزاء وذيلها عن الجزاء العادل وهو سبب النسبة والعينية المذكورتين وما ذكرناه من معنى الحساب وحقيقته في الفصل السابق عائد هاهنا أيضاً إليه تعالى وقال سبحانه: ﴿ واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقال : ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ وقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أن ما يعمله الإنسان من خير أو شر سيرد إليه بعينه .

ثم شرح سبحانه معنى هذه العينية فقال : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ فبيّن أنّ معصيتهم على كونها في هذه النشأة في صورة كتمان ما أنزل الله واشتراء الثمن القليل بذلك فهي بعينها متصورة في الباطن بصورة أكل النار كما ورد مثله في أكل ما اليتيم ظلماً ثم أردف سبحانه ذلك بقوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ فبيّن أنّ هؤلاء بدّلوا الهدى والمغفرة بهذا الضلال والعذاب والهدى والمغفرة مرتبان على الإستقامة والتقوى كما انّ أكل النار والضلالة والعذاب تترتب على الكتمان والإشتراء المذكورين فالتعرض منه سبحانه بالتبديل فيما يترتب على المعاصي دون ظاهر نفس المعاصي وتبديله سبحانه أكل النار وأخواته بمعنى عام وهو الضلال والعذاب بيان منه تعالى لكون تبدل صورة الأفعال مطرداً في جانبي الطاعات والمعاصي جميعاً فافهم وتدبّر .

ثم بيّن سبحانه ذلك في المؤمنين خاصة فقال : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ﴾ وهو روح الإيمان وقال : ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي النور المنزل على رسول الله ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ وهو روح القدس وقال : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾ وقال : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وبالجملة فصور علومهم وأخلاقهم وأعمالهم أنوار إلهية طاهرة موهوبة تطهرهم من الأرجاس وتنجّيهم من الظلمات فيشاهدون به عظمة الله وكبريائه وملكوت السموات والأرض طوبى لهم وحسن مآب .

ثم بيّن سبحانه ذلك في الكافرين والفاسقين فقال عزّ من قائل : ﴿ والذين كفروا أوليائهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ وقال : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صمّ وبكم في الظلمات من يشاء الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ وقال : ﴿ إنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّا ﴾ وقال : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ وقال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال : ﴿ كذلك زيّنا لكل أمّة عملهم ﴾ إلى أن قال : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ وقال : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يومنون ﴾ وقال ﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾

وقال : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفيه حسابه والله سريع الحساب ﴾ .

فأخبر سبحانه أن الشرك بالله والمعاصي على اختلاف تصوراتها توجب خروجهم من النور إلى عالم الظلمات فيضلّهم الله عزّ وجلّ في الظلمات ويصمّهم ويبكمهم ويعميهم ويرسل الشياطين إليهم وهم قرنائهم إلى يوم القيامة فيقطب أبصارهم وأفئدتهم فلا يقصدون إلّا السراب الباطل ولا يقدرون أن يروموا الحق ويتناولوه كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه بل الأغلال في أعناقهم والسدود من بين أيديهم ومن خلفهم وهم المغشيّون وليس كل ذلك إلّا صور الأعمال ونتيجة الحساب فيما يعتبر فيه ثواب وعقاب . هذا :

وكثير من الأخبار يشهد بذلك فعن رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون . الخبر . وهو من جوامع الكلم وهو مع قوله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : الناس معادن كمعادن الذهب والفضة . الخبر . يعطيان علم مبدأ الإنسان ومعاده بالإستيفاء .

وفي الكافي عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : إذا وضع الميت في قبره مثل له شخص فقال : يا هذا كنّا ثلاثة كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك وكنت عملك فبقيت معك أما إنّي كنت أهون الثلاثة عليك .

وعن البهائي رحمه الله قال : روى أصحابنا عن قيس بن عاصم قال : وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : فدخلت عليه وعنده الصلصال بن الدهمس فقلت يا

رسول الله عظنا موعظة ننتفع بها فإنّا قوم نعير في البرية . فقال رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : يا قيس إن مع العزّ ذلاً وإنّ مع الحياة موتاً وإنّ مع الدنيا آخرة وإن لكلّ شيء حسيباً وإن لكلّ أجل كتاباً وإنّه لابد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وأنت ميت فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ثم لا يحشر إلاّ معك ولا تحشر إلاّ معه ولا تسأل إلاّ عنه فلا تجعله إلاّ صالحاً فإنّه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه وهو فعلك . الخبر .

والأخبار في تمثل الصوم والصلاة والزكاة والولاية والصبر والرفق والقرآن والتسبيح والتهليل وسائر العبادات والمعاصي بصور تعطيها معانيها أكثر من أن تحصى والبرهان المذكور سابقاً يعطي ذلك .

وأيضاً الثواب والعقاب إنّما هما على الطاعة والمعصية أي موافقة الأمر ومخالفته وهو كما ذكرناه في رسالة الإنسان في الدنيا أمر اعتباري وهمي والثواب والعقاب الأجلان من الأمور الحقيقية الواقعية والنسبة الرابطة بين الأمر الإعتباري والحقيقي ممتنعة إلاّ بكون الأمر الإعتباري مكتنفاً بأمر حقيقي وحيث إن الإنسان بثبوته يثبت الطاعة والمعصية ولو فرضنا رفع ما عداه وبإرتفاعه يرتفعان ولو فرضنا وضع ما عداه فهذا الأمر الحقيقي مع الإنسان وهو مجموع النفس والبدن والبدن يتبدل بالتدريج قطعاً مع بقاء صفة الطاعة والمعصية والسعادة والشقاوة فالذي يدور مداره الأمر هو الروح الذي هو الإنسان فمع الإنسان معنى هو المصحح للنسبة المذكورة وهو المعاني المخصوصة من خصوصيات الطاعات والمعاصي .

فصل ١٢
في الشفاعة

قال سبحانه : ﴿ واتّقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون ﴾ وقال : ﴿ واتّقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ وقال : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة ﴾ تنفي الآيات قبول شفاعة من نفس في نفس غير أن هناك آيات أُخر تخصص هذا العموم وتفسره كما تخصص عموم عدم النصر وتفسّره قال سبحانه : ﴿ يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون إلّا من رحم الله إنّه هو العزيز الرحيم ﴾ وقال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له ﴾ فبيّن سبحانه أن الشفاعة يومئذ لا تقع ولا تنفع إلّا بإذن للشافع في شفاعته وللمشفوع في الشفاعة له وقد فسّر الإذن للشافع بقوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلّا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ فإذنه سبحانه رضاه بقوله أي كون قوله وهو شفاعته مرضيا وقال سبحانه : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ فالقول المرضي هو القول الصواب وقد أسلفنا في فصل الشهادة أن مرجع ذلك إلى إنتهاء أعمال العاملين ولحوقها بهذا الذي إذن له في القول الصواب وحضورها له ووساطته في إفاضة الفيوضات الإلهية لهم ويرجع ذلك إلى تمكين الحق سبحانه للشافع من شهادة حقائق الأعمال والعلم بها

كما قال سبحانه : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلّا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[1] .

وبالجملة فإذنه سبحانه في قول هو الرضا عنه ومن المعلوم أن الرضا لا يتعلق إلّا بكمال الشيء من حيث أنّه كمال فالقول المرضي عنه هو كمال القول وهو كونه صواباً فالمأذونون مرضيّون في قولهم صائبون في علمهم مرضيّون في ذاتهم إذ القول من آثار الذات ولا يستكمل أثر من آثار الذات إلّا بعد استكمال نفسه التي هي المبدأ وهو ظاهر دون العكس إذ الذات يمكن أن يقع مرضيا لطهارة محتدّة وخلوص عقائده ولا يقع مرضيا في أفعاله وآثاره لورود مانع حاجب .

والحاصل إن الشافعين هم الذين رضى الله عنهم ورضي قولهم أي شهد كمالهم وكمال قولهم لا يشوبه نقص ولا خطأ أي إن علمهم علمه سبحانه لم يختلط بشبهات الأوهام وخطأ الأهواء فإن العلم فيما يحيط به ويصدق هو له سبحانه قال تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء ﴾ ولذلك فإن النبيين وهم السابقون من المرضيين ينفون العلم عن أنفسهم إذا خاطبهم الله سبحانه : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنّك أنت علّام الغيوب ﴾ مع إن العلوم التي معهم أكثر وأصدق من علوم غيرهم بلاشك فهؤلاء باقون على طهارة الذات الأصلية موفون بعهدهم الذي واثقوه مع ربّهم قال سبحانه : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلّا من إتّخذ عند الرحمن عهدا ﴾ وبالجملة فالشافعون هم المرضيون ذاتاً وأعمالا .

(١) فقد أخذ سبحانه في تملك الشافع للشفاعة قيدين وهما العلم وكون الشفاعة بالحق دون الباطل والظاهر انّ المراد بالشهادة هو التحمل دون الأداء وإن كان مرجعهما واحداً منه

ومثل ذلك في الذات مأخوذ في جانب المشفوعين قال سبحانه : ﴿ ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ﴾ فالإرتضاء مطلق وليس ناظراً إلى الأعمال فإن الشفاعة إنّما هي فيها فالإرتضاء إنّما تعلق بهم لا بأعمالهم أي إن نفوسهم طاهرة بالإيمان ويشهد به أيضاً قوله سبحانه : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ يشعر بأن الإيمان وهو مقابل الكفر مرضي له .

ثم إنّه سبحانه قال : ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ فبان بذلك إن نفع الشفاعة هو تبدل السيئات التي توجب الفسق بغيرها من الحسنات بسببها حتى يحصل الرضا رضى الرب وقد وعد سبحانه مغفرة الصغائر من المعاصي لمن اجتنب الكبائر منها فقال : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم ﴾ وقال سبحانه : ﴿ الذين يتجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم إن ربّك واسع المغفرة ﴾ فلم يبقَ لسخط الرب سبحانه وعدم رضاه إلاّ الكبائر فهي المستحق بها للشفاعة وقد صحّ عن النبيّ (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) فيما رواه الفريقان قوله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : إنّما شفاعتي[1] لأهل الكبائر من أمّتي . أو ما في معناه ، فالشفاعة إنّما توجب تبدل هذه الكبائر قال سبحانه : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات ﴾ فالشفاعة كما ترى تحلّ محل العمل الصالح وقال سبحانه : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالشفاعة كالعمل الصالح تفيد رفع الكلم الطيب وهو الإيمان إلى

(١) ويظهر ممّا قدّمناه من القول في باب الشهادة من عموم شفاعته (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) إنّ المراد بالشفاعة هو الشفاعة الخاصة في الحديث أو انّ قوله : « من امتي » متعلق بقوله : « شفاعتي » منه .

الله سبحانه فالشفاعة توجب لحوق المذنبين من المؤمنين فقط بالصالحين منهم فمثل الشفاعة كمثل البدن إذا اعتراه مرض أو قرحة مخطورة فإن المزاج إذا كان قويّاً والطبيعة البدنية سالمة أصلحت الصحة ودفعت المرض عنه وإلاّ احتيج إلى علاج بالضد ودواء يبطل فعل المرض وينصر الطبيعة في إعادتها صحة البدن إليه وتبديلها المواد الفاسدة المجتمعة فيه إلى الصالحة الملائمة له فالفاعل للصحة على كل حال هي الطبيعة غير أنّها مستقلة في فعلها حيناً ما ومحتاجة إلى ناصر ينصرها حيناً ما ولذلك فإنّه سبحانه يكرر القول بأنّ لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت واصرح من ذلك محلاً قوله سبحانه : ﴿ والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان الحقنا بهم ذرّيتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كلّ امرىء بما كسب رهين ﴾ فبيّن أولا انّه سيلحق ذريتهم بآبائهم في درجاتهم لا في أصل الرحمة لقوله : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ثم أردفه بقوله تعالى : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ فعدّ هذا اللحوق من الكسب مع إنّ أعمالهم دون ذلك فعلمنا به أنّ الايمان يوجب اتصالاً ما من الداني بالعالي وإذا حجبهما من الإستواء في الدرجات حاجب مانع من القصور أصلحه الايمان وارتفعا جميعاً إلى درجة واحدة وهذه حال الشفاعة توجب لحوق المشفوع بالشافع ثم اصلاح أعماله السيئة وجعلها حسنة بذلك .

وفي قوله : ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ إشارة إلى ذلك إذ لولا أصل محفوظ بين المبدل والمبدل منه كان التبديل إعداماً للمبدل وإيجاداً للمبدل منه .

واعلم أن المغفرة في ذلك كالشفاعة وسيأتي في فصلي الأعراف والمغفرة ما يتبين به هذا المعنى فضل تبين .

ومن هنا يتبين أن الشفاعة نوع تصرف في الأعمال بتبديلها ولذلك خصّه سبحانه بنفسه في قوله : ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ .

وهذا يؤيد ما ذكرناه من مقام الشافع أن الشفاعة لا تتم إلّا بكمال القرب منه سبحانه ويظهر ذلك أيضاً من قوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له حتّى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ والتفزيع عن القلب كشف الفزع وهو الدهشة والصعقة التي توجب غيبوبته عن نفسه وقوله سبحانه : ﴿ ثم استوى على العرش يدّبر الأمر ما من شفيع إلّا من بعد إذنه ﴾ إذا ضمّ إلى الآية الأولى والسياقان واحد أفادت أن تمليكه تعالى الشفاعة لغيره يتحقق بعد الإذن أي بعد الإذن يتحقق كون فعل الشافع في شفاعته وقوله فعل الله سبحانه وأصرح منه قوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ فالإذن هو الموجب لهذا الذي نسميه كمال القرب وهو الجاعل فعل الشافع فعله سبحانه وقد مرّ تفسير الإذن بالرضا وقد قال سبحانه أيضاً : ﴿ يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون إلّا من رحم الله ﴾ فبيّن به أن الذي نسميه شفاعة قائم بالرحمة فهو رحمته سبحانه كما يستشم أيضاً من قوله سبحانه ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ .

ثم إنّه سبحانه قال لرسوله : ﴿ وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين ﴾ وهو كلام مطلق يعطي أن له (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) من الله سبحانه مقاماً غير مقام الشفاعة أرفع منها وهو مقام الإذن الذي يحصل بعده وبسببه الشفاعة فهو (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) شفيع الشفعاء كما مرّ أنّه (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) شهيد الشهداء .

واعلم أن مساق هذه الآية في تفضيله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) على العالمين غير مساق قوله : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على العالمين ﴾ الآية ، فإن الظاهر منها أن تفضيلهم إنّما هو بجمع الآيات الباهرات لهم وهو كذلك وليس تفضيلاً في قرب التقوى من الله تعالى ويدل على ذلك النقمات والسخطات ونزول الرجز بهم وليس تفضيل أمّة على العالمين كتفضيل الواحد على العالمين وخاصة بالرحمة التي هي الواسطة التامة بين الله سبحانه وبين الموجودات وهي شيء في البين وليس بشيء في البين فهو سبحانه يخلق كل شيء بذاته ويرزق كل شيء بذاته ويبدأ ويدبر ويعيد كل شيء بذاته ويفعل ذلك كلّه برحمته .

وفي هذا المعنى خطابه تعالى له (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) بقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً ﴾ ولفظ (يبعث) كأنّه تضمن معنى الإقامة وهو كلام مطلق لم يعتره في كلامه سبحانه تقييد فهو مقام محمود بكل حمد من كل حامد فهو مقام فيه كل جمال وكمال لإقتضاء الحمد ذلك فكل جمال وكمال مترشح من هناك وقد قال سبحانه : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ فخصّ كل حمد من كل حامد بنفسه فالمقام المحمود مقام متوسط بينه سبحانه وبين الحمد فهو كالرحمة شيء وليس بشيء وهو المسماة بالولاية الكبرى وقال سبحانه : ﴿ ولسوف يعطيك ربّك فترضى ﴾ وهذا أيضاً كلام مطلق ومن المعلوم أن العطية المطلقة منه سبحانه هي الرحمة المطلقة فيرجع مضمون الآية إلى الآيتين وهما : ﴿ وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين ﴾ و ﴿ عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محمودا ﴾ وتزيد عليهما بالرضى ولم يقل سبحانه حتى ترضى فإن العطية هذه العطية غير تدريجية بتواتر

الأمثال وتعاقب الجزئيات وهاهنا كلام كثير لكنه أرفع سطحاً مما جرينا عليه في هذه الرسالة .

فالمحصل من جميع ما مرّ أن محمداً (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) على أن له الشفاعة للمذنبين من أمّته له مقام الإذن في الشفاعة والأخبار في ذلك كثيرة متضافرة .

فقد روى القمّي في تفسيره عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) في حديث ثم قال : ما من أحد من الأولين والآخرين إلّا وهو محتاج إلى شفاعة محمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) يوم القيامة . الحديث .

وروى هذا اللفظ في المحاسن عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) .

وروى العياشي في تفسيره عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث طويل ثم قال أبو عبدالله (عَلَيْهِ السّلام) : ما من نبيّ من لدن آدم إلى محمد إلّا وهم تحت لواء محمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) . الحديث .

وروى القمّي في تفسيره عن سماعة عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) قال : سألته عن شفاعة النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) يوم القيامة قال : يلجم الناس يوم القيامة العرق ويرهقهم الفلق فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا فيأتون آدم فيقولون : إشفع لنا عند ربّك . فيقول : إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح فيأتون نوحاً فيردّهم إلى من يليه ويردّهم كل نبي إلى من يلي حتى ينتهون إلى عيسى فيقول : عليكم بمحمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول : إنطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنة ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول الله عزّ وجلّ إرفع رأسك واشفع تشفّع وسلْ تعطَ وذلك قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً ﴾ .

وروى العياشي في تفسيره ما يقرب منه وهذا المعنى وارد في إنجيل برنابا بنحو أبسط فيما بشّر به المسيح عيسى بن مريم (عَلَيْهِ السّلام) بمحمد (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) .

وروى فرات بن إبراهيم في تفسيره عن بشر بن شريح قال : قلت لمحمد بن علي (عَلَيْهِ السّلام) : أيّة آية في كتاب الله أرجى ؟ قال (عَلَيْهِ السّلام) : ما يقول فيها قومك ؟ قلت : يقولون ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ . قال (عَلَيْهِ السّلام) : لكنّا أهل بيت لا نقول ذلك . قال : قلت : فأي شيء تقولون فيها ؟ قال : نقول ﴿ ولسوف يعطيك ربّك فترضى ﴾ الشفاعة والله الشفاعة والله الشفاعة .

القول في أقسام الشافعين

منهم الأنبياء والأولياء من البشر وقد سبق الكلام فيه

ومنهم الملائكة ، قال سبحانه : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وغير ذلك من الآيات .

ومنهم المؤمنون ، قال سبحانه : ﴿ وما أضلّنا إلّا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين ﴾ فقد استشعروا أن هناك صديقاً حميماً ينفع البعض لمكان قولهم (لنا) ويظهر منه أن الشافع والحميم إنّما ينفع المؤمنين .

وفي الكافي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) : إن الشفاعة لمقبولة وما تقبل في الناصب وإن المؤمن ليشفع جاره وماله حسنة فيقول : يا ربّ جاري كان يكف عنّي الأذى فيشفع فيه فيقول الله تبارك

وتعالى : أنا ربّك وأنا أحق من كافى عنك فيدخل الله الجنة وماله من حسنة وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً فعند ذلك يقول أهل النار : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ والروايات في هذا المعنى كثيرة .

ومن الشفعاء القرآن والأمانة والرحم عدّت من الشفعاء في الروايات ففي فردوس الديلمي عن أبي هريرة عن النبيّ (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) قال : الشفعاء خمسة القرآن والأمانة والرحم ونبيكم وأهل بيت نبيّكم .

أقول : ولعل شفاعة الثلاث الأول يستفاد من قوله سبحانه في وصف كتابه : ﴿ هدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾ وقد قال سبحانه : ﴿ يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون إلاّ من رحم الله ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ فبيّن سبحانه إن غاية عرض الأمانة على الإنسان وتحمله لها هو التوبة على المؤمنين والعذاب على المنافقين والمشركين بسببها وهو الشفاعة وقد فسّرنا الآية سابقاً بالولاية ولا تنافي وذلك لأن المأخوذ في كلامه سبحانه الأمانة دون الولاية فهو أخذ الخاص من العام وانطباقه به فافهم وقوله سبحانه : ﴿ إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ والحميم هو القريب ذو الرحم والدليل على شفاعته قوله تعالى (له) .

وفي الكافي عن سعد الخفاف عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) إنّه قال : يا سعد تعلّموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن

صورة نظر إليه الخلق . ثم ذكر (عَلَيْهِ السّلام) إنّه يأتي صف المسلمين ثم صف الشهداء ثم الأنبياء ثم الملائكة وكل يحسب أنّه منهم ثم يشفع فيشفّع ويسأل فيعطى . وفي آخره قال سعد : قلت : جعلت فداك يا أبا جعفر وهل يتكلم القرآن ؟ فتبسّم (عَلَيْهِ السّلام) ثم قال : رحم الله الضعفاء من شيعتنا إنّهم أهل تسليم ثم قال : نعم يا سعد والصلاة تتكلم ولها صورة وخلق تأمر وتنهى .

قال سعد : فتغير لذلك لوني وقلت هذا شيء لا أستطيع أن أتكلم به في الناس ، فقال أبو جعفر (عَلَيْهِ السّلام) : وهل الناس إلّا شيعتنا فمن لم يعرف بالصلاة فقد أنكر حقّنا . ثم قال : يا سعد أُسمعك كلام القرآن ؟ قال سعد : فقلت بلى صلّى الله عليك . فقال : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، فالنهي كلامُ الفحشاء والمنكر رجال ونحن ذكر الله ونحن أكبر . الحديث .

وهو مشتمل على معانٍ جمّة يستفاد بها أخرى والذي يرتبط بما نحن فيه أن المعاني التي تشترك في اللفظ مع المعاني والأحوال الموجودة في الأحياء كالأمر والنهي والنفع والشفاعة وغيرها ستتمثل في البرزخ بصورها ويتحقق في الحشر بحقيقتها ولمزيد البيان موضع آخر على أنّها مستفادة من البرهان المذكور سابقاً وهاهنا روايات أُخر متفرقة في أبواب المعارف والعبادات .

ومن الشفعاء الأعمال الصالحة قال سبحانه : ﴿ إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ﴾ فقد مرّ أن معنى الشفاعة تبديل سيّئة المذنب بالحسنة لقرب بين الشافع والمشفوع له والرواية السابقة في شفاعة القرآن تعطي معنى كليّاً في شفاعة الأعمال .

فصل ١٣
في الأعراف

قال سبحانه : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ أعراف الحجاب أعاليه والأعراف التلال المرتفعة من كثبان الرمل واتصال الأعراف في الآية الشريفة بالحجاب يؤيد المعنى الأول وكون الرجال عليها يؤيد المعنى الثاني لكن لا مغايرة فالحجاب ما يحجب شيئاً عن شيء فهؤلاء الرجال في مقام عالٍ مرتفع مطل على الفريقين أهل الجنة وأهل النار مشرف على المقامين الجنة والنار ولذلك كانوا على الأعراف ليعرفوا كلاً بسيماهم وقد وصف سبحانه الأمر بلسان آخر في قوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ فقوله ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ كقوله في ذيل آية الأعراف : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين ﴾ واختصاص المنافقين بالباب لمكان نفاقهم واشتراكهم مع المؤمنين في ظاهر أمرهم فيعذبون من ظاهر الحجاب من قبل الباب .

وبالجملة فقد بين سبحانه أن هذا الحجاب والسور شيء واحد ذو ظاهر وباطن وأن الرحمة للفائزين في باطنه وأن العذاب للهالكين في ظاهره فكأنّهم لو جازت أنظارهم ظاهره أصابوا النعيم وغشيتهم الرحمة وكان المؤمنين والكافرين ليس قبلهم إلاّ شيء واحد وإنّما الإختلاف من ناحية إدراكهم كحالهم في الدنيا وهو السبيل إلى الله

سلكه المؤمنون في الدنيا صراطاً مستقيماً وانحرف فيه غيرهم ولذلك قال سبحانه قبل آية الأعراف : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً قالوا نعم فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾ فالسبيل واحد وهو لله وإلى الله سلكه سالك بالإستقامة وآخر قصده عوجاً ومنحرفاً وهذا المعنى مكرّر الورود تصريحاً وتلويحاً في القرآن قال سبحانه : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون أوَلم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمّى وإن كثيراً من الناس بلقاءِ ربّهم لكافرون ﴾ وقال : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفيه حسابه ﴾ وقال : ﴿ فاعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأويهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدّاً يمنعنا عن الإستقصاء فيها وبيانها ما شرطنا على أنفسنا في صدر الرسالة من الإختصار .

ومن أبلغها في هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ وقد مرّ إن النعمة في هذه الآية هي الولاية وهي السبيل إلى الله ويقابله الكفر : ﴿ وأحلّوا قومهم دار البوار جهنّم يصلونها وبئس القرار ﴾ فغاية هؤلاء البوار لجمودهم على الظاهر واعراضهم عن الباطن والظاهر بائر والباطن ثابت قاطن كما

يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قدمَ صدقٍ عند ربّهم ﴾ وقوله : ﴿ في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ﴾ وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ﴾ وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذّابا ﴾ فغاية المؤمنين هو محل الصدق والحق ليس فيه لغو ولا كذب بخلاف غيرهم .

وكيف كان فأصحاب الأعراف هم المهيمنون على المكانين المشرفون على الفريقين وليست هذه الكثبان كثبان رمل من مادة أرضنا فقد قال سبحانه في وصف الأرض : ﴿ يومئذ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ بل إنما هو مقامهم المرتفع عن ساحة أهل الجمع فهم غير محضرين فهم المخلصون الذين حفظهم الله سبحانه من صعقة النفخ وفزع اليوم ومقامهم الحجاب وفيه الرحمة التي وسعت كل شيء والنار التي أحاط بأهلها سرادقها وهو المستشعر بقوله تعالى : ﴿ فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ ولم يقل سبحانه : فأذّن بينهم مؤذن كما لا يخفى ، وهم الحاكمون يوم القيامة قال سبحانه : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ وهي الجنة كما مرّ وكما يدل عليه قوله : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ وهم أصحاب الروح المأذون لهم في الكلام والقول الصواب في قوله سبحانه : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ .

وقد فصّلنا القول في معنى الروح وإيمانه وعلمه في رسالة الإنسان قبل الدنيا في قوله سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ فهم أعني أصحاب

الأعراف هم-المعنيون ظاهراً بقوله سبحانه : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفيّ وقال الذين آمنوا انّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة ﴾ فقد قضوا بخسرانهم .

وهم أيضاً المعنيون بقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ فزعمهم ذلك لما قيدوا في الدنيا فلم يتسع أنظارهم بأزيد من أن يدركوا ساعة من دهرهم واقعون فيها ففاتهم ما كانوا عليه قبل النزول في الدنيا وما سيكونون عليه بعد الإرتحال من الدنيا ووقعوا فيها بحسب سيطرة الزمان لا تزال ساعة تبطن وساعة تظهر فهم يقسمون حين البعث ما لبثوا غير ساعة وهذا الوهم الشبيه بالحقيقة قد قرّره سبحانه بقوله : ﴿ كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار ﴾ بلاغ وقوله : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسأل العادين قال إن لبثتم إلّا قليلاً لو أنّكم كنتم تعلمون ﴾ ولذلك فليس قولهم وقسمهم على ما يقولون ويدعون تقليلاً منهم لمدة مكثهم في الأرض بالنسبة إلى البقاء الأبدي الذي شاهدوه حين البعث ولذلك أردف ذلك بقوله : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ .

وقول أولي العلم والإيمان : ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ كأنّه إشارة إلى قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم ﴾ وقد مرّ معنى الآية في الكلام في الأجل والموت وإذ كان اللبث وإنتهائه مفروغاً منه أردفوه بقولهم فهذا يوم البعث وهو النتيجة وقالوا ولكنكم كنتم لا تعلمون بهذا الإنتهاء

والتحديد وان الساعة كلمح البصر أو هو أقرب وان جهنم لمحيطة بالكافرين .

واعلم أن صدور هذه الدعوا الباطلة من المبعوثين .

ثم ظهور بطلانها لهم وأمثال ذلك كالمخاصمات التي تقع بين الضعفاء والمتكبرين والأتباع والمتبوعين يوم القيامة على ما حكاه سبحانه عنهم لا ينافي ما مرّ من أن اليوم يوم يظهر فيه الحقائق وترتفع فيه الحجب فإن الظهور بنفسه يتحقق عن خفاء وينحل إلى مراتب غير أن الأمر طويل عسير عند بعض وقليل نزر يسير عند آخرين . هذا :

والأخبار والواردة في الباب تؤيد ما مرّ من المعاني فقد روى العياشي عن سليمان قال : سمعت رسول الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) يقول لعلي (عَلَيْهِ السّلام) أكثر من عشر مرّات : يا علي إنّك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار لا يدخل الجنة إلّا من عرفكم وعرفتموه ولا يدخل النار إلّا من أنكركم وأنكرتموه .

وروى القمّي في تفسيره عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : كلّ أمّة يحاسبها إمام زمانها ويعرف[1] الأئمة أوليائهم وأعدائهم بسيماهم وهو قوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ فيعطوا أوليائهم كتابهم بيمينهم فيمرّوا إلى الجنة بلا حساب ويعطوا أعدائهم كتابهم بشمالهم فيمرّوا إلى النار بلا حساب .

وروي في الكافي عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) في قوله تعالى : ﴿ وعلى الأعراف رجال . . . ﴾ الآية نحن على الأعراف

---

(١) وكانهم المراد فاعلاً للفعل المجهول في قوله سبحانه :
﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ الاية ، فهو سبحانه لا يخفى له منهم شيء والمجرمون في شغل عن المعرفة منه .

نعرف أنصارنا بسيماهم ونحن الأعراف الذين لا يُعرف الله عزّ وجلّ إلّا بسبيل معرفتنا ونحن الأعراف يوقفنا الله على الصراط فلا يدخل الجنة إلّا من عرفنا وعرفناه ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه .

أقول : استفاد (عَلَيْهِ السّلام) هذا المعنى وهو أن الأعراف من المعرفة من قوله سبحانه : ﴿ رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم ﴾ الآية ومن المحتمل أن يرجع (عَلَيْهِ السّلام) الضمير في سيماهم إلى قوله (رجال) و (كلاًّ) جميعاً فافهم .

وروى القمّي عن الباقر (عَلَيْهِ السّلام) انّه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : إنّهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم الأعمال وإنهم لَكما قال الله عزّ وجلّ . أقول : يشير (عَلَيْهِ السّلام) إلى قوله : ﴿ ونادوا أصحاب الجنّة أن سلام عليكم ﴾ .

وفي الجوامع عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : الأعراف كثبان بين الجنة والنار يوقف عليها كل نبيّ وكل خليفة نبيّ مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده وقد سبق المحسنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه : انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا إلى الجنة فيسلم عليهم المذنبون وذلك قوله تعالى : ﴿ سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ أن يدخلهم الله إيّاها بشفاعة النبيّ والإمام وينظر هؤلاء إلى النار فيقولون ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار ورؤساء الكفّار يقولون لهم مقرعين : ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويحتقرونهم بفقرهم ويستطيلون عليهم

بدنياهم ويقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ادخلوا الجنة ، يقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المستضعفين عن أمر من أمر الله عزّ وجلّ لهم بذلك ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون أي لا خائفين ولا محزونين .

أقول : وخصوصيات هذا الحديث مستفادة من خصوصيات آيات الأعراف والأخبار في هذه المعاني كثيرة مروية في تفسيري القمّي والعياشي وفي الكافي والبصائر والمجمع والإحتجاج . هذا :

والبرهان المذكور سابقاً ربّما استفيد منه هذا الموقف وهو وصول قوم إلى مقام ينشعب منه مقام الفريقين ولحوق الضعفاء والمتوسطين بهم وبه يظهر أن الأعراف ليس موقفاً ذا مرتبة واحدة بل ذو مراتب ولذلك لا نرى تصريحاً منه سبحانه أن المستضعفين على الأعراف كالرجال الذين يحكمون فيها وإنّما المفهوم أنّهم عندهم يشيرون إليهم ويخاطبونهم ويأمرونهم ويؤمنونهم .

فصل ١٤
في الجنّة

بسط الكلام فيها وشرح ما تضمنته الآيات والأخبار على كثرتها فيها أوسع من مجال هذه الرسالة فقد وردت في كتاب الله تعالى في وصف الجنّة ما يقرب من ثلاثمائة آية وذكرها مطّرد في جميع سور القرآن إلّا عشرين سورة هي سورتا الممتحنة والمنافقين وثمان عشرة سورة من السور القصار لكنّا نتعرض لكلّيات أوصافها على حسب المقدور .

فاعلم أن المستفاد من كلامه سبحانه أن هناك ارتباطاً مخصوصاً بين الأرض وبين الجنة قال سبحانه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوء من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ ولعل قولهم ﴿ صدقنا وعده ﴾ إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ والوراثة هي أن تملك شيئاً بعد ما ملكه آخر قبلك وتخول منه ما خوّله سلفك فالميراث يحتاج إلى شيء ثابت اعتورته يد بعد يد وقام به خلف بعد سلف وكان مقتضى ظاهر السياق في بيان صدق الموعد أن يقال : وأورثنا الأرض نتبوء منها أو يقال : وأورثنا الجنة نتبوء منها فالعدول عن ذلك إلى ما ترى يعطي إرتباطاً ما وإتحاداً مخصوصاً بين الأرض والجنة كما ترى .

وقد أخبر سبحانه بتبديل الأرض يوم القيامة تارة فقال : ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض ﴾ .

وبإشراقها بنور ربّها تارة فقال : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ﴾ .

وبقبضها تارة فقال : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾

ويشير إلى ما مرّ بقوله : ﴿ وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدار ﴾ .

واصرح منه قوله سبحانه : ﴿ والذين صبروا إبتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

فقد فسّر ووصف عقبى الدار بجنّات عدن يدخلونها والدخول يستدعي خروجاً ما سابقاً فمثلهم كمثل الذي يسكن أرضاً ثم يعمّر فيها داراً يسكنها ثم يزين قبّة من قبابها فيدخلها فإنّما هو أوج بعد حضيض أو إرتقاء بعد إرتقاء قال سبحانه : ﴿ كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابهاً ﴾ .

وهناك آيات أُخر تشعر بذلك كقوله سبحانه : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ وقوله : ﴿ تلك الجنّة التي نورث من عبادنا من كان تقيّاً ﴾ وقوله : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وفي المجمع عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) : ما من أحد إلاّ وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله : ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

أقول : والرواية لو صحّت لم تنافِ ما ذكرناه من وراثة الأرض وكذلك سياق قوله سبحانه : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ وهو ظاهر هذا والبرهان السابق تستفاد منه هذه الوراثة .

ثم اعلم انّه سبحانه كرّر الوعد بتطهير الجنّة وأهلها وتطييبها من الكدورات والظلمات قال تعالى : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ فالتفريع بالفاء يعطي طيب المنزل كطيب النازل وقال سبحانه : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ والتفريع فيها يعطي طيب المنزل وهو الأرض بطيب النازل بالصبر والفرق من جهة ان السلام الأول شكر والثاني في مقام البشرى .

وقال سبحانه : ﴿ ومساكن طيبة في جنّات عدنٍ ﴾ وقال : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سررٍ متقابلين لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ وقال : ﴿ لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات واجمعها معنى قوله سبحانه : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

فالخوف إنّما يكون من المكروه المحتمل والحزن على مكروه واقع فقد نفى سبحانه كل نقيصة وعدم واقع في الموجود ومحتمل فاصحاب الجنّة مبرّؤون عن النواقص والإعدام وكاملون في وجوداتهم فلا مزاحمة من مزاحمات الدنيا هناك أصلاً فهي المرفوعة عنهم فهم المفلحون المغشيّون بالأمن والسلام قال سبحانه : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ وقال : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلّا قيلاً سلاماً سلاما ﴾ .

ثم اعلم انّه سبحانه وعدّهم فيها كل لذّة وبهجة وجمال وكمال قال سبحانه ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربّهم ﴾ وقال : ﴿ نحن أولياؤكم في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نزلاً من غفور رحيم ﴾ .

وأكثر الآيات واردة في وصف خصوصيات من قصورها وحورها وطيورها وأشجارها وأثمارها وأنهارها وفواكهها وظلّها

وشرابها وغلمانها وخلودها وينبغي لك أن تفهم منها معانيها مطلقة غير مشوبة بالنواقص والإعدام .

ثم اعلم انّه سبحانه وعدهم أمراً وراء ذلك فقال : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءاً بما كانوا يعملون ﴾ وهذا الوعد بعد ما وصف سبحانه عطاءه بكل صفة جميلة بليغة يعطي أنّه أمر وراء ما يسعه افهام النفوس .

وقد روى القمّي في تفسيره عن عاصم بن صمد عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) في حديث يصف فيه الجنة ، قال : قلت جعلت فداك زدني . فقال : إن الله خلق جنة بيده ولم ترها عين ولم يطلع عليها مخلوق يفتحها الرب كل صباح فيقول إزدادي ريحاً إزدادي طيباً وهو قول الله : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

أقول : وقوله : ﴿ جزاءاً بما . . . ﴾ يعطي أن هذا الذي فوق فهم الأفهام اخفيت للإنسان بإزاء العمل جزاءاً له وقد قال سبحانه : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ﴾ فكل ما تتعلق به المشيئة مملوك للإنسان هناك وقال أيضاً : ﴿ وإن ليس للإنسان إلّا ما سعى وإنّ سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ فكل ما يحباه الإنسان هناك أعم مما يسعه الفهم وما لا يسعه مملوك لمكان قوله : (لهم) وواقع تحت المشيئة المطلقة لقوله : (ما يشاؤون) لكن الآية تفيد أن للإنسان كمالاً فوق مرتبة الفهم يمكن أن يملكه بالعمل وهو ظاهر ولعل ذلك ما يفيده قوله سبحانه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة ﴾ وهو المشاهدة بالقلوب في غير جهة ولا جسم ولا تشبيه لقوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً ﴾ حيث رتّب اللقاء على العلم النافع والعمل

الصالح ، ثم إنّه قال سبحانه : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ فاثباته المزيد لديه بعد ما أخبر أنّ لهم كل ما يتعلق به مشيئتهم يعطي أنّه أمر لا يقع تحت مطلق المشيئة ولاشك انّه كمال وان كل كمال يقع تحت المشيئة فليس إلاّ أنّه كمال غير محدود فلا يقع تحت المشيئة إذ كل ما يقع تحتها يصير محدوداً . هذا :

وفي تفسير القمّي في قوله ولدينا مزيد قال (عَلَيْهِ السّلام) : ينظرون إلى رحمة الله .

أقول : ولعل الرواية مستفادة من قوله تعالى : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فبيّن أن المزيد الذي هو رزق بغير حساب من الفضل وقد قال : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾ .

فالفضل من الرحمة وهي الرحمة من غير استحقاق وقال سبحانه : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتّقون ﴾ فهذا المكتوب لهم الذي لا يسعه شيء هو المزيد ولئن تدبّرت في قوله سبحانه : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ﴾ وقوله : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة ﴾ الآية وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ وقوله : ﴿ وأزلفت الجنّة للمتّقين غير بعيد ﴾ قضيت أن الرحمة هي الجنة بوجه بل أن الجنة من مراتبها .

فصل ١٥
في النار

أعاذنا الله سبحانه منها والآيات الواردة في تفاصيل العذاب والأخبار بها أكثر عدداً من آيات الجنّة فهي تقرب من أربعمائة آية وما خلت عن ذكرها تصريحاً أو تلويحاً إلّا اثنتا عشرة سورة من السور القصار وكيف كان فجملة حالهم أنّهم محرومون من الحيوة الحقيقية الأخروية قال سبحانه : ﴿ قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور ﴾ وقال : انّه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون ﴾ وقال : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالّون ﴾ وقد قال سبحانه في وصف الآخرة : ﴿ وأن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ وهي الرحمة الإلهية التي هي منبع كل كمال وجمال كما قال : ﴿ ورحمتي وسعت كلّ شيء فسأكتبها للذين يتّقون ﴾ وهي تفيد أنّهم في عين حرمانهم منها مشمولون لها وقد قال : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ وقال : ﴿ فضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ويتحصل منه أنّهم في عين مشموليتهم للرحمة محرومون عنها لكونها في باطن حجاب هم لا يجاوزون ظاهره وقد مرّ بيانه في فصل الأعراف فالحجاب هو الذي يمنعهم من النعيم وظاهره هو الذي يعذبون به وقد بيّن سبحانه أنّهم إنّما يعذبون بأعمالهم السيئة بأقسامها فأعمالهم هي أنواع عذابهم والأصل الذي ينشعب منه هذه الأنواع هو أصل الحجاب لهم وهو الغفلة قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ كلّا بل ران على قلوبهم ما

كانوا يكسبون كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فهم متوقفون في حجاب أعمالهم وقد قال سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثورا ﴾ .

وقال : ﴿ أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفيه حسابه ﴾ .

وقال : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً واحلّوا قومهم دار البوار جهنّم يصلونها وبئس القرار ﴾ .

وقال : ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ .

فمقامهم سراب الأوهام دون الحقيقة والظاهر دون الباطن والبوار والهلاك دون الحياة وموطنها كلّها هو الدنيا التي حياتها متاع الغرور ولذلك فلها ارتباط خاص بجهنم قال سبحانه : ﴿ وإن منكم إلاّ واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيّا ﴾ وقال سبحانه في سورة السجدة : ﴿ ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هديها ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنم من الجنّة والناس أجمعين ﴾ .

وهذه من أبلغ الآيات في الكشف عن شأن جهنم ولذلك ورد عنهم (عَلَيْهِم السّلام) كما في ثواب الأعمال عن الصادق (عَلَيْهِ السّلام) : من اشتاق إلى الجنّة وإلى صفتها فليقرأ الواقعة ومن أحبّ أن ينظر إلى صفة النار فليقرأ سجدة لقمان . وفي معنى الآية السابقة قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه إلى أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون ﴾ .

وممّا مرّ يظهر معنى صنف آخر من الآيات كقوله سبحانه : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ وقوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ .

والمراد بالحجارة بقرينة المورد هي الأصنام المتّخذة من الحجارة المعبودة من دون الله .

وقوله سبحانه : ﴿ أولئك هم وقود النار ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم ﴾ وقد استدرك سبحانه المعبودين من دون الله من عباده الصالحين بقوله بعد الآية : ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة ﴾ الآيات .

واعلم أنّ ما مرّ أصول صفة النار وهي المستفادة من البرهان السابق .

فصل ١٦
في عموم المعاد

قال سبحانه : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجلٍ مسمّى ﴾ أفاد أنّ خلقه ما في السموات والأرض وما بينهما مقرون بالحق وأجل مسمّى والباء للسببية أو للمصاحبة وقد عرفت في الفصل الأول إن الأجل المسمّى هو الحياة عند الله حياة تامة سعيدة من غير فناء وزوال ولا شوب بمزاحمات الحياة الدنيا وآلامها وأعراضها وأغراضها وهي حياة الدار التي نزلت منها كما قال سبحانه : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم ﴾ فمنبع حياة جميع هذه الموجودات على كثرتها وتفصيلها حياة تامّة غير محدودة ومعادها إلى ما بدأت منه .

وهذا هو الذي يعطيه كون الخلقة بالحق فإن الباطل هو الفعل الذي لا ينتهي إلى غاية تكون هي المنتهى إليها والمرادة بالفعل ومن المحال أن يكون المراد والغاية بالفعل نفس الفعل وبالخلق نفس

الخلق إلّا أن يكون كاملاً في أصل وجوده غير متدرج من النقص إلى الكمال ثابتاً غير متغير فالبراهين مطبقة على ذلك على أنّه من القضايا التي قياساتها معها .

ومثل الآية السابقة قوله سبحانه : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ وحيث لم يفرق سبحانه في السياقين بين الموجودات الحية باعتقادنا وغيرها والعاقلة وغيرها علمنا بذلك أن حكم المعاد والحشر يعم الجميع .

ثم إنّه سبحانه قال في خصوص الأحياء من خليقة الأرض : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ .

وظاهر آخر الآية أن حشرهم إنّما هو لكونهم أمماً أمثال الناس غير باطل الخلق ففيهم مقصودة من الخلقة وهي العود فالفرق والنشر مقصود للجمع والحشر كما ان الجمع والحشر مقصود للفرق والنشر يعطي ذلك قوله سبحانه : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه ﴾ وكذلك صفاته وأسمائه تعالى فافهم إن كنت من أهله إن شاء الله .

فحشرهم إلى ربّهم نتيجة كونهم أمماً أمثال الناس أو كالنتيجة له ويبيّن السبب في ذلك قوله تعالى : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ فإنّه الكتاب الحق الذي يقول فيه هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وحقيّة الكتاب تعطي أن لا تكون الإختلافات التي تجعل الدواب والطير أمّة أمّة يفترق كل أمّة عن غيرها باشكال وصور وأفعال وخواص فيها لغواً باطلاً بل مؤثراً في الغاية والمنتهى من دون استهلاك لها وزوال في الوسط قبل البلوغ إلى الغاية وإلّا كان الإختلاف باطلاً وتفريطاً في الكتاب مخلاً لإتقانه فقد تحصل أن الحيوانات الأرضية أمم أمثال الناس بينهم ولهم ما للناس من العود

إلى ربّهم والإجتماع عنده سبحانه وقال سبحانه أيضاً : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ فعمم الحكم إلى كل ذي روح في السموات والأرض ومثله قوله سبحانه ﴿ إن كلّ من في السموات والأرض إلّا آتي الرحمن عبداً لقد أحصيهم وعدّهم عدّاً وكلّهم آتيه يوم القيمة فردا ﴾ .

وقوله : ﴿ عبداً ﴾ يعطي أن لكل منها عبودية بحسب نفسه ونسكاً إلهياً يتقرب به إلى ربّه وقد مرّ تفسير الفرد .

واعلم أن قوله : ﴿ وكلّهم آتيه يوم القيمة فرداً ﴾ على ما يفسره الآيات من معنى الفرد يعطي لقوله : ﴿ وهو على جمعهم ﴾ معنى آخر غير ما يتسابق إلى الفهم من معنى الجمع وقد تكرر إطلاق الجمع والحشر على البعث في الآيات كقوله : ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه ﴾ وقوله ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ وبذلك يتّضح معنى قوله سبحانه : ﴿ وسيق الذين اتّقوا ربّهم إلى الجنة زمرا ﴾ وقوله : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾ وقوله : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم ﴾ .

ولنرجع إلى ما كنّا فيه ويشير إلى بعث غير ذوي الروح والشعور قوله سبحانه ﴿ ومن أضلّ ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءاً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وضمير ﴿ كانوا ﴾ في الموضعين راجع إلى المعبودات من غير الله كما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ ذلكم الله ربّكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبّئك مثل خبير ﴾

وكفرهم قولهم على ما حكاه سبحانه : ﴿ تبرّأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون ﴾ .

وبالجملة فقوله : ﴿ من لا يستجيب له ﴾ ظاهر الدلالة على أنّه المعبودات من غير الله من النبات والجماد غير البشر والملائكة فهم مبعوثون ليوم القيامة بدلالة قوله : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءاً ﴾ ويدل عليه بعينه قوله سبحانه : ﴿ أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون ﴾ .

واعلم أن ظاهر هذه الآيات ملازمة البعث مع الحياة والعلم كما يفيده حال الضمائر في الآيات فما ألطف إشارة قوله : ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ وقد مرّ في فصل الشهود إن ظواهر الآيات تعطي سراية الحياة والعلم إلى جميع الموجودات .

واعلم أن ما ذكرناه من شمول البعث لغير البشر والملك من سائر ما خلق الله تعالى في السموات والأرض وما بينهما هو الذي تدل عليه الأخبار إلاّ أنّها متفرقة مثل ما يدل على أن كلب أصحاب الكهف وناقة صالح والنعم التي حجّ عليها ثلاث سنين أو سبعاً تدخل الجنة وأن الوحوش والكلاب تدخل النار تنهش المجرمين قال تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ .

وما ورد أنّ الله تعالى يأخذ يوم القيمة للجماء من القرناء رواه في المحاسن عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السّلام) وفي المجمع عن النبيّ (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) .

وما ورد من قوله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) حين رأى ناقة معقولة وعليها جهازها : أين صاحبها ، مروه فليستعد غداً للخصومة . رواه في الفقيه عن النبي (صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) وما ورد عنهم

(عَلَيْهِم السّلام) في مانع الزكاة انّه تنهشه كلّ ذات ناب بنابها وتطأه كلّ ذات ظلف بظلفها وما ورد في الضحايا إلى غير ذلك .

واعلم أن الآيات غير متعرضة لحال بعث من خلقه الله تعالى فيما وراء السموات والأرض وهم جماعة من خلق الله تعالى لا يحد وجودهم حدّ ولا يقدر ذواتهم قدر فهم أرفع من الحد والقدر فلا يتصور في حقّهم بعث وإعادة غير أصل خلقهم والصفات التي تبرز يوم القيامة حاصلة عندهم دائماً وقد ذكرناها في الفصل الرابع فالبدء والعود في حقّهم واحد ولذلك لم يرد في كلامه سبحانه ما يشعر بالبعث في حقّهم . هذا :

ويلحق بهم في ذلك المخلصون فقد مرّ نبذة من حالهم في تضاعيف الفصول الماضية فهم عند الله لا يحجبهم عنه حجاب مستور ليسوا في سماء ولا أرض وهم المهيمنون على الجميع المتوسطون بينه وبين خلقه في المبدأ والمعاد وهم المستثنون من حكم قبض ملك الموت وأعوانه والآمنون من فزع النفخة وصعقتها وهم غير محضرين لعرصة المحشر وهم الساكنون في الحجاب الحاكمون بين الناس ولبيان أزيد من هذا من صفاتهم مقام آخر .

واعلم أن ما مرّ هو المستفاد من البرهان على ما يعطيه الأصول السابقة فإن الغاية عين الفاعل بالضرورة فما بدأ منه شيء في وجوده وتعيّن من لدنه في ذاته لابدّ أن يكون هو المنتهي إليه وجوده .

ومن هنا يظهر أنّ كلاًّ من الجنة والنار ذات مراتب ودرجات فمراتب الجنة آخذة من تحت إلى فوق ومراتب النار بالعكس من ذلك .

ومن هنا يظهر أن كل درجة عالية في الجنة مرتبة لفاعل ذي الدرجة الدانية ولو تصور في النار مثل ذلك لكان الأمر بعكسه .

ومن هنا يظهر معنى اللحوق والشفاعة وقد مرّ مراراً ويظهر معنى جمّ غفير من الآيات والروايات والله الهادي وهو المعين .

خاتمة

وقد عزمنا فيما مرّ على تخصيص فصل مستقل في آخر الرسالة بالكلام في معنى المغفرة لكن ضيق المجال وتراكم الأشغال منعنا عن الكلام وحجب دون المرام والله سبحانه أسأل أن يوفقني ان الحق فصلاً بهذه الرسالة يتبين به ما كنّا نريده من وضع الكلام في ذلك وأرجو أن يشاء الله ذلك فإنّه على كل شيء قدير .

واعلم ان نوع الكلام في مباحث المعاد طويل الذيل مبسوط الأطراف ويهديك إلى ذلك أن تتدبر في ما ورد في كل من المبدأ والمعاد من الآيات القرآنية والبيانات الإلهية .

والذي صدّنا عن الغور في أزيد مما تشاهده في تضاعيف الفصول السابقة هو إيثار الإختصار على أن بسط المقال بأزيد مما رأيت غير ميسّر ولا ميسور عند الباحثين عن الحقائق ولذلك فالإشارات في هذه المطالب تغلب العبارات ولذلك غيرنا اسلوب هذه الرسالة عن سائر الرسائل المتقدمة عليها .

الحمد لله على الإتمام بالدوام والصلاة على أوليائه المقربين سيّما سيّدنا محمد وآله والسلام .

وقع الفراغ في العشر الأول من شهر جمادى الثانية من شهور سنة ألف وثلاثمائة وواحد وستين هجريـــــة قمريـــة
وأنا العبد محمد حسين الحسني الحسيني الطباطبائي
كُتبت في قرية شاذ آباد من أعمال بلدة تبريز

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع
حسن محمد إبراهيم علي
وأولاده

واليكم بعض المنشورات
كما تزودكم بكتب دور النشر الأخرى

١ ـ عبقري من بلادي ـ كامل الصباح الذي اخترع ٧٦ اختراعاً وكان نابغة إسلامية عربية . . . . . .
٢ ـ صلح الحسن ـ الشيخ راضي آل ياسين . . . . . .
٣ ـ علي من المهد إلى اللحد ـ كاظم القزويني وملحق به الكتاب التي الإمام علي والعلوم الطبيعية
٤ ـ البراهين العلمية في إثبات القدرة الإلهية ـ عامة دليل وبرهان على وجود الخالق : الشيخ عبد الجليل
٥ ـ مفاتيح الجنان ـ مع الصحيفة السجادية ـ كبير
٦ ـ عباءة الصالحين ـ نخبة من رجال (مسحاب)
٧ ـ مفاتيح الجنان ـ للقمي ، (مسحاب) . . . . . .
٨ ـ مسائل المسيطين في أحوال الحسن والحسين ـ للحائري ، (مجلدين) . . . . . .
٩ ـ الفلقان الكتاب والعترة ـ للشيخ محمد حسن المظفر ، وملحق به الكتاب الثاني مع الدكتور أحمد أمين في حديث المهدي والمهدوية للشيخ محمد أمين والدين
١٠ ـ يوم الإسلام ـ تأليف أحمد أمين . . . . . .
١١ ـ دراسات في عقائد الشيعة الإمامية ـ للسيد محمد علي الحسيني العاملي ـ وهي عبارة عن أربع كتب
١٢ ـ طب الإمام الرضا (ع) ـ الرسالة الذهبية . . . . . .
١٣ ـ كشكول البحراني ـ (٣ مجلدات) . . . . . .
١٤ ـ القصص العجيبة ـ عبد الحسين وصنعيب . . . . . .
١٥ ـ المكاسب ـ للشيخ الأنصاري (٣ مجلدات) . . . . .
١٦ ـ مدينة المعاجز ـ معاجز آل البيت للبحراني (٥ مجلدات) . . . . . .
١٧ ـ معالم المدرستين ـ مرتضى العسكري (٣ مجلدات)
١٨ ـ من حياة الإمام الرضا (ع) ـ المعصومة (ع) السيد عبد العظيم الحسني ـ الهائي تأليف علي الفضيلي
١٩ ـ المحجة فيما نزل في القائم الحجة ـ للبحراني . . . . . .
٢٠ ـ الصرخ بعد الشدة ـ للقاضي التنوخي ، (مجلدين)
٢١ ـ مصباح الكفعمي ـ بحلة حديدة وحرف واضح (مجلدين) . . . . . .
٢٢ ـ الكنز المدفون والعلك المشحون ـ دائرة معارف ـ أز كشكول ـ للسروطي . . . . . .
٢٣ ـ الدر النفيس في التحنيك باليمين ـ للطبسي
٢٤ ـ أخلاق أهل البيت ـ للسيد مهدي الصدر . . . . . .
٢٥ ـ صاحبه امرأة بهجة قلب المصطفى من مهرها إلى لحدها (مجلدين) أحمد الرحاني

٢٦ ـ صباحة في الشرب أو مصير الأرواح بعد الموت مع حنضان للإمام علي بلا ألف وبلا نقط وضعيفة الكوزية ومعه ١٠ ـ محمد بحبوب
٢٧ ـ فرائد الأصول ـ رسائل الشيخ الأنصاري ، (مجلدين)
٢٨ ـ نقد الآراء المطفية وحل مشكلاتها ـ كاشف الغطاء (مجلدين)
٢٩ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام تأليف العلامة السيد حسن الصدر . . . .
٣٠ ـ الرسائل التوحيدية ـ للسيد محمد حسين الطباطبائي
٣١ ـ زواج بغير أعوجاج ـ السيد حسن الشامي . . . . .
٣٢ ـ الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب مقدمة إلى العربية الدكتور عمر فروخ ـ تأليف آل علي . . . . . .
٣٣ ـ الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد ـ السيد محسن الأمين العاملي . . . . . .
٣٤ ـ أسرار الشهادة ـ الفاضل الدربندي بحلة جديدة وحرف واضح (مجلدين) . . . . . .
٣٥ ـ تفسير قرات الكوفي بحلة جديدة وحرف واضح (مجلدين)
٣٦ ـ مفتاح الجنة ـ في الأدعية والزيارات وتعليم الصلاة ـ حسن الكتبي . . . . . .
٣٧ ـ الحجاب أو العفاف بين الدلب والإيجاب محمد أمين وبن الدين . . . . . .
٣٨ ـ فضائل أهل البيت المسمى بـ «بحائر الدموعة» محمد الصفار . . . . . .
٣٩ ـ رحلة الربحاني للمرحوم الشيخ عبد الكريم الربحاني (مجلدين) . . . . . .
٤٠ ـ محضر النحو ـ الدكتور هادي الفضلي . . . . . .
٤١ ـ الإمام المهدي (ع) وظهوره ، الغيبة الصغرى ، والغيبة الكبرى وعلامات الظهور . الشهرودي . . .
٤٢ ـ إسلام إمرأة . بسام مرتضى . . .
٤٣ ـ الغيبة بين الإسلام والنظم الوضعية ـ سام مرتضى
٤٤ ـ دور وس في المنظر ـ سام مرتضى
٤٥ ـ الانسارف والتنبيهات . لأبي علي ابن سينا ، مع شرح نصير الدين الطوسي ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا (٤ مجلدات) . . . .
٤٦ ـ الشجاع في حلبة ملحك والبقاع
٤٧ ـ التوبة إلى الله

لبنان بيروت حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الكنار ـ شامين سنتر م

منطقة ٧ شارع ٥٣

تلفون المحل والمسكن: ٠١/٢٧٠٩١٦

الفهرست

الموضوع		الصفحة
	١ ـ رسالة في التوحيد وفيها فصول	
فصل ١	قول السوفسطائية والفلاسفة	٥
فصل ٢	في أنّ الوجود حقيقة أصيلة	٦
فصل ٣	في أنّ الوجود الواجب له اطلاق بالنسبة	٦
فصل ٤	في الدلائل النقلية من الكتاب والسنة	٧
فصل ٥	اختصاص التوحيد الإطلاقي بالملّة الاسلاميّة	١٤
	مقالة ملحقة برسالة التوحيد وفيها فصول	
فصل ١	التوحيد الذاتي	١٥
فصل ٢	في أنّ أكمل مراتب التوحيد مختص بالشريعة	١٦
فصل ٣	في أنّ التوحيد الذاتي مشهود بشهود فطري	١٧
	٢ ـ رسالة في أسماء الله تعالى وفيها فصول	
فصل ١	في تقسيم أسماء الله تعالى	٢٤
فصل ٢	في الدلائل النقلية من الكتاب والسنّة	٢٥
فصل ٣	في أنّ الذات المقدّسة كانت أول الأسماء	٢٦
فصل ٤	في الدلائل النقلية من الكتاب والسنة وفيها مباحث	٣٠
المبحث الأوّل	في الأسماء التي خصّت بالذكر في القرآن	٣٠
المبحث الثاني	الميزان الكلي في تفسير الأسماء والصفات	٣٤
المبحث الثالث	في كون الكمالات الأسمائية ذاتية	٣٦
المبحث الرابع	في الاعتبارات وحيثيّات الأسماء	٣٩

٣ ـ الرسالة الثالثة من كتاب التوحيد وفيها فصول

فصل ١	في أنّه لا فعل في الخارج إلّا فعله سبحانه	٥٧
فصل ٢	في الدلائل النقليّة من الكتاب والسنّة	٥٨
فصل ٣	في أنّ نظام كلّ سافل ثبت في ما فوقها ثبتاً	٦٢
فصل ٤	في الدلائل النقليّة على ما مرّ في الفصل الثالث	٦٥
فصل ٥	في أنّ النفوس مجرّدة في أوّل وجودها	٧١
فصل ٦	في الدلائل النقليّة من الكتاب والسنّة	٧٣
فصل ٧	في ارتفاع التوهّم من سبق القضاء والقدر	٨٩
فصل ٨	في الدلائل النقليّة من السنّة على ما مرّ	٩١
فصل ٩	في انتزاع المشيئة من الموجود الصادر منه سبحانه	٩٣
فصل ١٠	في الدلائل النقلية من الكتاب والسنة على ما مرّ	٩٥

٤ ـ رسالة الوسائط وفيها فصول

فصل ١	في أنّ الوجود فيه أربعة عوالم كليّة مترتبةٌ	١٠١
فصل ٢	في الدلائل النقلية من الكتاب والسنّة	١٠٤
فصل ٣	في الخاتمة لما مرّ في الفصلين	١١٢

٥ ـ رسالة الانسان قبل الدنيا وفيها فصلان وخاتمة

فصل ١	في انّ الانسان بجميع خصوصيّات ذاته وصفاته وأفعاله	١٦٣
فصل ٢	في الدلائل النقليّة من الكتاب والسنة على ما مرّ	١٦٤
خاتمة	في أنّ الملائكة قايسوا الخلافة الأرضيّة على خلافتهم	١٧٦

٤ ـ رسالة الانسان في الدنيا وفيها أيضاً فصلان

فصل ١	في أن صور علومنا الذهنية على قسمين	١٨٧
فصل ٢	في أنّ الانسان لا حياة له في غير ظرف نفسه	١٩٤

٧ - رسالة الانسان بعد الدنيا وفيها فصول

فصل ١	في الموت والأجل	٢٠٤
فصل ٢	في البرزخ	٢١٦
فصل ٣	في نفخ الصور	٢٢٥
فصل ٤	في صفات يوم القيامة	٢٣٢
فصل ٥	في قيام الانسان إلى فصل القضاء	٢٤٠
فصل ٦	في الصراط	٢٤٣
فصل ٧	في الميزان	٢٤٦
فصل ٨	في الكتب	٢٤٨
فصل ٩	في الشهداء	٢٥٥
فصل ١٠	في الحساب	٢٦٥
فصل ١١	في الجزاء	٢٧٢
فصل ١٢	في الشفاعة	٢٧٧
فصل ١٣	في الأعراف	٢٨٧
فصل ١٤	في الجنّة	٢٩٤
فصل ١٥	في النار (أعاذنا الله تعالى منها)	٢٩٩
فصل ١٦	في عموم المعاد	٣٠١
الخاتمة		٣٠٧
الفهرست		٣٠٩

تم الكتاب